رواية

بنت الخيّاطة

جمانة حدّاد

نوفل

رواية

بنت الخيّاطة

جمانة حدّاد

نقلها من الإنكليزية نور الأسعد

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019

المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تمثل سوى كاتبها.

صورة الغلاف: **© Elly De Vries / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-151-9
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-152-6

Original title:
Q - The Seamstress' Daughter

إلى بشير:
طويلًا ناديتُهُ قبل أن يكون له اسمٌ
سوف طويلًا أحبه بعد أن أنسى اسمي.

«أعشق أساكَ وهو أيضا أساي،
حزننا القديم هذا الذي لا يعلوه حزن.
أعشق تديك المنكسر، هناك حيث حبك
لا ينِي يغني لي كمثل قبرةٍ جامحة.»

دانيال فاروجيان

«على طللي ينبت الظلُ أخضرَ،
والذئب يغفو على شعر شاتي
ويحلم مثلي، ومثل الملاكْ
بأن الحياة هنا... لا هناكْ.»

محمود درويش

«غيوم، يا غيوم
باركي الملعونَ السائرَ حتى النهاية
باركيني
علّميني فرَحَ الزوال.»

أنسي الحاج

«حسنًا أيها العصر
لقد هزمتني
ولكني لا أجد في كلّ هذا الشرق
مكانًا مرتفعًا
أنصبُ عليه رايةَ استسلامي.»

محمد الماغوط

سيرون

(عنتاب، ١٩١٢ – بيروت، ١٩٧٨)

جدّة جميلة الكبرى

جدّة شيرين

والدة ميسان

«تلك التي لا تنفك تعود.»

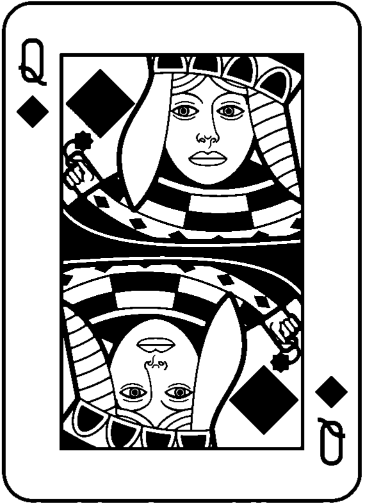

ملكة الديناري امرأةٌ مطواعةٌ، غامضةٌ ومعطاء. تختبر مراحل انتقاليةً كثيرةً في حياتها، ولا تنفك تخوض تحدياتٍ جديدةً. قد يستحوذ عليها القلق

أحيانًا، لكنها تستمد القوة من قدرتها الفطرية على استخلاص الحكمة من تجاربها. تحكم الروح قدرها.

«لا تقلْ إنّ هذا العالم محكومٌ بالظلمات،
لا تقلْ إنّ الخلود تبجُحٌ لا أكثر،
ولا إنّ الروح محض ترابٍ ورماد؛
أنا أؤمن، لأنّ لا خلاص آخر.»

زابل خاندجيان
(شاعرة أرمنية)

ثم التفت إليها المطران، وقال بكلّ ما يحفل به صوته الجهوريّ من هيبة:

– كرّري من بعدي: أنا، جميلة الصرّاف، أتخذك، بسّام بركات، برضاي ووعيي واختياري، زوجًا شرعيًا لي بحسب قوانين الكنيسة المقدسة.

تناهتْ إليها كلماتٌ غريبةٌ، مفهومةٌ بالكاد، كما لو أنّها طالعةٌ من رحم حلمٍ مخيف، لكنْ لها طعمٌ ولونٌ وملمس؛ مُزّةٌ كحلْقٍ حزين، زرقاء كعين الهاوية، وخشنة كالندم. أعادت إليها تلك الكلمات، على الفور، ذكرى البئر في فناء جدّتها في عنتاب. كانت تحبّ أن تصغي إلى أنغام الدلو وهي ترتطم بسطح الماء، وتغوص عميقًا لتعود زاخرةً بعد أن تجذبها جدّتها الى فوق بجهدٍ جهيد، ساكبةً بعضًا من مائها على الدرب. هكذا كان البلل في طفولتها صوتًا وليس إحساسًا. كانت تتخيّل أنّ ذلك الوعاء النحاسي الصدئ إنّما هو مخلوقٌ حيّ يغنّي ويرقص. لا بل يشعر بالتعب أحيانًا بعد رحلاتٍ كثيرة، هبوطًا وصعودًا، على طول البئر. لم يكن يُؤذَن لها بالجلوس إلّا على بعد مترٍ من الفوهة. هناك، كانت تقرفص وتسترق السمع إلى الأصداء والترددات المتعالية من القاع. كم كانت تشتهي التحديق في داخل البئر، لكنّ الأرملة العجوز لم تكن تسمح لها بذلك. في محاولةٍ لثنيها، قالت لها أخيرًا، ذات يوم: «الماء ممرّ الأشباح». كانت الأشباح تُرعب الطفلة بسبب القصص التي ترويها لها شقيقتها كلّ ليلةٍ قبل النوم. «الأشباح كائناتٌ تتجسس علينا، متحيّنةً أن نبادلها ولو نظرةً كي تجذبنا إلى دائرة الغارقين في سباتٍ عميق. لذا، مهما فعلتِ، إيّاكِ والتحديق في عيونها!»

كان ذلك كافيًا لقمع فضولها، ومنعها من عصيان الأوامر. بل إنها لم تعد تشرب الماء من الإبريق الخزفي في منزل جدتها، خوفًا من أن تعوم الأشباح في حلقها ثم تنزلق إلى معدتها...

– كزري من بعدي...

ذكّرتها هيئة المطران الملتحي بأحد أصدقاء والدها، «الرجل الذي يتحدث مع الأفاعي»، كما كانت تسميه. كان يسحر الأفاعي بمزماره ويحملها على التمايل مثلما يحلو له. وكان، كلّما عاد إلى عنتاب من إحدى رحلاته الطويلة حول العالم، يعزج على منزلهم ليروي لهم أخبارًا مشوّقة عن مآثره وعروضه في الأماكن الغريبة والبعيدة التي زارها. كان الجميع يرهفون السمع إلى مغامراته مفتونين، ما خلاها هي. صحيح أنها كانت تحسده على أسفاره، إلا أنها لم تكن تحبه. شيءٌ ما فيها، لم تكن قد اكتشفت اسمه بعد، كان حاقدًا عليه. بعد كلّ قصة من قصصه، كانت تطرح عليه السؤال نفسه: «ولكن، ماذا لو أنّ الأفعى لم تكن تريد أن ترقص؟ ماذا لو أنها كانت مرهقةً وتريد أن تنام؟»

«كانتْ»! الأفعى أنثى، طبعًا، مثلما ساحرُ الأفاعي ذَكَرٌ. هي ترقص وترقص، إلى أن يقرّر هو أنه بات في إمكانها التوقّف، ويسمح لها بالزحف مجددًا الى سلّتها. صحيحٌ أنها، بطبيعتها، تحمل السمَّ في ريقها، لكنّ أحدًا لم يعلّمها كيف تستخدمه، أحدًا لم يعلّمها أن تبصق في وجه الظالم الذي يستبدّ بها. علّموها فقط كيف تطيع، كيف تتمايل لترضي، كيف تشعر بالذنب لأنّها أفعى: أصل الشرور كلّها. الأهمّ من ذلك، علّموها أن تتوهّم أنها هي التي تمارس سحرها عليه. فالفريسة المثالية هي تلك التي تجهل أنها فريسة. مرايا الغرور لا تُقاوَم، وليس أكثر من الزهو مخاتلةً للذات.

تساءلت العروس: أتُراني الأفعى المتراقصة في الكنيسة اليوم؟ أأنا محض دميةٍ مطيعةٍ ومثيرةٍ للشفقة تُرفَه عن المدعوّين؟ بدأ إحساس جامحٌ بالخَدَر يغمرها؛ خَدَرُ ماضٍ يستدرجها بعيدًا من الواقع.

لكن الألم الذي كانت تشعر به في قدميها، بسبب الحذاء الضيق الذي استعارته من أخت زوجها العتيد، أنقذها من الانجراف التام. فجأة، عادت الى اللحظة الراهنة وشعرت في ظهرها بحريق النظرات المسمرة عليها، بانتظار كلماتها التي تأخرت. آنئذٍ رفعت رأسها وقالت بنبرة ملؤها التحدي:

«أنا، سيرون صزافيان، أتخذك، بسام بركات، برضاي ووعيي واختياري، زوجًا...»

تلا نذرها صمتٌ مُحرج. فقد لاحظ جميع الحاضرين، في كاتدرائية البشارة للروم الكاثوليك في القدس، أنها قالت اسمًا مختلفًا عن ذلك الذي تلفظ به المطران. لكنّ سيرون لم تكن لتسمح لأحدٍ بترهيبها أو حشرها في زاوية. كانت تعرف أن الذنب ليس ذنب المطران، بل كانت متيقنة أنّ حماتها، أمّ باسم، هي التي طلبت من رجل الدين إسقاط الـ«يان» من شهرتها واستبدال سيرون بمُعادِله العربي، جميلة. فالقول إنّ الستّ فدوى لم تكن راضيةً عن اختيار ابنها عروسًا غير عربية، وغير تابعة لطائفة الروم الملكيين، لهو تلطيفٌ للحقيقة. «يا أرض انشقي وابلعيني»، كانت الحماة تردد في سرّها طوال فترة الخطوبة. لكنّ سيرون كانت فخورةً بإرثها الأرمني، وبكلّ ما غرسه في روحها من ثقلٍ وعزّة ومسؤولية. هي سيرون صزافيان، ابنة الشهيدَين مارين ونظار. وفي شرايينها، تتدفّق دماء الثورة التي تمتزج دومًا مع نبيذٍ من نوعٍ خاص، اسمه الألم.

مارين ونظار. كم تمنّت أن يكونا إلى جانبها اليوم ليشهدا على هذا اليوم المميز في حياتها، هذا «الانتصار». هو، في الواقع، ليس انتصارًا بالمعنى الفعلي للكلمة، فالمنتصر يملك دومًا خياراتٍ. أمّا هي فلم تكن تملك أيّ خيار. لكن، يمكن القول إنّ هذا الزواج هو أشبه بلسانٍ تمدّه في وجه القَدَر. كانت متأكّدة من أنّ والديها كانا ليفضّلا، بدورهما، أن تتزوّج برجلٍ من بيئتهما وثقافتهما. لكن، في نهاية الأمر، تبين لها أن

باسكا - الذي كانت تكرهه بكلّ جوارحها عندما فُرضتْ عليها خطوبتهما فرضًا - هو رجلٌ طيبٌ، طيبٌ فعلًا. ولكان والداها وافقا عليه وباركا هذا الارتباط. لم يكن يشبه، في شيء، أمّه اللئيمة التي لم تُفوّت فرصةً لتشعرها بالدونيّة، وبأنها غير جديرةٍ بأسرة بركات.

تذكر سيرون المرّةَ الأولى التي اصطحبها فيها باسم إلى بيته ليُعرّفها بعائلته. يومذاك، قالت لها فدوى باحتقار: «أنتِ بنت الخياطة إذًا؟ وماذا يعني اسمكِ الغريب العجيب هذا؟» لكن باسكا تدخّل بسرعةٍ ليخفّف عدائية أمّه الجليّة: «معناه جميلة. وهي جميلتي حقًّا». فهمتْ فدوى أنّ ابنها كان في الحقيقة يحذّرها لكي تلزم حدودها وتضبضب لسانها - «ما تغلطي هالغلطة معي يا أمي». منذ تلك اللحظة، أدركتْ أنّ معركتها ضدّ كنّتها خاسرة، ما جعلها تكره سيرون أكثر فأكثر.

كان آل بركات عائلةً عاديةً جدًا ومتواضعةً في الواقع. لا تُصنّف حتّى ضمن الطبقة المتوسطة. لكنّ فدوى المتغطرسة كانت تتصرّف كما لو أنها من سلالة الملوك. في صباح يوم العرس، عندما أقبلتْ لزيارة العروس مع لفيف من النساء المُسنّات غصبًا عنها، انصياعًا للعادات والتقاليد، وخوفًا من القيل والقال إن هي لم تفعل، سقتْ سيرون جرعةً أخرى من سمّها إذ قالت لها: «لطالما كان باسم مُحبًا لفعل الخير. وزواجه بكِ فعلُ خيرٍ بكلّ تأكيد». لكنّ سيرون تجاهلتْ كلماتها وركّزتْ على تعديل الطرحة المخزمة على رأسها.

أمّا صديقتها المفضّلة أناهيد، فلم تنفكّ تسألها مذ خذد موعد العرس: «هل أنتِ مغرمةٌ به؟»

وكانت سيرون تجيبها دومًا: «حبّ؟ الحبّ للأحياء يا حبيبتي أناهيد».

لم تكن تبحث عن الحبّ. الحبّ بالنسبة إليها كان يعني الأسى والحسرة. الحبّ هو الممنوع. هو الخسارة. ما تحتاج إليه هو الأمان.

الأمان فحسب.
- هل أنتِ مغرَمةٌ به مثلما كنتِ مغرَمةً بآقي؟
- كلّا. لحسن الحظ.

كلّا، لم تكن مغرَمةً بباسم. كان يستحيل عليها أن تُغرَم به. لكن، بعد التعرّف إليه طوال ثمانية عشر شهرًا، وهي فترة خطوبتهما المدبرة، أتيح لها أن تثق به وأن تتأكّد من أنه سيهتمّ بها ويرعاها. وهذا كلّ ما كان.

لكنّ سيرون كانت تخشى عاقبةً واحدةً محدّدةً لهذا الزواج: الجانب الجسدي، أو ما يسمّيه الناس بـ«الواجبات الزوجية». لم يكن خوفُها خوفَ عروسٍ خجولةٍ وبريئةٍ تترقّب بخشيةٍ ما ستوشك على اكتشافه، وما ستتعلّم، رويدًا رويدًا، أن تحبّذه وتتمتّع به؛ بل إنّ سيرون كانت تعرف ما هو متوقَّعٌ منها، وكانت على يقينٍ سلفًا من أنّها لن تتمكّن من الاستمتاع بهذا «الشيء» أبدًا. كان قد أُتيح لها، في ماضٍ بعيدٍ كأنه حياةٌ أخرى، أن تكتشف كيف يحلو للرجل أن يتصرّف بجسد المرأة. تعلّمتْ ذلك بالطريقة الصعبة. بالنسبة إليها، كان الخيار المتوفّر واحدًا، والأسلوب المعتمَد واحدًا، يقوم على وجود شخصين، أحدهما فاعلٌ والآخر خاضع. الرجل يأخذ والمرأة تستسلم. هو ينهش ويتلفظ بوليمته، فيما تنتظر هي ريثما ينتهي. وفي كلّ مرّةٍ تصوّرتْ ذلك يحدث بينها وبين باسم - كلّ هذا الأنين، والعنف، والدماء، والفوضى - تمنّتْ لو كان في مقدورها أن تتلاشى. كانت تقول لأناهيد مرارًا وتكرارًا: «الرجل الهائج أشبه بغولٍ يتضوّر جوعًا».

لم تكن أناهيد تفهم سبب هذا الفزع كلّه. ذلك أنّ سيرون احتفظتْ لنفسها بتفاصيل كثيرة عن ماضيها. جلّ ما كانت تعرفه أناهيد عنها، هو أنّ صديقتها يتيمةٌ أرمنيةٌ من عنتاب، تبنّاها زوجان هما قارتوهي وغريغور في حلب، واصطحباها معهما الى القدس. أمّا كلّ ما سبق حياتها في فلسطين، فظلّ سرًّا غامضًا. كانت أناهيد تعلم أنّ في الحياة

صمتًا من النوع المنيع، على المرء أن يحترمه بكلِّ بساطة. وقد أنبأها حدسها أنّ صمت سيرون هو من هذا النوع بالذات. لكنها كانت تعرف أيضًا كيف تُبهج صديقتها بحس دعابةٍ لا يخلو من الفحش. فلطالما سألتها وهي تقهقه: «حسنًا، هل أنتِ جاهزةٌ للقاء السلحفاة السحرية؟» كانت تستخدم هذا التعبير للإشارة إلى القضيب الذكَري. هكذا وصفته لها شقيقتها المتزوجة الكبرى ذات مزة، ومنذ ذلك الحين وهي تشير إليه باسم السلحفاة. «يبدو أنه سلحفاةٌ لطيفةٌ جدًا. إذا توددتِ لها، تُخرج رأسها وعنقها وتبتسم لكِ. لكن احذري أن تُجفليها وإلّا سارعت إلى الانكماش». كانت سيرون تحملق فيها باستياء، من دون أن تستطيع مع ذلك كبت ضحكتها. فقد كانت أناهيد بذيئة اللسان على نحوٍ لا يُصدَّق، كما لو بالفطرة، وكان في مقدورها أن تُضحِكها حتى في أحلك اللحظات.

ازداد الصمت في الكاتدرائية ثقلًا على ثقل. فما كان من أناهيد، التي كانت تقف بجانبها، آخِذةً دور الإشبينة بجذيةٍ قصوى، إلّا أن لكزتْها بمرفقها. فإذا بسيرون ترجع من شرودها وقد تنبهت إلى حيث تقف ولماذا. حانت منها التفاتةٌ إلى باسم الذي كان يشبك يده بيدها فوق الإنجيل. فبادلها النظرات مبتسمًا، تمامًا كما توقّعت أن يفعل. كان يعشق عنفوانها المسنّن وطبعها الناري. لاحظ المطران ابتسامة العريس، فاعتبرها إشارةً مبطّنةً على قبوله ما حصل. حينها فقط، تابع مراسم الزواج.

«ما جمعه الله، لا يفرّقه إنسان».

شعرتْ برغبةٍ قويةٍ في الالتفات إلى حماتها عند تلك اللحظة. هل سترغمها هذه المرأة الحقود على تسديد ثمن وقاحتها؟ قلّما يهمّ سيرون. كانت تنتظر بفارغ الصبر انتهاء المراسم كلّها كي تخلع من قدمَيها هذا الحذاء الضيق.

الضيق تمامًا مثل مستقبلها.

القدس – الأحد 3 نيسان 1932

كم أتوق إلى خلع هذا الحذاء الضيق...

أنظر إلى الرجال وهم يرقصون الدبكة من حولي، والنساء في فساتينهن التقليدية الملونة وهن يلوحن بمناديلهن البيضاء المطرزة فوق رؤوسهن، فلا يسعني إلا أن أفكر: ماذا أفعل هنا؟ كيف وصلت إلى هذه اللحظة في الزمان والمكان؟ أنا لا أنتمي إلى هذه الأرض. أنا دخيلة، وسأبقى دومًا دخيلة؛ شبح فر من حلقة الغارقين في سباتهم، وفقدّر له العودة إليها قريبًا.

هل أنا الشخص الوحيد على سطح هذه الأرض الذي يخشى الحياة أكثر مما يخشى الموت؟ الذي ترعبه السعادة أكثر من التعاسة؟ أختلس النظر إلى هذه الوجوه الجذلة التي تبتسم لي فأشعر باليأس والوحدة. كقطرة ماءٍ ساكنةٍ في نهرٍ متدفق. كيف لهؤلاء الأشخاص الابتهاج؟ ألا يعرفون أن القصة خدعة لا أكثر؟ ألا يعرفون أنهم يحاولون الاحتيال على الفراغ ليس إلا؟ عقلي يأمرني بأن أشعر بالسعادة، لكنّ قلبي يأبى أن يطيع. في مكانٍ ما بين الاثنين، قُطعت الأعصابُ وانقطع الاتّصال. قلبي هذا فارغ. كلا، قلبي هذا مليءٌ؛ مليءٌ بالجثث. هي محشورةٌ فيه كديدان. تتأكلني. تمضغ جوارحي ببطء. قضمةٌ تلو قضمةٍ تلو قضمة. ها قد أتت على رئتي اليسرى. ألهذا أتنفس بصعوبة يا ترى؟

كم يزن القلب؟ القلب الفارغ، اللاقلب، مجزأ من حمولة الحب، والشغف، والخيبة، والترقّب، والعطف، والوجع، والحماسة، والرغبة، والندم، والشك، والغضب، والحقد، والدفء، والطموح، والإيمان، والقلق، والارتياب؟

مجزأ من حمولة كلّ من فقدناهم على طول الدرب؟

تقترب مني عجوزٌ لم يسبق لي أن التقيتُها. تُقبّلني. أشعر برغبةٍ عارمةٍ في مسح آثار قبلتها المبللة عن خدي. أشعر برغبة في شق خدي بأظفاري الطويلة كي تنزفا، فتجرف الدماء معها هذه الكذبة. قُبلتها بقعةٌ تلطخ روحي. قُبلتها تخبرني كم أنا محتالةٌ قذرة.

تقول لي: «عقبال ما نفرحلكن بعريس».
لكني لا أريد أطفالًا. رحمي، بدورها، مكتظّةٌ بالجثث. لا مكان فيها لتكوُّن طفلٍ ستأكله الديدان شيئًا فشيئًا. قضمةً تلو قضمةٍ تلو قضمة.
لا. أنا لا أريد أطفالًا.
ليس طالما يموت الأطفال.

لم يسبق لعنتاب أن شهدتْ في شهر نيسان يومًا كالذي وُلدتْ فيه سيرون صزافيان. كانت الأسابيع التي سبقتْ ولادتها متلبدةً بالغيوم وممطرةً على غير عادة. لكن الربيع، في ذلك المساء بالتحديد، قرّر أخيرًا أن يطلّ برأسه على البلدة، وانسحبت الغيوم بعيدًا، بهمسةٍ من قمرٍ ساطع.

يومها، قال والدها نظار: «سأسميها سيرون، لأنها حملت الجَمال معها».

فاحتجّتْ والدتها مارين. مثلُها فعلتْ جدّتها، وكانت الجدّةُ الوحيدةُ التي لا تزال على قيد الحياة في الأسرة:

«ولكن يا نظار، هذا ليس باسم مسيحي!»

«ولكن يا نظار، سَمِّها لوسين، أفضل!»

كان من الصعب جدًا معارضة كلتا المرأتين. لكن نظار نجح في الصمود أمامهما: «سيرون. سيكون اسمها سيرون. نقطة على السطر!»

كانت سيرون صهباء الشَّعر على نحوٍ غير مألوف. لم يكن شَعرها مائلًا إلى البرتقالي أو الكستنائي، بل كان يتوهج بأحمرَ خالصٍ، قانٍ، متقد. إلى ذلك، كان مجيئها إلى الدنيا بمثابة مفاجأةٍ، بعد ستة حوادث إجهاضٍ متتالية. كان للزوجين ابنتان قبلها، ماريا وأوسانا، وابنٌ وحيد، هاغوب، وُلدوا جميعًا سليمين معافين على التوالي بعد زواجهما. ثم ما لبثت مارين أن أصيبت بمضاعفاتٍ صحيةٍ ألمّتْ بها طوال إحدى عشرة سنةً، فعجزتْ عن حمل جنينٍ في رحمها. عندما حملتْ مجددًا عام

1911، كانت أكيدةً من أنها ستجهض للمرة السابعة. لكنّ سيرون أثبتت لها العكس.

سفاها أشقاؤها، وكانوا جميعًا يزدانون بشعرٍ أسودَ مائلٍ إلى الزرقة، « Garmeer Klghargeeg» [1]. كانوا يدلّلونها ويلبّون كلّ طلباتها ونزواتها، لكن أوسانا، شقيقتها التي تكبرها باثني عشر عامًا، كانت المفضّلة بالنسبة إليها من بينهم جميعًا. كانت أوسانا تُطعِمها وترعاها وتلاعبها كما لو أنها ابنتها. أما شقيقها الأصغر، نرسيس، فوُلد بعدها بسنةٍ واحدة، عام 1913.

عنتاب كلمةٌ آراميةٌ تعني «عين الماء الطيبة». سكانها من الأتراك، والعرب، والأكراد، والأرمن. كان نظار إسكافيًا ومارين خيّاطة، خيّاطةً موهوبةً جدًا، حد أنها وُصفت بـ«الساحرة» بسبب قدرتها على تحويلِ خرقةِ قماشٍ باليةٍ إلى تحفةٍ في غاية الجمال والأناقة، وعلى تفصيل كلِّ ثوبٍ بطريقةٍ تُخفي عيوب جسمٍ ما، أو تُبرز محاسنه. كانت النساء يقصدنها، من كلِّ حدبٍ وصوبٍ. يتوافدن من القرى المجاورة إلى عنتاب في طلبها هي شخصيًا.

كانت حياة الزوجين متواضعةً جدًا، شأنهما شأن جميع أهل البلدة تقريبًا. فباستثناء الدكتور أفيديس الذي كان يتباهى بكرشه الضخم، وكأنّه علامةٌ على حسن طالعه، لم يكن أيُّ شخصٍ يرتدي الملابس الثمينة أو يعيش في بيتٍ كبير. كانت عنتاب معروفةً بمصنوعاتها القطنية والجلدية، وقد زاوَل كُثُرٌ من سكانها الأرمن مهنًا في مجال الحياكة، وصنع الأحذية وإصلاحها، أو غيرها من الحرف المماثلة. وكانت تشكّل أيضًا مركزًا تجاريًا بفضل موقعها الاستراتيجيّ الرابط بين طرقٍ تجاريةٍ مختلفة. كانت الحياة بسيطة... مثلما ينبغي للحياة أن تكون.

دأب نظار على جلب الأحذية القديمة معه إلى المنزل، يعطيه إيّاها هذا الزبون أو ذاك، بعد أن تكون قد أتمّت مدة محكوميتها تحت

قدميه. فيضعها الإسكافي في خزانةٍ مفتوحةٍ كان بناها خصيصًا لهذا الغرض، في غرفة النوم الفسيحة الوحيدة في البيت. كان هو ومارين يحتلان السرير الحديدي المتهالك، فيما الأطفال يفترشون الأرض في مختلف أنحاء الغرفة من حولهما. وكان السرير هديةً تلقاها يوم عرسه من والدته التي قالت له بحزم، عندما حاول أن يعترض: «لقد وُلدتُ على هذا السرير، وأمنيتي أن يولد أطفالك عليه أيضًا... كما أني أفضل أن أنام على الأرض. هكذا أشعر بأني أقرب إلى والدك».

لم يعرف نظار والده إلا من خلال قصص أمه التي لم تنفك ترويها له. في بعض الأحيان، كان يشعر بأنها قصص نسجتها من بنات خيالها، ثم صدقتها كي تخفف من شعورها بالوحدة، أو كي تخترع الحياة التي لم تعشها قط. فبعد ولادة نظار بوقتٍ قصير، توفي الوالد جزاء التهابٍ في السنّ سفم دمه وفتك به. فما كان من الأرملة الشابة إلا أن نذرت حياتها وطاقتها لتربية ابنها الوحيد. وعندما حان الوقت (في رأيها) ليتزوج، أخذت على عاتقها مهمة إيجاد عروسٍ له بعنايةٍ وانتباه. بعد العديد من الاستفسارات والاستشارات والمقارنات، وقع اختيارها أخيرًا على يتيمةٍ أرمنيةٍ كان والداها قُتِلا خلال مجازر ديار بكر عام 1895، فأوت الإرسالية البروتستانتية ابنتهما مارين، وكانت يومها في الثانية عشرة من عمرها، في مدرسة عنتاب للفتيات، حيث لقنها الإرساليون أصول الخياطة والطهي. تعهدت والدة نظار أن «تنقذ الفتاة المسكينة من التحول إلى بروتستانتية». أعطت العروسين قطعة أرضٍ صغيرة كانت ورثتها عن إحدى عمّاتها كي يبنيا بيتًا لهما، قائلةً: «لا يليق بزوجين جديدين أن يبدأ حياتهما بصحبة امرأةٍ عجوز».

كرهت مارين خزانة الأحذية. كانت السنوات الثلاث التي أمضتها في الإرسالية قد جعلتها مهووسةً بالتنظيف، فدأبت على إنفاقِ ساعاتٍ طويلةٍ وهي تنظّف الأحذية البالية في الباحة الأمامية من المنزل، قبل أن تُجيز لها عبور عتبة بيتها الناصع. لم تكن تكف عن التذمر: «لا أفهم

لماذا تحب هذه الأشياء القذرة». لكن نظار لم يكن يعير كلامها اهتمامًا. كان يملك أسبابه، ويصعب عليه أن يشرحها لزوجته. للرجل نقاط ضعف يشعر بها هو فقط، وعليه ألّا يعترف بها البتة. هذه «الأشياء القذرة»، كما تصفها مارين، مجبولةٌ بحكاياتٍ كثيرة، تنطوي على طُرُقٍ سلكَتْ وأخرى لم تَسلُك، ولقاءاتٍ لا تحصى، منها الممتع ومنها المؤلم. كلّ مساءٍ، كان الرجل ينحني فوق أحدثِ زوجٍ تلقّاه، فيمضي ساعاتٍ في تصليحه وتحسينه بلا هوادة، كما لو أنه يقنعه بالعودة إلى الحياة. كان يتخيَّل ماضي كلِّ حذاء، ويتصوّر الجبال الشاهقة التي تسلّقها، والاعترافات السرِّيّة التي سمعها ولم يفصح عنها. لو كان للأحذية القدرة على الكلام، لكانت تجهش بالبكاء، أو تنفجر بالضحك، أو تصرخ من الألم...

كانت سيرون تحبّ تلك الأحذية أيضًا. تشعر بارتباطٍ خاصٍّ بها، على غرار ارتباطها بالأشياء الجامدة عمومًا. لم تفهم سبب ذلك في صغرها. لم يكن في مقدورها التكهن أنّ حساسيتها، منذ نعومة أظفارها، جعلتها تقدر الجوامد لأنّ الجوامد مسالمةٌ وكتومةٌ وتفضّل الابتعاد عن الأضواء... لأنّ الجوامد عاجزةٌ عن الإحساس بالوجع... لأنّ الجوامد لا يمكن أن تكون أبدًا متكبرةً أو أنانيةً أو فظّةً أو متأففة، بل هي دائمًا تحت رحمة المخلوقات الحية التي تستخدمها. مهما حدث، تظلّ صبورةً ومتسامحة. وعندما تنكسر أو تتعطّل أو تبلى، لا تتوقّع من المخلوقات الحية أن تُشفق عليها أو أن تندب خسارتها. جلّ ما تفعله هو الاختفاء بلباقةٍ وخفر.

منذ أن تعلّمت سيرون كيف تخطو خطواتها الأولى، كانت تتسلّل أحيانًا إلى غرفة النوم، على غفلةٍ من والدتها، وتنتعل بعض هذه الأحذية. هناك، كانت تنفق ساعاتٍ في نسج صورٍ تتشابك غالبًا مع القصص التي كانت تُروى لها قبل النوم.

ذات مساء، وبينما كان الجميع يناقشون مستقبل هاغوب كإسكافي، أعلنت سيرون بفخرٍ إلى مائدة العشاء: «عندما أكبر، أريد أن أصبح جزمةً حمراء». لم يتمالك نظار نفسه من الضحك، في حين لم تجد مارين إطلاقًا ما يُضحك في الأمر، بل قالت له: «الذنب ذنبك، هذه نتيجة هوسك بالأحذية!»

سألتها شقيقتها أوسانا: «لِمَ اخترتِ الجزمة يا سيرون؟»

– لأني أريد أن أجول في أماكن عدة.

– لكنكِ تستطيعين التجوال كإنسانة. لِمَ تريدين أن تكوني حذاءً؟

– الإنسان يُصاب بالتعب. عندما أسير في الحقول مع تاتيكي [2]، تكون مضطرّةً إلى التوقف والاستراحة كلّ نصف ساعة. أما الأحذية، فلا تُصاب بالتعب!

– صحيح. ولِمَ اخترتِ اللون الأحمر؟

أجابت كمَن يقول أمرًا بديهيًا: «لأنّ شعري أحمر طبعًا!»

وهي سوف تجول في أماكنَ وأماكنَ فعلًا. قدماها الصغيرتان تنتظرهما طُرُقٌ وعرةٌ كثيرة، لعلها أكثر صعوبةً وانحدارًا مما سلكته أيٌ من هذه الأحذية القديمة. لكنها لم تكن تعرف ذلك بعد.

طُرُقٌ ستسلكها حافية.

عنتاب – الخميس 8 نيسان 1915

بدءًا من يوم أمس، أصبحت لديّ صديقةٌ جديدة. إنها دميةٌ. وقد سمّيتُها «بيلاك» [3]. صنعتْها أمي بنفسها لتكون هدية عيد ميلادي الثالث. استغرق منها هذا العمل سبعة أيام من التدبيس والدرز والقصّ. في نهاية الأمر، خاطت لها ثوبًا زهريًا جميلًا، كالذي كانت قد خاطته لي، واستخدمتْ خيوط صوف حمراء مغزولة ليغدو شعرها شبيهًا بشعري.

سمحتْ لي بمراقبتها بينما كانت مستغرقةً في عملها. صحيحٌ أنها لم تسمح لي باستخدام المقصّ، لكنها علّمتني كيف أدخِل الخيط في

الإبرة. فكانت، كلما ناولتها الإبرة الجاهزة، تقول لي:
– أترين هذا الثقب الصغير يا سيرون؟ أسهل أن يمر جَملٌ عبره من أن يدخل رجلٌ ثريٌ إلى ملكوت الله.
– ما هو الجمل يا مايريغ [4]؟
– إنه حيوانٌ ضخم، سيريليس [5].
– أكبر من الحصان؟
– نعم، أكبر من الحصان.
– وما معنى الرجل الثري؟
– إنه شخصٌ روحه ميتة.
– وما معنى «ميتة»، مايريغ؟
لكنها لم تجبني.

عندما اقتحم الجنود الأتراك منزلهم في عنتاب، في ذلك الصباح، واعتقلوا والدها، لم تفهم سيرون ما الذي يحدث. كانت والدتها مارين تصرخ وتتوسل إليهم أن يعفوا عنه، لكنهم لم يبالوا. قيّد الجنود نظار كما لو أنه كلبٌ مسعور، ثمّ أرغموه على الركوع، وجرجروه إلى الخارج وهو لما يزل جاثيًا على ركبتيه. كان يرتدي ملابسه الأنيقة المخصصة لأيام الآحاد، مثل كلّ فردٍ آخر في الأسرة. سيرون، بدورها، كانت ترتدي ثوبها الزهريّ الجديد. كان الجميع يستعدون للذهاب إلى كنيسة «سورب سركيس» المجاورة، لحضور قداس صبيحة الأحد.

«أرمن قذرون! لا مكان لكم هنا!»

رُكبتا والدها، كانتا جلّ ما تفكّر فيه سيرون في تلك اللحظة. استحوذت ركبتاه على كامل تفكيرها. لا بد من أنهما تمزّقتا، وأنّ الدمَ لطّخهما بشدةٍ جراء جرجرته على هذا النحو. سوف تهرع لجلب المرهم الذي كانت جدتها قد استخدمته، مرةً، لتطبيب جرحها البليغ يوم سقطتْ من شجرة الكرز. ستغسل الركبتين أولًا بالماء الساخن والصابون، لئلا يلتهب الجرح. وستدهن المرهم فوق ركبتيّ والدها

وهي تنفخ عليهما برفق، لأنّ المرهم دائمًا ما يحرق قليلًا في البداية. بعد ذلك، ستحضر علبة الخياطة التي تخبئها والدتها بعنايةٍ، في الرف الأعلى من رفوف المطبخ. ستستعين بكرسيٍ وتعتليه بحذرٍ حتى تمسك بالعلبة. بإمكانها أن تطلب من أوسانا أن تجلبها، لكنها تفضّل ألّا تفعل ذلك. فأوسانا منهمكةٌ في البكاء الآن. ستجلس سيرون إلى جانب والدها، وتُدخِل الخيط الأسوَد في الإبرة، وستخيط سرواله الأسوَد الممزّق. فهي بنت الخياطة، وتجيد الخياطة بالفطرة. بعد ذلك سيعود كلّ شيءٍ إلى طبيعته. كلّ شيء.

رنها صوتُ أبيها الجهوري إلى الواقع بقوة. «إذا كنتم ستقتلونني، فدعوني أقف على الأقل. لا أريد الموت جاثمًا على ركبتي». لكنّ الجنود تجاهلوه، وأقدم كلٌّ منهم على إطلاق النار عليه مزئين في الصدر، على مرأى من زوجته وأطفاله. هوى مباشرةً الى الوراء بعد الطلقة الأولى، لكنهم واظبوا على إطلاق النار. كانوا يستهدفون البقعة نفسها، مزةً تلو المزة. بات الثقب في صدره هائلًا. بات الثقب في صدره شمسًا حمراء متوهجةً تحملق في وجه سيرون. غطت الطفلة عينيها بكفيها الصغيرتين. عندها فقط، بدأت بالبكاء. كانت تعلم أنّه ما من مرهمٍ سحريٍ في الدنيا يمكنه أن يبلسمَ ثقبًا كهذا.

بكت سيرون، كجرحٍ متدفّقٍ بلا هوادة. هي في الواقع لم تكفّ عن البكاء منذ تلك اللحظة حتى نَفَسها الأخير. أمّا اللّون الزهري، فبات بالنسبة إليها لون الدموع. لون أبٍ قتيل. لون بيتٍ مهجور. لون غدٍ لن تتمكّن من اللحاق به قطّ.

عنتاب – الأحد 25 نيسان 1915

أمشي فأتعثّر بالناس. إنّهم في كلّ مكان. الطريق مرصوفةٌ بالجثث. أهذه لعبةٌ يلعبونها؟ ولكن، إذا كانت هي لعبةٌ فعلًا، فلِمَ كلّ الأشخاص من حولهم يصرخون وينتحبون؟ السير فوق الجثث ليس مسلّيًا. يبدون مخيفين تحت قدمي. وجوههم بشكلٍ خاص. مع كلّ خطوةٍ أخطوها،

أتوقع منهم أن يزعقوا، لكنهم لا يفعلون. هم ممدّدون فحسب، جامدين كصخور. لا شك في أنهم أقوياء جدًا، وإلّا كيف يتحملون ثقل كلّ هؤلاء الذين يسيرون فوقهم، من دون أن يحركوا ساكنًا؟

ذات يوم، أقبل رجلٌ غريبٌ إلى قريتنا. كان له رأسٌ حليقٌ مستديرٌ ويرتدي ملابس غريبة. أخبرنا أنّ باستطاعته السير على النار. قال إنّ السير فوق النار لا يخلّف فيه أدنى شعورٍ بالألم. ثم كشف لنا عن قدميه المتقرّحتين. كان الجلد عند راحة قدميه أسود وسميكًا، تمامًا كالفحم. انتابتني كوابيسُ عن هاتين القدمين لأسابيع بعد ذلك. هل ستلقى قدماي المصير نفسه؟

هيا، قفوا جميعًا. كفّوا عن ممارسة هذه اللعبة الفظيعة!

أنا مشتاقةٌ إلى هايريك [٤]. مشتاقةٌ إلى تاتيكي أيضًا. لم تركناهما وحيدين؟ أخبرتني أمي أنهما لن يعودا أبدًا. قالت مرارًا: «أبدًا، أبدًا». هل الذنب ذنبي؟ هل أسأتُ التصرف؟

أنا جائعةٌ. لكن، لا طعام. آكلُ الأعشاب. طعمها كريهٌ. إنها مكسوةٌ بالغبار، وأعتقد أني لمحتُ حشرةً عليها أيضًا.

الجوّ حارٌ جدًا. أشعر بالتجفاف والتعب. ليتني أستطيع النوم لبعض الوقت.

وداعًا تاتيكي. وداعًا هايريك.

بعد مقتل نظار مباشرةً، تلقّت مارين أمرًا بإخلاء المنزل. غطّت جثة زوجها بملاءةٍ بيضاء، ثم وضّبت ما استطاعت، وفرّت بأطفالها الخمسة بعيدًا من منطقة الخطر. ساروا طويلًا مع نساءٍ وأطفالٍ آخرين، فضلًا عن بعض الرجال المسنين من عنتاب وقرىً أرمنيةٍ مجاورة. كانت الشوارع تغصّ بالجثث المتحلّلة، على غرار أوراقِ شجرٍ متساقطة.

مَن يموت بين أيدينا لا يتركنا قط، حتى عندما نتركه نحن. قبل رحيل مارين، مدّدت جثة نظار في ذاكرتها، إلى جانب جثتَي والدَيها.

الذاكرة كالمشرحة: فيها صفوفٌ لا تنتهي من الأدراج نعيد فتحها بين الفينة والأخرى كي نطمئنَ على موتانا. لقد كبرتَ جدًا يا حبيبي. كم تليق بك هذه التسريحة الجديدة. لم أنسك طبعًا! كلّ ما في الأمر أنّي كنت منشغلةً بالاستعداد للموت أنا أيضًا. نغمز لهم، ثمّ نغلق الدرج ثانيةً ونغادر. لكن لمدّةٍ قصيرةٍ فقط. نعلم علم اليقين أننا سننضمّ إليهم قريبًا في ذاكرةِ شخصٍ آخر.

قطعت المجموعةُ الصحراءَ السوريّة سيرًا، في محاولةٍ للوصول إلى برّ الأمان في حلب، حيث كان لمارين أحد الأقرباء البعيدين. ألبست الأمُّ نجليها زيّ الفتيات كي تمكّنهما من عبور مناطق الخطر، فالأتراك يفتكون بالذكور بشكلٍ منهجي. لكنّهم لم يكونوا قد عبروا ضواحي عنتاب بعد، عندما لاحظ أحد الجنود شارب هاغوب، ابن الرابعة عشرة، وقد بدأ يبزغ على وجهه، فأرداه في الحال. لم يسمح حتّى لمارين بأن تودّع ابنها البكر، بل أخذ يجرّها من دون رحمةٍ بعيدًا من جثّة هاغوب الممدّدة في ثوبٍ أزرق، لكأنّه عصفورٌ جريحٌ تحتضنه سماءٌ بلا غيوم. كانت تودّ معانقته مثلما عانقت مريم العذراء أمُّ الأحزان ابنها، لكنّ الجنديّ أجبرها على النهوض ومتابعة المسير.

في المساء نفسه، عندما هبط ظلام الصحراء الحالك على القافلة، شعرتْ فجأةً بحضورٍ غريبٍ قربها. وإذا بصوتِ رجلٍ يهمس بكلماتٍ غير مفهومةٍ في أذنها. لم تتمكّن مارين من رؤيته، فارتاعت في بداية الأمر. لكنّ النبرة تناهتْ إليها وَدودةً ولطيفة. دفع الغريب بشيءٍ ما بين يديها، مربّتًا كتفها برفق، ثمّ مضى بخطىً سريعة. تحت ضوء القمر، رأت ملابسه وهو يدبر بعيدًا، فعرفتْ فيه جنديًا تركيًا. تفحّصتْ ما أعطاها إياه وقد تملّكها الذهول، وإذا بها ترى الثوب الأزرق الذي كان هاغوب يرتديه، مبقّعًا بالدم والعرق، إلى جانب عبوةِ مياهٍ نصف ملأى. استنشقتْ مارين رائحة ابنها وأخذتْ تبكي. لم تعرف ما الذي كان

يُبكيها أكثر: أخسارة طفلها التي لا تُحتمل، أم وجود قلبٍ ملؤه العطف والإنسانية في خضمّ هذا الحقد كلّه.

في تلك الرحلة المشؤومة، تعرّضت مارين للاغتصاب المتكرّر على أيدي جنودٍ مختلفين، وكادت أن تلقى حتفها. أوسانا اغتُصبت أيضًا في اليوم التالي، لكنّ بنية الفتاة الضعيفة لم تساعدها على تحمّل ذلك. توقّف قلبها عن الخفقان أمام عينَي سيرون. كان النصف السفلي من فستانها مرفوعًا حتى غطّى رأسها، فلم تتمكّن سيرون من رؤية وجهها لحظة مفارقتها الحياة. لم ترَ إلّا ساقَيها المتباعدتين، والدم الذي كان يقطر من بينهما، من ذلك «الجزء المعيب من الجسم» الذي كانت أمّها تأمرها دومًا، هي وشقيقاتها، بإخفائه جيدًا.

ذلك الجزء المعيب من الجسم، حيث تبدأ المذبحة.
ذلك الجزء المعيب من الجسم، حيث يتّحد الألم والنشوة.
ذلك الجزء المعيب من الجسم، حيث الأسرار كلّها تُستَر.
ذلك الجزء المعيب من الجسم، حيث الطّرق كلّها تتلاقى.
ذلك
الجزء
المعيب
من
الجسم
حيث
الموتى
يُبعثون.

كان تمرينًا على الخسارة بالنسبة إلى سيرون... تمرينًا سيحسم مصيرها. وولّى « Gaghant baba» [2] وولّت معه إلى غير رجعةٍ كلّ القصص الخرافية ذات النهايات السعيدة. ساروا أيامًا عدّة تحت شمسٍ لا ترحم، ولم تظهر حلب بعد. فالأتراك كانوا يتعمّدون دفعهم نحو

مسالك شاقةٍ لزيادة رحلتهم صعوبةً. هكذا، اختاروا لهم طرقًا وعرة عبر الجبال والمناطق البرّية لإطالة محنتهم أكثر.

شيئا فشيئا، أخذت القافلة تتضاءل إلى أن بلغت ثلث العدد الذي كانت عليه في بادئ الأمر. تناثرت الجثث على طول الطريق مثل الذباب. بات الموت منظرًا مألوفًا إلى درجة أنه لم يعد يستدرّ أي ردّ فعل. لم يعد ينتزع حتى دموع الأمهات. لا منظر أقسى من أولئك الذين باتت مشاهد الرعب والفظائع أمرًا اعتياديًا بالنسبة إليهم. كانوا يتابعون سيرهم كالزومبي، مجرّدين من إنسانيةٍ فاقت كلفتُها قدرتَهم على التحمل، جازين ظلالًا ثقيلةً لشهداء تركوهم خلفهم في البعيد.

كان الظمأ أشد وطأةً من الجوع. وكان بقاء أطفال مارين الثلاثة الآخرين على قيد الحياة أشبه بمعجزة. فعبوة الماء التي كان الجندي قد أعطاها إياها فرغت سريعًا. وظلّ أولادها يتوسلونها: « Tzaravem ! »[8]. كم تمنّت أن تشقّ معصميها لتسقيهم دمها. لكنها كانت تعرف أن الدماء لا تروي العطش.

الدماء لا تروي إلّا الحقد والكراهية.

كان أطفالها هم الوحيدين الذين صمدوا في تلك المجموعة. تناوب الكبار على حمل الصغيرين عندما كان التعب ينهكهما. بدا واضحًا أنّ نرسيس كان يعاني، في حين حافظت سيرون على قوتها. نادرًا ما كانت تتذمر. منذ وفاة أوسانا، بدا كأنها انتقلت إلى بُعدٍ آخر لا رجوع منه... واقعٍ بديلٍ أرغمت فيه على أن تكون شاهدةً على فظائع لا تمحى. بدت الهالات السوداء العميقة تحت عينَي الفتاة أشبه بهوّةٍ شرهة تبتلع شعبًا بأكمله.

في منتصف الطريق نحو حلب، توقفت مارين فجأةً بجانب الطريق، ثم أخرجت ثدييها وأخذت تعصرهما بحركاتٍ مضطربة، وهي تتخيل أنهما سيدرّان حليبًا لأطفالها. كانت قد كفّت عن إرضاع نرسيس قبل أقلّ من ستة أشهر. لكن، لربما لم يجفّ حليبهما تمامًا بعد؟ قال

أحدهم: «لا بد أن هذه المرأة المسكينة قد جُنت تمامًا». لمح عقيدَ تركيٍّ المشهدَ بينما كان يتفقد القوافل وهو يختال كطاووس من فوق حصانه. كان، في الواقع، يتصيد الرقيق الجنسي. أمر أحد رجاله وهو يشير بإصبعه ناحية مارين: « Bunu» [2]، فما كان من الجنديّ إلّا أن توجّه نحوها فورًا وبدأ يدفعها بعقب بندقيته. لم تُبدِ أيّ مقاومة. لكأنّها كانت أسيرة كابوس، عاجزةً عن الإفلات من قبضته أو تقرير مسار الأحداث.

قال لها العقيد بنبرةٍ آمرة: «ستأتين معي».

أومأتْ برأسها لا أكثر.

الصحراء السورية – الاثنين 3 أيار 1915

أنا خائفة.

أنا خائفة. وجائعة. وعطشى. أين هاغوب الآن؟ لِمَ لا يُغيظني أو يقطف لي الأزهار كما كان يفعل؟

أرى جنودًا وبنادق أينما كان. إلى اليسار. إلى اليمين. في الأمام. في الخلف. يصرخون في وجوهنا. يكرهوننا. لماذا يكرهوننا؟ ماذا فعلنا لهم؟ لِمَ يواظبون على تمزيق ملابس النساء ويأمرونهنّ بالتمدد على الأرض؟ النساء يصرخنَ ويبكين، لكن لا يبدو أن الجنود يعيرون ذلك أيّ أهمية. فعلوا ذلك بأمي وبأوسانا أيضًا.

لِمَ توقفت أوسانا عن الحركة؟ أهي نائمة؟ كلّا، لا يمكن أن تكون نائمةً. أوسانا لا تنام أبدًا قبل أن أنام أنا أولًا.

ماما قالت إن أوسانا ميتة. هاغوب ميتٌ أيضًا.

ماذا يعني «ميتة»، مايريغ؟

الجنود يلكزون بأعقاب بنادقهم مَن يتلكأ عن المسير. امشِ. امشِ. امشِ. أنحن في سباق؟ إذا كنا في سباقٍ فعلًا، فأين هو خط النهاية؟ لا أعتقد أن هناك خط نهاية.

وداعًا هاغوب. وداعًا أوسانا.

سمح العقيد لمارين باصطحاب سيرون معها. سيرون فقط. أمّا طفلاها الآخران، فكان عليهما أن يتابعا طريقهما نحو حلب مع المجموعة. أعطت مارين مارينا اسمَ قريبها، ورجتها أن ترعى أخاها الصغير، ثم وعدتها بأن تلحق بهما، مع سيرون، بأسرع ما يمكن. عانقتهما طويلًا، عناقًا قويًا محموقًا. ترى، أكانت تعرف أنها لن تراهما ثانيةً أبدًا؟

الأم دائمًا تعرف.

هل هي السلطة تُفسد البشر، أم أن هؤلاء يخفون جميعهم وحوشًا في داخلهم، تتربص ساعةَ تستيقظ من كبوتها لتبدأ بذبح أخوانها من البشر؟ هل جميع الأشخاص هم، في الحقيقة، جزارون متنكرون؟

بينما كانت سيرون تبكي وتودع شقيقيها، تمنت لو كان في إمكانها أن تصير حذاءً. حذاء يجري ليلحق بهما. حذاء يحمل أمها بعيدًا، بعيدًا من الرجل الشزير. حذاء يكتفي بالجلوس على قارعة الطريق والانتظار ريثما يستيقظ كلُّ هؤلاء الأشخاص النائمين.

حذاء جامد، عديم الشعور.

كانت الفظائع التي شهدتها مارين لاحقًا في فيلّا العقيد في أضنة، من الضرب المبرح إلى عمليات الاغتصاب المنهجية، قد جعلتها تشعر، في بعض الأحيان، كأنها تدفع، وحدها، ثمن أن يكون المرء أرمنيًا. لكنها كانت تعرف أنها لم تكن الوحيدة التي كان عليها تسديد هذا الثمن الباهظ.

في تلك الأيام، كان رادعها الوحيد عن الانتحار تلك الفكرة المروعة بترك سيرون وحيدةً في هذا المكان، والأمل برؤية ولديها الآخرَين من جديد. في الغالب، أثناء الليل، عندما كان فرجها المتقرّح يؤلمها إلى درجةٍ تسبب لها الأرق، كانت تتخيل أنها تحتضنهما، في محاولةٍ لإرغام نفسها على النوم. أيقنت أن عليها إخراج سيرون من

ذلك المكان المريع، حيث تتعرّض الفتيات الصغيرات للاغتصاب بمجرد بلوغهن الثامنة. لكنها لم تكن تعرف كيف ستفعل هذا.

على غرار الكثيرات من النساء المستعبدات جنسيًا في تلك الأونة، حملت مارين من العقيد، وأنجبت طفلًا في 20 شباط 1916. يومذاك، انتزعوه من رحمها وأبعدوه عنها في الحال. لكنّ ألمظ، الشابة التركية الرقيقة القلب التي تعمل طاهيةً في القصر، ودائمًا ما تحمل إليها وإلى الصغيرة سيرون الحلويات والفواكه سرًّا، والتي أصبحت صديقتها الوحيدة، أخبرتها أنّ الطفل كان صبيًا، وأنه سُمّي أصلان. في تلك اللّيلة، عادت إليها خفيةً والرضيع بين يديها، ثمّ فتحت قميص مارين برفق ووضعت الطفل على صدرها العاري وهي تهمس: « O kokunu gerektiği» [10] . كانت مارين، على غرار معظم الأرمن في الأمبراطورية العثمانية، تفهم التركية. فأدركت ما قالته ألمظ التي تابعت: «هكذا لن ينساكِ أبدًا. رائحة أمهاتنا هي وطننا الحقيقي الوحيد».

كان الرضيع أصهب الشَّعر، تمامًا مثل سيرون. عرفت مارين مقدار الخطر الذي تكبدته ألمظ، فشعرت بامتنانٍ كبيرٍ لها. تلك المرأة المسكينة قد تُقتَل لذنبٍ أقلّ من هذا بكثير. أحسّت مارين بخفقات قلب الصبي تنتظم مع خفقات قلبها، لكنها لم تدرِ أكانت تحبه أم تكرهه، أكانت تريده أن يتذكّر رائحتها، أم أن تنسى هي رائحته. لا يهمّ. في أيّ حال، كان على ألمظ أن تأخذه منها بعد وقتٍ وجيز. طلبت منها مارين أن تدسّ خصلةً من شعره في القلادة الفولاذيّة التي تحتفظ بها حول عنقها.

كانت تلك القلادة هديّةً من نظار بعد مرور أشهرٍ عدّة على ولادة سيرون، وقد حرصت على أن تحتفظ فيها بتذكاراتٍ من شعر أطفالها جميعهم. لا تزال تذكر كلّ تفصيلٍ من تلك المحادثة التي جرت بينهما في ذلك اليوم. في البداية، تجهّم وجهها عبوسًا، هي التي كانت تتوقّع أن يهدي إليها حليةً من الذهب. كيف لا، وقد أنجبت بعد مرور أحد

عشر عامًا من السنوات العجاف! إنه لَحدثٌ جليل، إن لم نقل معجزة. كان تعلم أنه لن يتمكّن من شراء هديةٍ نفيسة، عقدٍ أو سوارٍ مثلًا، لكنها كانت لترضى بقرطٍ ذهبيٍ بسيط. مع ذلك، أكّد لها نظار أنّ هذا النوع من الفولاذ أغلى قيمةً بكثير، وأنه سرعان ما سيكون أغلى من الذهب نفسه. يوم وُلِدتْ سيرون، طلب من صديقه، ساحر الأفاعي، أن يجلب له هديةً خاصةً لزوجته من إنكلترا، إلى حيث كان يتوجّه على متن سفينةٍ تجاريةٍ تصدر القطن إلى أوروبا. كانت السفينة ستنطلق من مرسين، لتبحر في المتوسط متوقّفةً في مدنٍ أوروبيةٍ عدة، ثم تعبر مضيق جبل طارق، وتخوض غمار المحيط الأطلسي صعودًا نحو إنكلترا. بعد مرور ثمانية أشهر، قرابة عيد الميلاد في سنة 1912، عاد الرجل إلى عنتاب، وسلّم نظار بكلّ فخرٍ سلسلةً وقلادةً من الفولاذ. يومذاك، قال له: «لقد صنعها هاري، وهو خبيزٌ في المعادن تعرّفتُ إليه في شيفيلد، خصيصًا من أجلي، من مادةٍ جديدةٍ ابتكرها حديثًا. ليس فولاذًا عاديًا. إنه فولاذٌ غير قابلٍ للصدأ!»

كرّر نظار كلمات صديقه كلّها حرفًا بحرف: «إنه بمثابة معدنٍ خارقٍ قلّ نظيره بين جميع المعادن يا مارين! ليس سرّه فقط أنه غير قابلٍ للصدأ، مثل الذهب، بل هو يدوم إلى الأبد، مثل حبي لكِ!»

بعدما قصّت ألمظ خصلةً من شعر أصلان ووضعتها في قلادة مارين، حملته بعيدًا. كانت تلك آخر مرةٍ تراه مارين في حياتها. لم تكن تعلم أنّ سيرون، الممددة على الأرض بالقرب منها، كانت مستيقظةً، تراقب وتصغي باهتمام، وهي تحفر كلّ تفصيلٍ من تفاصيل هذا المشهد في ذهنها.

بل في جيناتها.

بعد يومين على الولادة فقط، وعلى الرغم من الإرهاق والنزيف الشديد، حاولت مارين أن تهرب مع سيرون. لكنّ العقيد أرسل جنوده ليقبضوا عليها، فقتلوها في ضواحي أضنة بعد أن تناوبوا على

اغتصابها. بقيت الأم ترتدد: «اهربي يا سيرون، اهربي!» فيما كان المتوحشون يسحقونها بأجسادهم. لكنّ سيرون لم تستطع أن تحمل قدميها على الفرار. كلُّ ما فعلته هو أنها اختبأت خلف شجيراتٍ كثيفةٍ وسمعت كلَّ شيء. صوت القماش وهو يُمزَّق، تلك الصفعات الوقحة التي انهالت على الجسد العاري، ذلك الانسحاق فوقه بدون رحمة، كمطرقةٍ تنغرز فوق سندان، ضحكات الرجال البذيئة... ثم انتهى كلُّ شيء. غادروا فجأةً. بقي فقط ذلك الصمت المجرم. استرقت سيرون النظر أخيرًا. لن تنسى أبدًا مشهد أمّها ممددةً على الأرض، وهي جاحظة العينين. لن تنسى أبدًا قدميها العاريتين الداميتين.

لن تنسى أبدًا، فوق ذلك، كلَّ ما تبقى ولا يُقال.

في المساء نفسه، وجد تاجرٌ كرديٌ الفتاةَ الصغيرة وهي ممددةٌ إلى جانب جثة أمها. كانت له ابنةٌ في سنها تقريبًا، فشعر بالشفقة حيالها. أعطى سيرون شيئًا تأكله، ثم خبأها داخل سجادةٍ في عربته وأخذها معه إلى حلب.

في بادئ الأمر، رفضتْ سيرون أن تترك والدتها. بقيتْ تردد الجملة نفسها كأنها تعويذةٌ ما:

– ماذا لو استيقظتْ؟

– لن تستيقظ يا صغيرتي.

– لماذا؟

– لأنها ميتة.

– ماذا يعني ميتة؟

على غرار أمها، لم يمنحها التاجر جوابًا. لكنه نجح في إقناعها بالمغادرة معه في نهاية الأمر. غطى وجه أمها بثوب هاغوب، وكان كلُّ ما أخذته مارين معها عندما هربتا. ثم فك السلسلة والقلادة الفولاذية من حول عنق مارين وجعلها حول عنق الطفلة كتذكارٍ لها من أمها. عندما وصلا إلى حلب، تركها في أحد المياتم.

أسماءٌ كثيرةٌ ستتوالى في حياة سيرون، بعضها سيظلُ وبعضها الآخر سيختفي. اسمٌ واحدٌ لا يمكن أن تنساه، هو اسم العقيد التركي الذي عذّب أمها.
بشير كيزلار أغا [1].

أضنة – الثلاثاء 22 شباط 1916

اهربي يا سيرون، اهربي!

لا أنفك أردد هذه العبارة على نفسي. اهربي، اركضي، ولا تتوقفي يا سيرون. يومًا ما، ستصلين إلى نهاية هذه الطريق.

العدم: يا للسعادة التي يسبغها هذا الشعور. لا كلابَ تعوي، لا رياحَ تزأر، ولا عتمةَ تنهش. أخيرًا فهمتُ ما أشعر به بالضبط. لا أقول إني أتوق إلى التلاشي، بل إن روحي متلهفةٌ إلى عدميتها السابقة للوجود. أحن إلى الوقت الذي لم أكن فيه موجودةً بعد.

تلك الحالة الساكنة من «اللاوجود» عوضًا من فوضى «الانكفاء عن الوجود».

الوجود تركيبةٌ تقترن بآلامٍ مبرحة. أحسد مَن... وما لا يعرف أنه موجود. أولئك هم الأبرياء الحقيقيون الوحيدون. كلُ تلك الجوامد الغافلة عن ذاتها من حولنا... معظمها أشياء صنعناها بأنفسنا، بأيدينا، بآلاتنا. آه، يا لَسكون الحياة التي ينعم بها الجماد!

أما كان في الإمكان أن أُولد حصاةً، أو صندوقًا، أو سلسلةً معدنية؟ كم نبتكر من كلماتٍ طنانة، ونُجري تحليلاتٍ لا متناهية، لا بل نخوض حروبًا كارثية من أجل أمورٍ غيرِ ملموسة، مثل «العدالة» أو «الحرية» أو «المسؤولية». الجنس البشري نكتةٌ. نكتةٌ سمجة.

لوددتُ أن أولد فكرةً سقيمةً كفكرة «الانتصار».

اهربي يا سيرون، اهربي! فهذه الطريق سترميك جانبًا، في القريب العاجل. يُستحسن أن تكفي عن البكاء: من الآن فصاعدًا، سيطلقون

عليك اسم اليتيمة، وحريّ بالأيتام أن يكتموا دموعهم... وإلا أغرقوا الكوكب بأسره.
وداعًا، مايريغ.

كان ڤارتوهي وغريغور زوجين أرمنيين لطيفين في متوسط العمر، بلا أولاد. أصلهما من قريةٍ في منطقة جبل موسى. تمكنا من الفرار إلى حلب عام 1916، بعد سنةٍ من الحرمان والتعذيب في دير الزور، حيث استقز العديد من الأرمن منذ بداية المجزرة. كانت ڤارتوهي خياطةً، وغريغور يملك متجرًا صغيرًا للبالة، فتحه بفضل المال الذي تمكّنت ڤارتوهي من إخفائه في شعرها وفمها، يوم طردهما الجنود الأتراك من منزلهما.

كان الزوجان يناقشان منذ فترةٍ فكرة تبني طفل. فالحرب العالمية الأولى قد وضعت أوزارها منذ بضعة أشهر، وحلّ التفاؤل على الناس. قزرا أخيرًا أن يُقدِما على ذلك، فزارا الميتم الألماني للأطفال الأرمن في حلب. هناك، استرعت سيرون انتباههما على الفور، لا بفضل شعرها الأحمر غير الاعتياديّ فقط، ولكنْ أيضًا لأنها كانت الطفلة الوحيدة التي لم تكن تلعب. كانت مكتفيةً بالجلوس فقط، وهي تراقب الأطفال الآخرين بلا مبالاة.

المياتم معابد للدموع المخنوقة، هذا ما مرّ في بال ڤارتوهي عندما دخلت إلى ذلك المكان المنسيّ. شعرت بأن الأطفال جميعًا يملكون العيون المحتقنة نفسها. لا بل إنها كانت السمة الطاغية فيهم التي تطالعك للوهلة الأولى، ما لم تكن السمة الوحيدة في وجوههم التي هَجَرَتْها التعابير. كانت حافلةً عيونُهم بعلامات الاستفهام. أسئلةٌ تدور وتدور، ملحومة كأسيجةٍ من الأسلاك المعدنية الفاصلة بينهم وبين الكون بأسره.

بدايةً، اعتقد الزوجان أنّ سيرون لا تتجاوز الثالثة أو الرابعة من العمر بسبب بنيتها الضعيفة وسماتها الرقيقة. كانت صغيرةً بالنسبة إلى

سنها. ذُهلا عند اكتشاف أنها تقرب من السابعة.

سألتها قارتوهي: « ?Inche'h anounet. geghetsik aghtchik» [12] لكنها لم تكن تتوقّع إجابةً. فمعظم اليتامى الأرمن في تلك السنّ لا يستطيعون تذكّر اسمهم، أو عيد ميلادهم، أو المكان الذي جاؤوا منه. يمسي ماضيهم كلّه ذكرىً ضبابيةً في عقولهم.

البعض يسمّي ذلك صدمةً نفسيّةً. لكنّ الحقيقة هي أن النسيان، إذا ما تحقّق بنجاح، يكون أسرع طريقٍ إلى الخلاص من البؤس. هكذا، تُمحى كلّ الصفحات القديمة وتُفتح صفحةٌ جديدة. لكن، كيف للأموات الأحياء أن ينسوا؟ الأهمّ من ذلك، كيف للأموات الأحياء أن يفتحوا صفحةً جديدة؟ النفق الأسوَد لا مفرّ منه، وهو يراقب كلّ هؤلاء الأطفال، كحيوانٍ مفترسٍ جائعٍ يتحيّن لحظة الانقضاض عليهم على حين غفلةٍ، والتهامهم.

لكنّ الفتاة الصغيرة أجابت بفخر، تمامًا كما لقّنتها شقيقتها الراحلة أوسانا، منذ أن تعلّمت كيف تتكلّم: «اسمي سيرون صرافيان. ولدتُ في عنتاب في 11 نيسان 1912، وأنا ابنة نظار ومارين. أبي إسكافيٌ وأمي خياطة».

كانت أوسانا تُغيظ سيرون بشأن أوّل كلمةٍ تعلّمتها. لم تكن مايريغ أو هايريك كمعظم الأطفال، ولا حتى أوسانا أو كويريك [13]، بل كانت لوليك [14]. بلغ عشقها للبندورة في صغرها مبلغًا عظيمًا إلى درجةٍ أنّ أوسانا دأبت على إعطائها بندورةً لتتسلّى بها، تفاديًا لبكائها، كلّما كانت مضطرّة إلى تركها قليلًا. كانت البندورة تهدّئ روعها في الحال. وقد نطقت سيرون أولى كلماتها في سنّ سبقت كلّ أشقّائها، حيث كانت بالكاد في شهرها الرابع عشر. في حلول عامها الثاني، كانت أوسانا قد علّمتها كيف تصوغ جملًا تافهةً عدّة، لا بل كان في إمكانها أن تصوغ جملًا من تلقاء نفسها أيضًا.

ظهر الارتباك على وجه ڤارتوهي، لكنّ سيرون بقيت تحدق فيها من دون أن تطرف بعينها. كان في نظرتها ما يتعذّر تفسيره. بدتْ كروحٍ عتيقةٍ اذثرتْ برداء الحكمة وانكفأتْ كمَن لم تعد تريد شيئًا من العالم؛ لكأنّها سبق أن عاشت وماتت مرّاتٍ عدّة، فلم يبقَ في صدرها المحاضر إلّا قليلٌ من الهواء، وفي جناحيها المحروقَين نُتَفٌ قليلة من الريش.

شعرت المرأة بقشعريرةٍ تسري في بدنها عندما سمعت كلمات الفتاة اليتيمة الأخيرة. «أفي خياطة». رجَعت هذه الكلمات صدىً في أذن ڤارتوهي الخياطة، كرسالةٍ قادمة من علٍ. همستْ في أذن غريغور: «فلنأخذها معنا إلى البيت».

كان هذا كلّ ما تطلّبه الأمر كي يولد فيها حسّ الأمومة. شعرتْ ڤارتوهي بأنّ رحمها حيةٌ تُرزَق للمرّة الأولى في حياتها، كما لو أنّها أنجبتْ طفلةً للتوّ. فمن النساء مَن يصبحنَ أمّهاتٍ بفضل برعمٍ ينمو من الجسد، ومنهنّ بفضلِ خفقةٍ في القلب.

اصطحباها معهما إلى البيت، تمامًا كما ينتقي الأشخاص، في زمن السلم، هرّةً صغيرةً أو جروًا من ملجأ يعجّ بالحيوانات. بعد بضعة أسابيع من التحفّظ، استسلمتْ سيرون أخيرًا لعطف الزوجَين ومحبّتهما الصادقة، وفتحتْ قلبها لهما. هكذا، بعد أقلّ من ستّة أسابيع على لقائهما الأوّل في الميتم، بدأتْ تناديهما ماما ڤارتوهي وبابا غريغور، من دون حتّى أن يطلبا منها ذلك. أمّا ماضيها، فقد انتظرا أن تتحدّث عنه، بلا جدوى. كان مدفونًا في مكانٍ عميقٍ، داخل صندوقٍ مغلقٍ بإحكام. وهذا الصندوق المغلق بإحكامٍ، مدفونٌ بدوره في ذاكرتها. وذاكرتُها مدفونةٌ في قلادةٍ فولاذيةٍ غامضةٍ معلّقة حول عنقها. وهو الشيء الوحيد الذي لم تكن تنزعه عنها قطّ.

لم تكن في حاجةٍ إلى ذاكرةٍ في أيّ حال. كلّ ما كانت تحتاج إليه هو قصّةٌ جديدة.

وزوجٌ جديدٌ من الأحذية.

عندما تمكنّا أخيرًا من إصدار بطاقةِ هويةٍ لسيرون، اختارا أن يسمحا لها بالاحتفاظ بشهرتها الأصلية، وبالاسم الذي كان والداها قد منحاها إياه. شعرا بأنه أقلّ ما يمكن فعله كبادرة احترامٍ لوالديها المتوفَّين.

سيرون صرّافيان، ابنة مارين ونظار، مولودةٌ في عنتاب، في 11 نيسان 1912.

ملاكٌ سقط بين ليلتَين.

حلب – الأحد 9 آذار 1919
بين الحياة وبيني جدرانٌ لم تصبح بيتًا يومًا،
يرقاتٌ لم تتحوّل إلى فراشات
وآلةٌ زمنيةٌ معطلةٌ ستفزقنا على الدوام.

بين الحياة وبيني أنهارٌ أبدًا لن تلتقي
أيامٌ يتبدّد فيها الناس
وريحٌ دائريةٌ تنثر كلماتنا بعيدًا.

بين الحياة وبيني هذا الوادي السحيق من الموت
وسكّين اليأس
يحفر ببطء المهد الخشبي
حيث سأهدهد أخيرًا قلبي المنهك.

أحبّت سيرون السرير الذي اشتراه لها بابا غريغور، لكنّها كرهت الحواجز التي أضافها من الجهات الأربع لحمايتها من الوقوع ليلًا. كان نومها مضطربًا بشدةٍ إلى درجةٍ أنها كانت تجد نفسها على الأرض في كلّ صباح، ما دفع غريغور إلى تركيب تلك القضبان.

كابوس متكرّر أرّق لياليها. كانت ترى نفسها تغرق في بئر جدّتها. تتلقّفها الأشباح وتأخذها إلى كهف جانبي تجلس أمها فيه، إلى جانبها صبيّ لم تكن قد رأته قبلًا، أصهب الشّعر، مثلها تمامًا. سرعان ما كانت تدرك أنّ هذه المرأة ليست أمّها الحقيقية. كانت تشبه مارين، لكنّ يديها كانتا سوداوين، كما لو أنّهما من زفت. كانت تُطبق بهاتين اليدين على عنق سيرون وتضيق عليها الخناق، فيضحك الصبي ضحكةً هستيريةً بينما يقفز مصفّقًا بيديه. ثمّ يعلو صوت مارين وهي تناديه: «تعالَ يا أصلان! ساعِدني على قتلها!» ثمّ لا تلبث سيرون أن تستيقظ وهي تشهق بعمقٍ محاولةً التقاط أنفاسها.

كانت أيضًا غالبًا ما تحلم بوالدها، وجدّتها، وشقيقاتها وأشقّائها. لم تكن تحلم بهم مذبوحين، ولا بأنّها خسرتهم إلى الأبد، بل تراهم يضحكون ويلعبون معها. في مثل تلك الصباحات، كانت تتمنّى لو أنّها لا تستيقظ قطّ.

مضى على إقامتها مع أسرتها بالتبنّي أكثر من عامٍ بقليل، لكنّ الظروف في حلب لم تكن مؤاتية. سرعان ما تبيّن أنّ الآمال الكبيرة التي عقبت نهاية الحرب العالمية الأولى كانت محض أوهام. وكابد الناس، أينما كان، عسر العيش. أمّا متجر البالة الذي افتتحه غريغور، فلم يزدهر كما كان يتوقّع الرجل، بل باتت الأسرة تتّكل على الأجور البسيطة التي كانت ڤارتوهي تتلقّاها بشكلٍ غير منتظم من أعمال الخياطة. إلى ذلك كلّه، كانت صحّة غريغور تتدهور تدريجًا. كان قد سمع أنّ وباء الإنفلونزا قد تفشّى حول العالم، ما دفعه إلى الاستنتاج أنّه التقط العدوى بدوره. مع ذلك، حرص على ألّا يُطلِع زوجته وابنته على شكوكه. كان يشعر بنشاطه يخبو بوتيرةٍ بطيئةٍ، لكنْ أكيدة، فامتنع عن احتضان ڤارتوهي وسيرون أو التنفّس بالقرب من وجهيهما، متحجّجًا في كلّ مرةٍ تسمعان سعاله: «يا لهذا الزكام اللّعين»، عساه يطمئنهما. زاد الطين بلّةً أنّ المدينة لم تعد آمنةً. فقد كان الحرّاس

والشرطة لا يزالون يطاردون الأرمن، ويعتقلون اللاجئين الذين لا يحملون رخصًا، فيزجّون بهم في السجون ثم يرسلونهم إلى دير الزور من جديد.

سمع غريغور أن اثنين من أقربائه وصلا بأمانٍ إلى القدس، فاتّخذ قرارًا ببيع متجره والسفر إليها بصحبة زوجته وابنته بالتبنّي.

عندما لمس تردّد ڤارتوهي، قال لها: «على الأقلّ، سنقيم إلى جانب أقربائنا. كما أنّني أسمع الجميع يردّدون أن القدس مدينةٌ رائعة. ستعيشين في الأراضي المقدسة! ماذا تريدين أكثر؟»

كان يعرف أنّها لن تتمكّن من مقاومة حجّته الأخيرة، كونها مسيحيّةً مؤمنةً وملتزمةً. في الواقع، كان كلّما أراد أن يقنعها بأمرٍ ما، أو أن يفوز في نقاشٍ معيّن، يتظاهر بأنّ ملاكًا ظهر له في نومه وأخبره بهذا أو بذاك. بعد سنواتٍ على زواجهما، ازداد عدد الملائكة في شكلٍ لافت، لكنّ غريغور كان من الحذاقة ما جعله يتذكّر كلّ الأسماء الغريبة التي اخترعها لكلٍّ منها. لم تشكّ ڤارتوهي مرّةً في أنه يكذب. صدّقته، لا من باب السذاجة فحسب، بل لشدّة تقواها وعجزها عن التصور أنّه يمكن لامرئٍ أن يكذب في أمورٍ مماثلة. ويوم أقرّت أخيرًا بأنّها تعاني مشاكل تمنعها من الحمل، راحت تسأله كلّ صباح:

– هل أخبرك كلاماراما – ملاك الخصوبة المزعوم – أيّ شيءٍ عن إنجابنا طفلًا؟

– ليس بعد، سيربليس.

– هل يمكنك أن تسأله عن ذلك، على الأقلّ في المرّة التالية التي تراه فيها؟

– طبعًا سأفعل. لكن لعلمكِ فقط، ظهر لي باركاسينا – ملاك التغذية – أمس مجدّدًا، وأخبرني أنه يجدر بكِ أن تُكثِري من تحضير طبق كبّة العدس.

في طبيعة الحال، كانت هذة أكلة غريغور المفضلة، خلافًا لزوجته. لكن ڤارتوهي لم تعارض ولم تشكّك في الأمر قط، ولم تتساءل حتى لِمَ لا تزورها الملائكة مرّةً على سبيل التغيير. شعر غريغور المشاكس، لكن صاحب القلب الطيب، بالذنب في بداية الأمر. لكن الإغراء باعتماد طريقة «الربح السريع» مع اجتناب النقّ، سرعان ما بدّد أيّ شعور بتأنيب الضمير من ذهنه. كما حرص أيضًا على أن لا تُخبر زوجته أيّ كاهنٍ عفا يحدث: «قالوا لي إنهم سيكفّون عن الظهور إن أتيتِ على ذكرهم».

في نهاية الأمر، كان تيمازان، ملاك السفر، مَن ظهر على غريغور ليخبره بضرورة ذهابهم إلى القدس. هكذا، حزمت الأسرة أمتعتها ذات صباح، واستقلّت القطار من دون أن تلتفت إلى الخلف ثانيةً. ما إن وصلوا إلى وجهتهم حتى استقرّوا في الحي الأرمني، بالقرب من كنيسة «سورب هاغوب» [15] . أخيرًا، وللمرّة الأولى منذ وقتٍ طويلٍ جدًا، شعروا بالأمان. ولّت أيام الحراب المخيفة التي كان يحملها رجال الشرطة. ولّت أيام صرخات « ! Yürümek» [16] التي كانت تقع عليهم وقع الصاعقة وتملأ قلوبهم رعبًا. والأهم من ذلك، ولّت أيام التجوال في الصحراء على غير هدى.

لكنّ الجثث المتحلّلة بقيتْ ولن تولّي أبدًا. ستُمسي تذكيرًا أبديًا للأرمن جميعهم، أحياء كانوا أم لم يولدوا بعد، بأن هذا العالم ليس إلا جناح إعدامٍ كبيرًا.

السرّ هو أن ندّعي نسيان ذلك.
أو أن نقرّر بأنفسنا موعد تنفيذ العقوبة.

حلب – الجمعة 16 نيسان 1920

هل الحزن نعمةٌ أم نقمة؟ غالبًا ما أطرح على نفسي هذا السؤال. لكن ما الجدوى من معرفة الإجابة؟ كيف سيغير ذلك مسار مركبة الرعب هذه؟ إذا كان الحزن نعمةً فعلًا، فهل سينتاب المنكوبين به شعور

بأنهم محظوظون؟ هل سيتفاخر والدٌ لأنّ المجاعة حصدتْ طفله مثلًا؟
أما إذا كان الحظ نقمةً، فهل سيشعر المبازكون بالحسرة لأنهم وُلدوا
وفي أفواههم ملاعقُ من ذهب؟
دائمًا ما يعاكسنا الحظ. حتى عندما يقف إلى جانبنا. ولو أننا حاذقون
فعلًا، لَعرفنا جيدًا أنه لن يدوم. ولَبدأنا، هناك، في خضمّ شعورنا بالمجد،
نشعر بالذعر، لأننا سنفقده لا محالة.
الخوف من الشعور بالحسرة بعد السعادة. الخوف من خيبة الأمل بعد
الإيمان. الخوف من الفشل بعد الانتصار.
لقد وجدتُ الدواء الشافي لذلك الخوف.
آه، يا لَروعة اليأس المطلق التي لا توصف.

لم تكن قد رأتْ بزاذا من قبل، ولا حتى سمعتْ به. المرة الأولى التي اكتشفتْ فيها وجوده، كانت في منزل أناهيد. كانت أناهيد صديقة سيرون المفضلة منذ أن وصلتْ إلى القدس، وغالبًا ما أمضتا ساعات بعد الظهر معًا. كانت والدة أناهيد أرمنيةً أيضًا، ولكن من أصولٍ فارسية، وكانت أناهيد غالبًا ما تتباهى بأنّ اسمها هو اسم إلهةٍ فارسيةٍ (أناهيتا)، هي إلهة الحكمة والخصوبة والشفاء. لكنّ الفتاة لم تعرف أمّها قط. فقد توفيت الأمّ عند ولادتها، ما غذّى رابطًا فوريًا بين البنتين، زادته متانةً خلفيتهما الأرمنية. لدى وقوع الحادثة، أصيب والد أناهيد، شفيق، بحسرةٍ عميقةٍ لم يصرفه عنها شيءٌ أو أحدٌ لمدةٍ طويلة. كان قد التقى زوجته عندما كان كلٌّ منهما في السابعة عشرة من عمره، خلال إحدى الرحلات مع والده إلى أصفهان في بلاد فارس، وهام حبًا وولعًا بها على الفور. يومذاك، قال لوالده: «لا أظنّني قادرًا على العيش من دونها يا أبي. هل يمكننا أن نصحبها معنا إلى القدس؟» فكّر والده هنيهةً ثم قال: «لِمَ لا؟» زار فورًا أهل الفتاة طالبًا يدها لابنه، فحصل على مراده بسهولة، كونه ووالدها سبق أن التقيا في رحلاتٍ سابقةٍ، وتعاملا معًا غير مرةٍ، وربطتهما علاقة صداقةٍ واحترامٍ

متباذلة. أما والدة شفيق، فأصيبت بالذهول لدى عودتهم الى القدس: كانت ودعت زوجًا وابنًا، وها هي بعد شهرين فقط تستقبل زوجًا، وابنًا، وكنة.

في نهاية الأمر، اضطر شفيق الى الزواج من جديد، كونه كان محتاجًا إلى من تعتني ببناته الثلاث. كانت عقيلته الثانية مثال زوجة الأب النموذجية، الشرّيرة والمنافقة. كانت الكليشيه بحذافيره. زاد الطين بلّةً أنّها لم تتمكّن من أن تنجب له أيّ ولد، فاقتات خبثها من إحساسها بالمرارة. والعكس بالعكس.

كان عفو شفيق، كما تدعوه سيرون، تاجرًا مثل والده من قبله، ثريًا، يقوم برحلاتٍ تجاريةٍ لأسابيع، لا بل لأشهرٍ أحيانًا. وكان، كلّما عاد، يحمل هدايا إلى زوجته وبناته، من دون أن ينسى هدية سيرون أبدًا.

(ليس جميع الرجال الأثرياء بلا روح يا مايريغ...)

كان مثقفًا أيضًا، وغالبًا ما يقصّ عليهنّ أقاصيص وأخبارًا من مختلف أنحاء العالم.

ذات ظهيرةٍ صيفيةٍ حارّة، وصل عفو شفيق ومعه مستوعبٌ مستطيلٌ طويل. وضعه في غرفة المعيشة، ثم أجلس الجميع على الأرض من حوله، وكشف لهم عمّا يمكن لهذه الآلة الغريبة أن تفعله. في نهاية العرض، قال لهم بفخر: «إنّه بزاد!» لم تفهم سيرون ما قصده بذلك، وخجلت من أن تسأل أناهيد عن الأمر. كانت تشعر بالحرج لأنّ صديقتها تستطيع القراءة، في حين ليس في مقدورها ذلك. فقد بلغ تعلّقُ ڤارتوهي بها حدًّا جعلها ترفض إرسالها إلى المدرسة. كما كان على سيرون أن تتوسّل إليها كلّما أرادت أن تزور أناهيد في بيتها. في الواقع، في معظم الأحيان، كانت أناهيد هي التي تأتي إليها.

عندما عادت سيرون إلى بيتها في ذلك اليوم، كانت تتحرّق شوقًا لتخبر بابا غريغور عن هذا الاختراع العظيم، فقد كان يحبّ أن يسمع عن أحدث مشتريات عفو شفيق. لكنها لم تستطع. كان غريغور فارق

الحياة، مستسلمًا أخيرًا للبكتيريا التي كانت تنهش لحمه ببطء على مدى السنوات الأربع الماضية. لم يكن قد التقط عدوى الأنفلونزا الإسبانية كما اعتقد في البداية، بل السل. ومع أن المرضين كانا مُهلكين في تلك الأيام، كان السل أرحم: كان يمنح الناس وقت احتضارٍ أطوَل.

أصرت ڤارتوهي على دفن زوجها في تابوتٍ أبيض، على رغم أنّ التقاليد تقضي بأن التوابيت البيض مخصصةٌ حصرًا للأطفال لأنهم أشبه بالملائكة. لكنها أصرت قائلة: «كان غريغور ملاكًا أيضًا. لهذا، بقيت الملائكة تزوره: كلامارامًا، باركاسينا، تيمازان... كلهم». اعتقدت النادبات من حولها أن شدة الحزن تدفعها إلى الهلوسة. مع توجه الموكب نحو كنيسة «سورب هاغوب» تحت قيظ شمس آب، وبينما كان التابوت الأبيض محمولًا على أكتاف رجالٍ مبلّلة بالعرق، تمنت سيرون لو وُوري والدها بالتبني في بزاد عوضًا من تابوت، لئلا يشعر بوطأة الحز.

«مسكين بابا غريغور. لا بد من أنه سيختنق تحت الأرض».

كلا يا سيرون، مسكينةً أنتِ. مساكين نحن. فالشعور بالاختناق تحت الأرض أخف وطأةً بكثير من الشعور بالاختناق فوقها.

القدس – الأحد 3 آب 1924

في بعض الأحيان، أشعر بأنّي محظوظةٌ لأنّي أمية. فبعض الكلمات قد يكون جارحًا حين يقال. أما مكتوبًا، فقد يصبح قاتلًا؛ أنا على يقينٍ من هذا. من يقرأ، لا يمكن أن يحظى بنعمة النسيان. لا ينفك يلتحم بألمه في الذكريات المكتوبة التي خلّفها من نجا ليروي ما جرى.

يومَ مات أبي، بتُّ عمياء.

يومَ مات أخي، بتُّ صمّاء.

يومَ ماتت أختي، بتُّ بكماء.

يومَ ماتت أمي، بتُّ مشلولة.

أنا الآن أنتظر ريثما يهدأ الزئير في عقلي. حينذاك فقط سأتمكن من النسيان. حينذاك فقط سيحقّ لي أن ألفظ جانبا.
حينذاك فقط، سوف أكفّ عن الشعور بهذا الخوف وبهذه الوحدة. ربما.
وداعًا، بابا غريغور.

ما كان ذلك ليحدث، ولعلّهما ما كانا ليلتقيا قطّ، لولا الحريق.

في ذلك اليوم، ذهبت سيرون لتسليم الثوب الجديد إلى أمّ رامي، ذلك الذي كانت قد طلبته منها خصيصًا استعدادًا لزفاف ابنها قريبًا. كان ثوبًا جميلًا جدًا، خاطته ڤارتوهي وطرّزته بمساعدة سيرون. أصبحت ابنة السابعة عشرة خياطةً ماهرةً هي الأخرى. في الواقع، كثيرات من نساء الحي المسيحي الثريات كنّ قد بدأن يطلبنَ سيرون شخصيًا كلّما أردنَ ثوبًا خارجًا عن المألوف. شعرتْ ڤارتوهي بأنّ الدنيا تكافئها على صنيعها. فقد نجحتْ في تربية شابةٍ مؤدبةٍ وجادةٍ في عملها. كان غريغور ليفخر بها كثيرًا. بعد وفاته، لم تجد الأمّ وابنتها أمامهما إلّا الاتّكال على نفسيهما، وهذا ما فَعلَتاه بفضل مهارات ڤارتوهي في الخياطة والتفصيل. أما سيرون، فلم تكتفِ بتعلّم هذه المهارات من والدتها فحسب، بل تجاوزتْها مهارةً أيضًا. كانت تتمتّع بموهبةٍ غير اعتياديةٍ في مجال الموضة. لكأنّها خُلِقتْ كي تبثّ الحياة في أيّ قطعة قماش.

لكنّ خياطة ثوبٍ لأمّ رامي لم تكن بالمهمة السهلة. فجسد تلك المرأة القصيرة والممتلئة كان أشبه بصندوقٍ مربّع. لا خصر لها ولا عنق: مجرّد كتلةٍ واحدةٍ من اللحم، متساويةٍ في الطول والعرض، يعلوها رأس صغيرٌ على نحوٍ غريبٍ جدًا. لكأنّ الرأس كان «لمبةً» صغيرةً مثبّتةً في منتصف كتفيها العريضتَين. كلّما استدارت أمّ رامي إلى اليسار، كانت سيرون تتخيّل أنّ براغي «اللّمبة» ستنحلّ، وأنّ الرأس سيسقط من مكانه. حارت ڤارتوهي في ما يجب أن تفعل وقد تملّكها اليأس. لكنّ سيرون قبلت التحدّي، فقرّرت أن تخيط للمرأة

عباءةً تحجب غياب حنايا جسدها، مع قبةٍ على شكل v توحي بأنها تملك عنقًا فعلًا. عوضتْ عن القصّة الخالية من أي تصميم، بتطريزٍ ملوّنٍ ومشغولٍ بجزئية، بدءًا من منتصف القبة نزولًا حتى طرف الثوب. فقسم ذلك أمَّ رامي قسمين، وهذا كان بالضبط ما تحتاج إليه المرأة. ظلّت فكرة اللمبة المسلّية تراود سيرون بينما كانت تعمل على الثوب. وسرعان ما كوفئتْ على جهودها. فعندما جرّبت المرأةُ العباءةَ، شعرتْ بغبطةٍ شديدةٍ وهتفت قائلةً: «يسلمو إيديكِ يا بنتي!»

كانت سيرون تسير عائدةً إلى بيتها من منزل الزبونة الراضية، عندما سمعتْ أشخاصًا يصرخون من بعيد. لطالما مشتْ بطريقةٍ سريعةٍ، شبه عسكرية. لم تستطع يومًا أن تسير الهوينى أو بطريقةٍ مثيرةٍ، كما تفعل بقية النساء الشابات. بالنسبة إليها، كان السير عبارةً عن انتقالٍ سريعٍ، أسرع ما يمكن، من النقطة ألف إلى النقطة باء، لا أكثر.

لم تكن الحياة تختلف عن ذلك. باستثناء أنّ «أسرع ما يمكن» كان يستغرق أكثر مما كانت تتمناه في سرّها.

كلّما اقتربتْ من البيت، شعرتْ بأن صراخ الناس يمسي أعلى. في بداية الأمر، لاحظتْ الدخان الأسود الكثيف. ثم ما لبثتْ أن لمحتْ طرف ألسنة اللهب. بعد ذلك، شاهدتْ حريقًا يتآكل الشقة المتواضعة التي تعيش فيها مع ڤارتوهي. ففهمتْ فورًا ما حدث. لم تطرح أيّ سؤال. لم تبكِ. اكتفتْ فقط بالجلوس على الأرض المكسوّة بالرماد، وراحت تراقب النيران بهدوء وهي تلتهم أمها بالتبني. أيمكن أن يحدث ذلك كلّه لشخصٍ واحدٍ فقط؟

نعم، يمكن.

لم تدرك سيرون أنها كانت ترتعش، إلّا حين ألقت يدان ملاءةً حول كتفيها، وربّتتهما بلطف. حانت منها نظرةٌ إلى الأعلى. تلك كانت المرّة الأولى التي تقع فيها عيناها عليه.

القدس – الجمعة 6 كانون الأول 1929
لو أن كل شيء مكتوبٌ حقًا، فلم نكلف أنفسنا عناء الاستيقاظ كل صباح؟
لو أن كل شيء مكتوبٌ حقًا، فلم نبذل أي جهد؟
ما من مغامراتٍ غير متوقعة نعيشها، ولا تحديات نهزمها، ولا محاولات وأخطاء نتعلم منها. هل يمكننا أن نمزق صفحةً واحدةً من ذلك الكتاب، حيث كل شيء مكتوبٌ مسبقًا؟ هل يمكننا أن نغير كلمةً واحدةً فقط؟
لو أننا نستطيع ذلك فعلًا... لاستبدلتْ شخصيًا كلمة «موت» بـ«خلاص».
وداعًا، ماما ڤارتوهي.

ما كان ذلك ليحدث. بل ما كان يجدر به أن يحدث. لكنه حدث.

أليس الحب سيد الحوادث كلها؟

هو كان يهوديًا، واليهود كانوا خطًا أحمر.

لطالما قالت لها ڤارتوهي، تلك المرأة المتفانية في مسيحيتها: «إنهم أشرار صلبوا المسيح».

عفو شفيق بدوره، ذلك الفلسطيني المتعصب، لطالما قال: «إنهم أشرار يريدون سلبنا أرضنا».

لكنّ آڤي لم يكن شريرًا. كيف يمكن لشخص يملك عينين بلون الكهرمان الأخضر، مثل عينيه، أن يكون شريرًا؟

آڤي لم يصلب المسيح. كيف يمكن لشخص أن يصلب المسيح وهو لا يستطيع أن يردي عصفورًا؟

آڤي لم يكن يريد أي أرض. آڤي كان يريدها، هي فقط.

كان يدعوها « Vrd dvm »[17] فتحمرّ خجلًا وتكتسي وجنتاها لونًا قانيًا قادرًا على أن يصيب شعرها الأحمر بالغيرة. أمّا هي، فلقّبته « Skyurr »[18]، بسبب شعره الكستنائي.

كانا يلتقيان سرًا كل ليلة في الكوخ الصغير الذي استأجرته بعد أن أتى الحريق على منزلها القديم. استخدمت الكوخ كمشغلٍ أيضًا؛ فصارت الزبونات يقصدنها بكثرة، كونها أصبحت خياطة الحي الماهرة الوحيدة بعد موت ڤارتوهي. أمّا آڤي، فكان يأتي إليها بعد أن يمضين، ويخيّم الظلام، فيتسلّل من النافذة الخلفية التي تتركها مفتوحةً من أجله. كل ليلة، كانا يضحكان. ويبكيان. كانا يتبادلان القصص البسيطة والأسرار الكبيرة. لم تُخفِ عنه شيئًا. ليلةً أخبرته عن مارين وأصلان، بكيا أحدهما في حضن الآخر حتى بزوغ الفجر.

كانا يلعبان أيضًا لعبة «بيت بيوت». فترغمه على قياس الفساتين التي كانت تخيطها، ويرغمها في المقابل على تقبيله. تعلّمه الأرمنية، فيعلّمها العبرية. « Parev» [19]. « Yess kezi gesirem» [20]. « Ma Shlomesh?» [21]. لم تحدث بينهما أي علاقةٍ جنسيةٍ، لا بل لم توشك حتى أن تحدث. لكأنهما كانا يرتقيان فوق الجسد. ملاكٌ في الثامنة عشرة من عمرها، وملاكٌ في التاسعة عشرة: طفلان عالقان في شبكة عنكبوت لا يستطيعان رؤيتها. ليس بعد في الأقل.

كان شفيق، والد أناهيد، الذي أصبح الوصي غير الرسمي على سيرون بعد وفاة ڤارتوهي، قد طلب منها مرارًا وتكرارًا أن تنتقل إلى العيش معهم، لكنها ظلّت ترفض على الرغم من توسّلات أناهيد إليها.

«شكرًا جزيلًا، عمّو. لكني أفضل أن أبقى هنا. لا أريد أن أزعجكم بحركة الزبونات المستمرة. ثم إني، في كل حال، أعيش على بعد ثلاث خطواتٍ منكم. لكأني أعيش معكم فعلًا».

أناهيد لم تكن تفهم رد فعلها، «ولكن يا سيرون، سنغدو شقيقتين حقيقيتين! يمكنكِ أن تنامي في غرفتي». لم تعرف السبب الحقيقي الذي كان يمنع صديقتها من الموافقة، ما تسبب لها بكدرٍ وانزعاج. وسيرون لم تجرؤ على إخبارها في بداية الأمر. ماذا إن قالت هي الأخرى إن آڤي شرير؟ هل ستقطع صداقتهما؟ لكنها، ذات صباحٍ باردٍ

من شهر كانون الثاني، وبعد شهرٍ واحدٍ على العلاقة، استجمعت شجاعتها وأفصحت لأناهيد عن كلِّ ما كان يجري.

قالت أناهيد: «هذا أجمل يومٍ في حياتي. سعادتكِ كانت وستكون دومًا مصدر سعادتي».

هذا كلُّ ما تطلّبه الأمر. دونما إصدار أحكام. دونما حاجةٍ إلى الشرح. صداقةٌ حقيقيةٌ خالصة.

دام فاصل السعادة في حياة سيرون حتى الخريف. عشرة أشهرٍ من حيلٍ تحبكها لتخدع حزنها ووحدتها. عشرة أشهرٍ نسيتْ فيها أنّ العذاب سيعود دومًا ليغرز فيها أسنانه. توهّمت أنّها طالما تخترع الأمل، فلن يكون لهذا العذاب وجودٌ أبدًا. ذات مساءٍ من شهر تشرين الأوّل، جاء شفيق بغتةً ليطمئنّ عليها. لم يكن من عادته أن يزورها في المساء قطّ. عندما لم تفتح الباب، شعر بالقلق وأقدم على خلعه. فضبطهما نائمَين في غرفة النوم الخلفية، أحدهما في حضن الآخر. لم يكونا قد سمعا القرع على الباب. كانا في عناقٍ، وجهًا لوجه، وهما متلاصقان كجناحَي بجعةٍ كبيرة. كانت سيرون الجناح الأيسر وآقي الأيمن.

رمق شفيق آقي بنظرةٍ واحدة. فعرف من يكون. «ما» يكون. كان غضبه عارمًا، لكنه لم يشأ أن يثير فضيحةً. لم يتوجّه إلى سيرون بكلمةٍ واحدة. عاد إلى غرفة المعيشة/المشغل، وفتح باب الكوخ، منتظرًا خروج الشاب. ثم تبعه، وأغلق الباب وراءهما. بقيا يتكلّمان في الخارج لخمس دقائق. بالأحرى، كان شفيق هو الذي يتكلّم، وآقي يصغي. بعد ذلك، رحل آقي. لن تراه سيرون ثانيةً إلا بعد ثمانية عشر عامًا. لكأنّه تلاشى بكلّ بساطة.

غير أنّها ظلّت تتوقّع أن تراه كلّ يوم. توقّعت ذلك طوال ثمانية عشر عامًا لا متناهية. التوقّع هو أقسى طرق الاضطهاد الذاتي على الإطلاق.

في صباح اليوم التالي، طرق شفيق باب بيتها ثانية وقد هدأ روعه. كانت أناهيد قد أمضت الليل معها وهي تحاول أن تواسي ما تبقى منها. لم يصل شفيق وحده، بل كان معه رجلٌ طويل القامة، متين البنية. بدا متقدمًا في السن نوعًا ما.

قال لها شفيق: «هذا هو الرجل الذي ستتزوجين به».

وهكذا كان. صارت مخطوبةً إلى رجلٍ لا تعرفه. رجلٌ «سينقذها من الفضيحة».

كان اسمه باسم.

القدس – الأحد 5 تشرين الأول 1930

الكثير من الأشخاص يتحدثون عن الحرية. «نريد الحرية»، «سنناضل من أجل حريتنا»، «الحرية هي كل شيء».

لكن الحرية استحالةٌ عبثية. تمامًا كالخيار. كيف لا، ونحن نولد في قفصٍ لم نختره، في وقتٍ لم نقرره، وفي مكانٍ لم نكن نعلم عنه شيئًا!؟ نُمنح سماتٍ لم نكونها، وإثنياتٍ ودياناتٍ وصفاتٍ شخصية لم نخترها. بعضنا تُوزَّع عليه أوراقُ لعبٍ سيئة، وبعضنا الآخر أوراقٌ جيدة، أو في بعض الأحيان ممتازة.

هذا ما يُسمى بالسينيكية، وهي سمةٌ إلهيةٌ بامتياز. لطالما فضّل البشر اختراع آلهةٍ تستهزئ بهم. محض طريقةٍ ذكيةٍ لمواساة الذات والهرب من مواجهة الحقيقة. «هي مشيئة الرب. الحقُ ليس علينا».

أخبرنا عمو شفيق مرةً قصةً عن أرضٍ بعيدةٍ سكانُها سعداء على الدوام. ما من أحدٍ هناك فقيرٌ، أو جائعٌ، أو مشرّدٌ، بل كلهم يلبسون أجمل الثياب، ويملكون ألعابًا لا تُعدّ ولا تُحصى، ويحظون بأهلٍ محبين، ويشغلون وظائف ممتعة. قال إن هؤلاء الأشخاص ينتحرون أحيانًا لشدة سعادتهم. إنهم سعداء إلى حدّ اليأس. عندما سمعتُ هذه القصة، حقدتُ عليهم.

لكني ما لبثت أن فكرتُ: لربما كان هؤلاء الأشخاص يفعلون ذلك عن حنكة. ينسحبون قبل أن تبدأ حياتهم بالانحدار. يا لها من صفعة عظيمة على وجه موزع الأوراق.
الانحدار؟ اتجاه لا مفر منه.

كان باسم يصطحبها معه أحيانًا الى دير ياسين عندما يقوم برحلاتٍ قصيرة، خصوصًا بعدما أقلع عن العمل في المناجم وأصبح سائق شاحنة. عندما غير عمله، تنفست الصعداء. كانت سيرون، في كل مرّة يدخل فيها إلى أحد مناجم الحجر الكلسي، تعتقد أنه لن يخرج ثانيةً. وتتخيل أن شخصًا ما سيجد في نهاية المطاف، وبعد سنواتٍ من البحث العقيم، عظامه المتفرقة هنا وهناك، ثم يعيدها إليها في صندوقٍ للأحذية. كم من ليلةٍ استيقظت وهي تصرخ، متخيلةً أنها تنام إلى جانب هيكلٍ عظمي. حاول باسم أن يطمئنها، من دون جدوى. فذلك القلق المحكم لم يفلتها من قبضته قط. كانت تستلقي لساعاتٍ وهي تحدق في الظلام، خائفةً من العودة إلى النوم مجددًا. هذا الذعر وذاك الأرق لم يبدأ بالتلاشي، شيئًا فشيئًا، إلا عندما أعلن لها أن أحد سكان البلدة الميسورين عرض عليه عملًا كسائق شاحنة.

كانت دير ياسين مشيدةً عند منحدر تلّةٍ، على ارتفاع 800 مترٍ تقريبًا عن سطح البحر، وعلى بُعد أقل من خمسة كيلومترات إلى الشرق من وسط مدينة القدس. بين القرية والمدينة، امتد وادٍ من أشجار التين والزيتون. أحبت سيرون الرحلة نحو الكنسارة حيث كان باسم يعمل. كانت الطريق تسبغ عليها شعورًا بالسكينة والنور، وتزيح عنها همومها. كانت أيضًا تحب دير ياسين، التي تذكّرها بعنتاب.

سألته أكثر من مرّة: «لِمَ لا ننتقل إلى السكن هنا؟»

ما أحلى الابتعاد، ولو لخمسة كيلومترات فقط، عن تلك المرأة الغدّارة! لم تعد تطيق العيش مع حماتها تحت سقفٍ واحد. ما أحلى الابتعاد عن احتمال رؤية آقي أيضًا، وتلك اللسعة التي لا تزال تشعر بها

في داخلها كلما خرجت من المنزل وتوقّعت أن تلقاه مصادفةً. طبعًا، ستشتاق إلى أناهيد بشدة، لكن يمكن لأناهيد أن تزورها، لا بل وأن تقيم لديها قدر ما تشاء. ففي مطلق الأحوال، ما زالت تلك الفتاة الرومانسية المجنونة غير متزوّجة، تنتظر الحبّ، ولا يُحبطها اليأس الذي يرافق التقدّم في السن، ولا صفة «عانس» التي باتت تُلصَق بها من وراء ظَهرها.

لكنّ باسمًا كان يعترض دائمًا على الانتقال.

– سكّان القرية كلّهم مسلمون يا سيرون!

– وأيّ ضيرٍ في ذلك؟ لديك أصدقاء مسلمون كُثُر والجميع يحبّونك هنا. أنا متأكّدةٌ من أنّهم سيرحّبون بنا أيّما ترحيب.

كان باسم يعرف جيّدًا مقدار الكراهية بين أمّه وزوجته. فكلتاهما تتمتّع بشخصيةٍ قويةٍ للغاية، إلى درجةِ أنّ الواحدة منهما لا تقوى على إخفاء نفورها من الأخرى عنه. كلّما اقترحت عليه سيرون فكرة الانتقال، كان يقرص خدّها بحنانٍ، ويُنهي الحديث قائلًا: «أعدكِ بأنّي سأفكّر في ذلك». لكنّها لم تكن تصدّقه. حتى هو لم يكن يصدّق نفسه. لم يشعر بأنّه قادرٌ على اقتراف ذلك في حقّ فدوى. فقد كان يعلم كم كانت أمّه متعلّقةً به.

كانت عائلة بركات تملك قطيعًا صغيرًا من الماعز يرعاه شقيق باسم الأصغر، وتساعده سيرون عندما كان يحتاج إلى مَن يحلبها. لم يسمح لها باسم بمواصلة العمل في الخياطة بعد الزواج – «سيعتقد الناس أنّي عاجزٌ عن إعالتكِ»، قال لها – فاشتاقت كثيرًا إلى تصميم الملابس وخياطتها. لكن أكثر ما اشتاقت إليه هو الشعور بأنّها إنسانةٌ منتجة، أو على الأقلّ مفيدة.

كانت هناك معزاةٌ قبيحةٌ ونكدة على نحوٍ ملحوظ، سمّتها سيرون سرًّا فدوى. ولمّا كانت زوجة شفيق، والد أناهيد، تُدعى فدوى أيضًا،

ولمّا كانت «الفدوتان» تتنافسان في اللؤم والخبث، فقد أصبحت المعزاة محور دعاباتٍ لا تُعَد ولا تُحصى بين الصديقتين.

– لقد قرصتُ حلمتَي فدوى اليوم.

– مَن منهما؟ المعزاة أم حماتكِ؟

– هل لاحظتِ أنّ لحية فدوى نَمَت؟

– مَن منهما؟ المعزاة أم زوجة أبيكِ؟

كان الحديث أشبهَ بسوق عكاظ في اللّعب على الكلام. وكانت كلّ دعابةٍ تستدرج أخرى، فتبقى المرأتان تقهقهان، وتتبادلان المزاح إلى أن تشعر كلّ واحدةٍ منهما بأنها انتقمت، حتّى الشبع، من الـ«فدوى» الخاصّة بها ذلك النهار.

ذات صباحٍ من أواخر فصل الربيع، بينما كانت سيرون تجلس إلى جانب باسم أثناء توجّههما إلى دير ياسين، تذكّرتْ أحداث اليوم السابق وابتسمت. كادت حماتها تضبطها وأناهيد، وهما تستعرضان مواهبهما الكوميدية. بادرتْهما بعدوانية: «ما الذي يضحككما الى هذا الحدّ؟ تبدوان كدجاجتَين مجنونتَين». حاولتْ أناهيد أن تردّ عليها متمتمةً بعذرٍ ما، لكنّ سيرون أوقفتها عند حدّها. اكتفت بالوقوف أمام حماتها ببرود، وهي تنظر في عينيها مباشرةً من دون أن تطرف. تردّدتْ فدوى لبضع ثوانٍ، ثمّ غادرتْ فناء الدار. عندئذٍ، التفتتْ سيرون نحو أناهيد وقالت بهدوء: «اقتلعتُ قرنَي فدوى اليوم». فأمسكتْ أناهيد خاصرتَيها من شدّة الضحك.

عندما وصلا إلى دير ياسين، جلستْ سيرون في ظلّ شجرة كرز، في محاذاة بئرٍ، تشبه كثيرًا البئر في فناء جدّتها الراحلة، وهي تنتظر ريثما ينتهي باسم من ساعات عمله القليلة في ذلك النهار. فجأةً، ظهرتْ لها امرأةٌ عجوز من حيث لا تدري، واقتربتْ منها ببطء. لم تكن رأتها في الجوار من قبل، على رغم أنّ الكثير من وجوه القرية أصبحت مألوفةً لها.

سألتها المرأة بغتةً: «ألستِ الفتاة ذات الاسفين؟»

كانت تقصد كنية سيرون في حي المسيحيين في القدس، فهذا هو اللقب الذي أصبحت تُعرَف به بعد واقعة الزفاف الشهيرة. أما لقبها الثاني، فكان «بنت الخياطة». في الواقع، لم يكن أيٌ منهما يزعجها؛ فالأول يذكّرها بالمزة الأولى التي تحدثت فيها فدوى، والثاني يذكّرها بوالدتيها الخياطتين. لم تكن سيرون تعرف أن لها لقبًا ثالثًا هو «الساحرة»، بسبب شعرها الأحمر. كان الناس يُطلِقون عليها هذا الاسم خفيةً عنها، من دون أن يجرؤ أيٌ كان على مناداتها به مباشرةً.

مع ذلك، شعرتْ سيرون بالفضول: من أين لتلك المرأة أن تعرفها؟ فكّرتْ في نفسها: «لا بد من أنه شعري الأحمر». فخلال كلّ تلك السنوات التي عاشتها في القدس، لم تلتقِ قط بشخصٍ، ذكرًا كان أم أنثى، يملك لون الشَعر نفسه.

– نعم، أنا هي.

– قريبًا، ستحملين بابنة.

قالتها هكذا، من دون أيّ مقدمات. ذُهِلتْ سيرون. شعرتْ بقلبها ينبض بقوّة. فبعد ثلاثة عشر عامًا من العقم، تخلّتْ هي وباسم عن فكرة الإنجاب تمامًا. هي لم تكن تريد أطفالًا من الأصل. احتاج باسم إلى ستة أشهرٍ من التمهيدات والإقناع الحثيث كي يتمكّن من ممارسة الحبّ معها. كانت غير قادرةٍ على تصوّر فكرةِ إنجابِ طفلٍ من «هناك في الأسفل». وسرعان ما تحوّل هذا الحاجز النفسي إلى عجزٍ جسديّ. لكنها لم تكن تملك إلّا أن تشعر بالذنب حيال زوجها وبالأسف عليه، فقد كان صبورًا ومتسامحًا معها. ومع أنه لم يقل لها شيئًا ولم يلمها يومًا، فقد عرفتْ أنه، في قرارة نفسه، يريد طفلًا بجنون.

– مين إنتِ؟

تجاهلت المرأة التي خطّ الزمن على وجهها تجاعيد بارزة سؤالَ سيرون، وكرّرت الكلمات نفسها بالنبرة نفسها، كأنها آلة: «قريبًا،

ستحملين بابنة».

ثمّ أضافت: «لكن يجب أن تقسمي على أمرٍ ما أولًا».

أنبأها حدسها بأن طرح السؤال نفسه على العجوز مرّةً أخرى لن يجدي. فاكتفت بالقول: «ما هو؟»

– عليكِ أن تسمّيها فاطمة.

جمدت سيرون في مكانها، عاجزةً عن الكلام.

لكنّ العجوز أصرّت: «أقسمي».

– أقسِم.

دير ياسين – الخميس 17 أيار 1945

راودني كابوس آخر، أمس. أعرف ذلك الكابوس جيّدًا. كان يراودني بكثرةٍ في صغري. لكنّ الصبيّ الأصهب الشعر هو الذي كان يخنقني هذه المرّة بيديه، وأمّي تصفّق له.

هل يكون الموت بدايةً أخرى؟ آمل أن لا. فأنا مرهقةٌ وأحتاج إلى نهاية حاسمة.

مرهقةٌ ومستنزَفةٌ وخائرةُ القوى. لكنّ الأهمّ من ذلك كلّه أنّي خائفة.

يلا تنام، يلا تنام،

لَ دبحلا طير الحمام.

«أخيرًا!» هتفت فدوى، والدة باسم، عندما أعلن لها بفخرٍ خبرَ حمل سيرون، ثمّ أضافت بامتعاض: «آن الأوان لكي تنجب لك ابنًا. آمل فقط أن يكون الطفل بصحّةٍ جيدة وهو ينمو في هذه الرحم الهرمة».

– سيرون ليست هرمةً يا أمّي! إنّها بالكاد تبلغ الثالثة والثلاثين. أنتِ أنجبتِ أختي هانية عندما كنتِ في التاسعة والأربعين!

فاجأها كلامه على حين غرّة، لكنّه كان محقًّا. لقد أنجبت ابنتها الصغرى في التاسعة والأربعين من عمرها فعلًا، قبل نحو أربعةِ

وعشرين عامًا بالضبط. لطالما فاخرتْ بذلك مرارًا وتكرارًا، متباهية بخصوبتها المتميزة. فقيمة المرأة كانت تُقاس بخصوبتها، وبقدرتها على إرضاء زوجها وإسعاده طبعًا. كانت فدوى قد تزوجت في سنٍّ متأخرةٍ نسبيًا. كانت في الحادية والعشرين من عمرها وتكاد تقارب العنوسة وفق معايير تلك الأيام، فأرادت أن تعوض الأمر على زوجها، وتنتقم من كلِّ مَن اعتبر أنّ قطار الزواج فاتها. وُلِد ابنها البكر، باسم، عام 1894، بعد تسعة أشهرٍ بالضبط من زواجها. ووُلدتْ ابنتها الصغرى، هانية، عام 1921. أمّا خلال السنوات السبع والعشرين بين التاريخين، فقد أنجبتْ فيها أربع بنات، منهنّ اثنتان توفيتا بعد الولادة مباشرةً، وأربعة بنين. عشرة أولادٍ بالتمام والكمال. عشر ولاداتٍ زرعتْ فيها شعورًا عظيمًا بالفخر.

كان باسم آخر مَن تزوّج بين أخوته، على الرغم من كونه البكر. كان في الثامنة والثلاثين يوم تزوّج، أي أكبر من عروسه بثمانية عشر عامًا. عندما قال له صديقه شفيق إنّه وجد له الفتاة المثالية، أبدى شكوكه في بادئ الأمر. لكن ما إن وقعتْ عيناه على سيرون، حتى أُغرِم بها من النظرة الأولى. لم يُقلقه إلّا فرق السنّ بينهما. لكنّ شفيق بدّد قلقه قائلًا: «هذا أفضل. بانتظارها سنوات كثيرة لتنجب لك الكثير من الأبناء الأصحاء والأقوياء». لكن، اتّضح أنّها ستتأخّر في الإنجاب.

لم تكن والدة باسم وزوجته تطيق إحداهما الأخرى، ولا ريب في أنّ التوسط بينهما لم يكن سهلًا، كأقلّ ما يقال، خصوصًا أنّهم كانوا جميعًا يعيشون في منزل الأسرة القديم نفسه. قضت العادة بأن يحصل الابن البكر على منزل أبويه، شرط أن يعيشا معه وأن يتمكّن من إعالتهما. ولمّا كانت سيرون تواجه مشاكل في الإنجاب، فقد جعلها هذا الأمر هدفًا سهلًا في مرمى فدوى. لكنّ سيرون، بدورها، لم تكن تفوّت فرصةً لتغيظ المرأة العجوز. وكانت تعرف كيف تفعل ذلك على أكمل وجه؛ فعلى مدى السنوات، أصبحت خبيرةً في إثارة غضب

حماتها من دون بذل أيّ مجهودٍ يُذكَر. لكنّ باسم كان يحبّ الاثنتين بصدق، كما كان من الحكمة بحيث لم يرضخ للابتزاز العاطفي في تلك الحرب التي شنّتها كلٌّ منهما من أجل استمالته إلى طرفها.

تمتمت فدوى ببعض الكلمات غير المفهومة ثم تابعت إعداد عجينة الخبز. كانت لها ثلاث بناتٍ على قيد الحياة وخمس كنائن، لكنها لم تكن تسمح لأيٍّ منهنّ بالمشاركة في هذا الطقس المقدس. فلم تثق بأيٍّ منهنّ بما فيه الكفاية، ولا سيما «هالأرمنية»، كما كانت تشير إلى سيرون بنبرةٍ ملؤها الاحتقار.

– ماذا ستسمّي الصبيّ؟ يجب أن يحمل اسم أبيك، الله يرحمه.

– في أسرتنا أربعةُ أطفالٍ يحملون اسم فرج يا أمّ باسم! لقد استجاب أخوتي جميعهم لأمنيتكِ. كما أننا لا نعرف إذا كنا سنرزَق بصبيّ.

– أمنيتي!؟ كيف يمكنك أن تقول هذا؟ يا عيب الشوم! ليست بأمنية، إنه واجبٌ مقدّس. وأنت الابن البكر في كلّ حال! لكنك مُحِق. أشكّ في أنها قادرةٌ على إنجاب الصبيان. ما زلتُ لا أفهم لماذا اختار لك شفيق هذه الأرمنية زوجةً من بين جميع الفتيات الفلسطينيات المهذّبات حولنا. واضحٌ أنّه يملك نقطة ضعف تجاه الأرمنيات!

– متى تكفّين عن تسميتها بالأرمنية؟ ألم تشبعي بعد من هذه الكراهية الدفينة؟

بدا واضحًا أنّ باسمًا ضاق ذرعًا، لكنّ فدوى كانت من الدهاء والمكر ما جعلها تعرف كيف تُجاريه وتُبقيه قريبًا منها. فردّت، كمَن تريد أن تُصلِح خلافًا: «ولكنّها لا تردّ عليّ عندما أناديها جميلة».

– لأنّ اسمها سيرون، وليس جميلة!

– لكنك قلت لي إنّ الأمر سواء...

– لا يقا. ليس سواء على الإطلاق!

– ولا يهفك يا عيوني! إنه يومٌ مجيد ويجب أن نحتفل به! أنا في الثالثة والسبعين من عمري، وعلى حافّة قبري. لكني سأحمل طفل ابني البكر بين ذراعيّ قبل أن أموت. فلنحتفلْ إذًا! ما رأيك أن أحضر لك منسفًا؟

كانت تعلم أنه طبقه المفضل، وأنها تنجح دومًا في استمالته بواسطة الطعام، خصوصًا أنّ سيرون تعجز عن قلي بيضة حتى. كما كانت تعرف أيضًا كيف تستغلّ شيخوختها لاستدرار شفقته.

ابتسم ابن الحادية والخمسين، وقال: «إنه فعلًا يومٌ مجيد! سأصبح أبًا! آمل أن تكون فتاةً. سأسميها ميسان». ثم أردف:

– آه، كدتُ أنسى: سننتقل أنا وسيرون للعيش في دير ياسين.

ثمّ نهض وغادر الغرفة، تاركًا والدته تحت وقع الصدمة.

القدس – السبت 6 أيلول 1945

يلّا تنام، يلّا تنام،

لَ دبحلا طير الحمام.

في نومي، لا أنفك أرى أحصنةً بزيّةً تركض في حقل. الحقل لا متناهٍ، لا بداية له ولا نهاية. والأحصنة تعدو وتعدو. فجأةً، يستحيل الحقل صحراء قاحلة، وتتوقّف جميع الأحصنة عن الجري في وقت واحد. فتتصادم وتهوي فوق الرمال. ثمّ شيئًا فشيئًا، حصانًا تلو الآخر، تنبت لها أجنحة وتبدأ بالتحليق عاليًا، نحو الأفق البعيد.

ما من حذاءٍ يمكن أن يجتاز رحلة العمر سليمًا. هل يُصلح الإسكافيون الأقدام أيضًا؟ يجدر بهم ذلك. كلما رأيتُ ملمّع أحذيةٍ ينظّف حذاء أحدهم، أتذكر أبي. أتذكر يسوع ينحني فوق أقدام تلامذته ويغسلها بعناية. أتذكر كلّ أشجار الصفصاف البشرية الباكية. الأشخاص المضطرون للانحناء من أجل القيام بعملهم، هم ملكات هذه الأرض وملوكها المجهولون.

الألوان ليست حقيقية. الحليب الأبيض الذي شربته من صدر أمي كان أسود. والدم الذي يتدفق في عروقي أسود.
أين أنتِ يا مايريغ؟ لم أعد أريد أن أصبح جزمةً عندما أكبر.
كلّ ما أريده هو أن أكون مرهمًا يبلسم قدميكِ الجريحتين.

عندما اكتشفت سيرون أنّها حامل، بعد بضعة أشهرٍ على لقائها الغريب مع تلك العزافة العجوز، أخبرتْ باسمًا القصة كلّها، فضحك عليها: «بالله عليكِ! لا شكّ في أنها محتالة! إنّها مجرد مصادفة. إذا رُزقنا بفتاة، فسأسميها ميسان!» ورفض أن يفسح أيّ مجالٍ للنقاش، وهي أيضًا لم تُصرّ. كانت تشعر بغبطةٍ كبيرةٍ كونه وافق أخيرًا على الانتقال إلى دير ياسين، وهو قرارٌ اتّخذه من دون شكّ بفعل ذلك الشعور الكبير بالإثارة الذي انتابه عندما أخبرته أنه سيصبح أبًا. عرفت أنّ هذه كانت طريقته لمكافأتها، فلم ترغب في معارضته خشية أن يغير رأيه.

مرضتْ ميسان بعد وقتٍ قصير من ولادتها. لم يكن مرضًا في الواقع، بل كانت تبكي لساعاتٍ وساعاتٍ من دون سببٍ على الإطلاق. زارا ثلاثة أطباء مختلفين، لكنّ أيًا منهم لم يفهم ما كان خطبها. بدا لهم أنّ جسدها يعمل بشكلٍ طبيعيٍ، من دون أيّ دلالةٍ على وجود مرضٍ أو التهابٍ على الإطلاق. ألقت فدوى باللوم على سيرون: «إنّ الله يعاقبكِ لأنّكِ أجبرتِ ابني على الانتقال من القدس والعيش مع المسلمين». أمّا سيرون، فلامت باسمًا لأنّه لم يَسمّ الطفلة فاطمة ورفض احترام قَسَمها. في بادئ الأمر، تجاهل اتّهامات زوجته، لكن بعد ثلاثة أشهرٍ من الليالي المؤرقة مع رضيعةٍ تبكي باستمرار من دون أن يرضيها أيّ شيء، أذعن لها. فقال: «اسمعي، إذا رُزقْنا بابنةٍ أخرى، فسنسمّيها فاطمة. أعدكِ بذلك، على شرفي». بمجرد أن تلفظ باسم بتلك الكلمات، حتى بدأت نوبات بكاء ميسان تخفّ تدريجًا، إلى أن توقّفت تمامًا. بعد

أقلّ من سنتين، أي في آذار 1948، اكتشفت سيرون أنها حاملٌ من جديد.

لم تقع عليهم الحرب الإسرائيلية-العربية وقوع الصاعقة، فقد كانوا يتوقّعونها. يسمعون زئيرها ويشتمّون رائحتها النتنة منذ ما قبل اندلاعها. بعد مجزرة دير ياسين في 9 نيسان 1948، وما تلا ذلك من معارك من أجل القدس توفي فيها الكثير من أقارب باسم وأصدقائه، قرّر الرجل الفرار مع زوجته الحامل وابنتهما الصغيرة، مهاجرًا من البلد بأكمله، وقد أدرك عدم وجود أيّ آفاقٍ لحلّ النزاع.

جمعا ما أمكن من أمتعتهما ورحلا في 23 أيار 1948. كانت سيرون قد تلقّت في اليوم الأسبق خبر مقتل آقي. كان يزور قريبًا له في مستوطنة رمات راحيل، جنوب القدس. في ذلك اليوم، شنّت القوّات العربية هجومًا على المستوطنة، وحصدت المعركة 31 قتيلًا أردنيًا و13 إسرائيليًا كان آقي أحدهم. كان قد رفض رفضًا قاطعًا حمل أيّ سلاح، ولا حتّى للدفاع عن نفسه، فأصيب بينما كان يساعد الجرحى من كلا الطرفين. أكّد أحد الشهود أنّ آقي قُتِل على يد شقيقه. فحاييم صهيونيٌّ متشدّدٌ لا يعرف الرحمة، ولم يسامح آقي قطّ على تعاطفه مع الفلسطينيين وعدم مشاركته القتال في صفوف إسرائيل. أناهيد توفيت بدورها، قبل بضعة أيامٍ فقط من موت آقي، إذ أردتها رصاصةُ قنّاصٍ غادر خلال تبادل القصف العنيف في الشوارع بين الفيلق العربي والقوّات الإسرائيلية في القدس.

دُزجان آخران يُضافان إلى المشرحة. لوعتان أخريان ستطويهما سيرون بعنايةٍ بين أمتعتها.

دير ياسين – الأحد 23 أيار 1948
بيني وبيني قبرٌ مقفرٌ جدًا أجهل إلى متى سأنجح في مقاومة ندائه.
ما الهدف من هذا كلّه؟ هل من هدفٍ حتّى؟ ما الأسوأ، غياب الهدف أم وجوده؟ وما هو أسوأ الشرّين، العلم أم الدين؟

هل يتوقف سيل الأسئلة يومًا؟ أم يستمر الموتى في التساؤل عمّا حدث لمَن تركوهم خلفهم؟
وداعًا، أناهيد. وداعًا، اقي.

استقرّوا أوّلًا في مروحين، وهي قريةٌ صغيرة في جنوب لبنان على الحدود مع فلسطين. هناك، أنجبتْ سيرون ابنتها الثانية. برّ باسم بوعده وسجّلها باسم فاطمة في مكتب تسجيل الولادات المحلّي. فدوى لم تكن موجودةً لتحتجّ على الاسم المسلم. كانت قد قرّرت أن تقفز من على حافة قبرها وهي في الخامسة والسبعين، فتوفّيت في نومها قبل نشوب الحرب. «أخيرًا!» ذاك كان ردّ الفعل الوحيد لسيرون عندما أعلمها باسم بالخبر وقد أخذ منه الحزن مأخذًا عظيمًا. لم يغفر لها ذلك قطّ.

استمتعا بستّ سنوات من العيش الهانئ والسلمي نسبيًا في مروحين. كان باسم يساعد مزارعي التبغ في الزرع والحصاد، فيما عادت سيرون تدريجًا إلى مزاولة المهنة التي صنعتْ مجدها في الخياطة. لكنّهما اضطرّا إلى الانتقال مجددًا بعد وفاة فاطمة. جعلت المأساة الحياة بالنسبة إليهما في مروحين أمرًا لا يُطاق، خصوصًا بالنسبة إلى سيرون.

وقع ذلك يوم الثالث من أيلول 1954، وبالتحديد يوم عيد ميلاد الطفلة السادس. انتهت سيرون يومها من خَبز قالب الحلوى، وتركت الفتاتين وحدهما في المنزل كي تقوم بزيارةٍ خاطفة لإحدى جاراتها المريضات. عندما عادت، وجدت فاطمة تشكو من آلامٍ في بطنها. احتاج باسم إلى أربعة أيام كي يجد أخيرًا مَن ينقلهم إلى أقرب مستشفى، على بعد ساعتين ونصف ساعةٍ بالسيارة. لكنّ الأوان كان قد فات، إذ توفّيت الفتاة الصغيرة على الطريق. بعدما شرّح الطبيب جثتها، أخبر والديها أن إبرةً وصلتْ إلى قلبها وتسببتْ لها بانحباس

أذى إلى وفاتها. تذكّرث سيرون أنها نسيث علبة الخياطة مفتوحة عندما غادرت المنزل.

«هذا هو عقابي»، قالت لنفسها.

يومذاك، كانت في الشهر الخامس من حملٍ شكل صدمةً لكليهما، خصوصًا أنها كانت في الثانية والأربعين من عمرها، وكان باسم في الستين. غادرا مروحين بعد أسبوعٍ واحدٍ تمامًا على الجنازة، وأنجبت سيرون ابنتهما الثالثة في بيروت عشية عيد الميلاد. كانت ولادة صعبة جدًا، وكادت سيرون تموت أثناء المخاض. فسمّى باسم الطفلة نجاة، معتبرًا إيّاها حبل نجاةٍ لأسرته المفجوعة.

لكنّ النجاة كانت محطةً فاتت سيرون قبل وقتٍ طويل، على متن قطار الرعب الذي جسّدته حياتها.

مروحين – الجمعة 3 أيلول 1954

هل من أحدٍ آخر على وجه هذه الأرض يدرك كم من المؤلم أن نقيس الزمان والمكان بعدد الأحبّة الذين خسرناهم؟

كثيرةٌ جدًا الجثث المنتشرة من حولي، مدفونةً أو مهجورةً أو منسيّة في بقاع الأرض المختلفة، إلى درجةٍ أني لم أعد أستطيع أن أتذكّرها كلّها. ما هذا العالم سوى مقبرةٍ كبيرة.

أخبرني يا الله، كم من مرّةٍ يحقّ لشخصٍ أن يقول: «سامحوني لأنّي بقيتُ من بعدكم؟»

وداعًا، فاطمة.

تدبّر باسم استئجار شقّةٍ رخيصة الثمن في مبنى متردٍّ في برج حمّود، وهو الحي الأرمني الرئيسي في بيروت. لم يكن العثور عليها سهلًا، لكنّ زوجته سيرون أرمنية، والمعروف عن الأرمن أنهم يساعدون بعضهم بعضًا، ويتضامنون مع أشقائهم في أوقات الشدّة. عمل باسم إسكافيًا لتأمين لقمة العيش لعائلته. كانت سيرون، كلّما أحضرت له

الغداء إلى الدكان الصغير الذي استأجره عند زاوية الشارع، تراه منحنيا فوق زوجٍ من الأحذية، فتتذكّر أباها نظار وتلك المرحلة التي كانوا كلّهم يعيشون فيها بسعادة في عنتاب.

«ترى، أما زالت ركبتاه تنزفان؟»

عملت سيرون بدورها، فمدخول باسم الزهيد كان بالكاد يغطي إيجار الشقّة والدكان. فبدأت تنظّف البيوت. مكّنها ذلك من تسجيل ميسان في مدرسة الحي الابتدائية الأرمنية، حيث استطاعت ابنتها الكبرى متابعة دراستها مجانًا، مقابل قيام سيرون بتنظيف الصفوف.

أمّا ابنتها الثانية، نجاة، فكانت مريضة جدًا، أو «مريضة في عقلها»، كما كان جيران سيرون يتهامسون. اكتشفت سيرون حالتها للمرة الأولى عندما أصبحت الفتاة في الخامسة من العمر. يومذاك، أخذتها إلى المدرسة الأرمنية وسجلتها فيها، كشقيقتها ميسان من قبلها. لكنّ مدير المدرسة استدعاها بعد شهر، في كانون الثاني 1960، وأخبرها أنّ نجاة تعاني مشكلة. ثم أضاف وهو يدلّ بإصبعه إلى دماغ الفتاة: « Aysdegh»[22]. ثم تابع: «حاولنا جهدنا. لكن ابنتكِ لا تستجيب لأيٍّ من محاولاتنا التعليمية. فهي إمّا تجلس في الصفّ ولا تؤتي صنيعًا، كمن تسير في نومها، وإمّا تُصاب بثورة جنون. يجب أن تأخذيها إلى طبيب».

سبق لسيرون أن لاحظت النوبات والتقلّبات المزاجية التي تصيب نجاة في بعض الأحيان. لكنها لم تكن خبيرةً بما يكفي لتشتبه في أنّ ابنتها تشكو علّةً. كان في إمكان الفتاة أن تتكلّم وتسير من دون أن تُبدي أيّ علاماتٍ تدلّ على مرض. لذا، اعتقدت سيرون أنّ ابنتها الصغرى مجرّد طفلةٍ مزاجية، إلى أن أصدر مدير المدرسة هذا الحكم الرهيب الذي لا يملك وقاحة إصداره إلا الجَهلة: «إنها متخلّفة».

لم تكن مشكلة نجاة تتعلّق بالنمق، بل بخلل هرموني وكيميائي. غير أنّ قلةً من الأشخاص كانوا يعرفون الفرق بين الاثنين في تلك

الأيام.

قلّة من الأشخاص يعرفون الفرق حتى في أيامنا هذه.

طبيب؟ لا يستطيعان تحمل كلفة طبيب! قصدت سيرون صيدلانيًا وشرحت له الوضع. فمدّ الصيدلاني يده إلى أحد الرفوف، وانتقى منه علبة أدوية، ثم قال لها بثقة: «هذا هو. أعطيها هذا بانتظام، وستصبح على ما يرام. حبّة واحدة كلّ صباح. وسنضاعف الجرعة بشكلٍ تدريجي».

كانت العلبة تحمل اسم «فيرونال».

لربما كان من الأفضل أن تُسمّى «الحكم بإعدام نجاة».

برج حمود – الأحد 19 تموز 1964

افركي يا سيرون، افركي. هذا يوم عطلتك. اليوم الذي يجب أن تنظّفي فيه بيتك عوضًا من بيوت الآخرين.

لكن لا جدوى من ذلك. فمهما نظّفتُ الأرض بالفرشاة، وغسلتُ الصحون، وفركتُ الحمام بتأنٍ، وأزلتُ الغبار عن الرفوف، يبقى كلّ شيء متسخًا.

أرى بقعًا سوداء أينما كان، على الجدران، على ملاءات الأسرّة، على الستائر، وعلى ثيابي.

أيمكن أن أكون أنا البقعة المتسخة؟

أيجب إذًا أن أمسح نفسي من الوجود؟

عندما بدأت صحة سيرون تتدهور في سنّ الثامنة والخمسين، اضطرت إلى الإقلاع عن تنظيف المنازل والعودة إلى الخياطة، على رغم قَسَمها بعدم لمس إبرةٍ في حياتها ثانيةً بعد موت فاطمة. لكنّها كانت من الفقر ما منعها من الحفاظ على أيّ قَسَم. فلم تكن تستطيع أن تأذن لنفسها بالتوقّف عن العمل. كان زوجها قد أصبح بائعًا متجوّلًا لأنه لم يعد يستطيع تحمّل إيجار الدكان، كما أنّ ابنتها كانت في حاجةٍ دائمةٍ إلى الدواء.

في العام 1970، قرّر باسم أخيرًا أن يستحصل على بطاقة هوية لبنانية له ولزوجته. ومع أنّه كان يستطيع أن يقدّم طلبًا للحصول عليها منذ العام 1958، عندما سهّل كميل شمعون تجنيس الفلسطينيين المسيحيين، إلّا أنّه ظلّ يؤجّل الموضوع، متجنبًا الإحساس بأنّ خطوته هذه تحمل خيانةً لوطنه الحبيب فلسطين. في النهاية، اضطرّ إلى الإذعان بعدما قيل له إنه سيتمكّن بذلك من الحصول على خدمات استشفاء من الدولة اللبنانية. كانت ابنته الكبرى قد نالت الجنسية عندما تزوّجت بلبناني قبل نحو السنة. أمّا الصغرى، نجاة، فكانت جنسيتها «قيد الدرس»، على غرار أختها المتوفاة فاطمة، التي لم تولد في الأراضي اللبنانية فحسب، بل دُفِنت فيها أيضًا.

شعرتْ سيرون بالقلق عندما أخفى زوجها الوثائق. في النهاية، وجدَتْها مخبّأة في أحد جواربه، فأطلعتْ ميسان عليها. عندما أخبرتْها ابنتها بدهشةٍ أنّها مسجّلة باسم جميلة صرّاف، جنّ جنون سيرون. لكنّ باسمًا تظاهر بأنّ الذنب لم يكن ذنبه، بل ذنب الكاتب الذي غيّر الاسم لسببٍ يجهله، مضيفًا أنه لم يكتشف الخطأ إلّا بعد فوات الأوان. كان يكذب من دون شك. فكيف يمكن لكاتبٍ أن يعرف أنّ سيرون وجميلة تعنيان الأمر نفسه؟ كانت أكيدةً من أنّه تعمّد تغيير الاسم تلبيةً للرغبة الدفينة التي ساورتْ أمّه الراحلة طويلًا. ولكي تعاقبه، تغلّبتْ على هوسها بالتنظيف، واعدةً زمرةً من الفتيان بقطعة حلوى مقابل كلّ فأرٍ يصطادونه ويسلّمونها إيّاه. هكذا، بدأت تدسّ الفئران الميتة في أماكن لا تخطر في البال في شقّتهما الصغيرة. في ملابس باسم التحتية المطوية، داخل أحد خفّيه، فوق الخزانة حيث يحتفظ بقبعته... صحيحٌ أنّ زوجها كان رجلًا قويًّا، لكنّه كان، لسببٍ تجهله، شديد الخوف من الفئران، لا بل كان كلّما رأى فأرًا يزعق مثل طير النورس.

بعد سبعة أيامٍ من الرعب، كانت في آخرها قد دسّت فأرًا تحت مخدّته كاد يصيبه بنوبةٍ قلبية، قرّرتْ أنّه نال ما يكفيه. لقد قضى مدّة

عقوبته. عرفتْ سيرون أنّ إحساس باسم بالذنب تجاه فدوى لم يتوقّف منذ انتقالهما للعيش بمفردهما في دير ياسين. فقد ألفت بأمّه أمراضٌ شديدةٌ بعد ذلك بوقتٍ قصير، ما جعله يقيم في داخله صلةً وثيقةً بين الأمرَين.

«أمل أن تكون هذه الساحرة الشرّيرة تتلوّى في الجحيم».

هل يخرج الأبناء فعلًا من أرحام أمّهاتهم؟ لا ننفكّ نحن النساء نلوم الرجال على ما نتعرّض له من ظلم. ولكن، أنسينا أنّ هؤلاء الرجال هم أوّلًا وأخيرًا أبناؤنا؟ أبناء نساءٍ يعبدنهم. نساء يعاملْنهم كملوك. نساء يمنحنهم الأولوية قبل أنفسهنّ. نساء يسامحنهم على كلّ شيء. نساء يوافقْنهم على أمرٍ تلو آخر تلو آخر. نساء تظلّ أمنيتهنّ أن يقيم الأبناء من جديدٍ في أحشائهنّ، كي يملأنَ هذا الفراغ السحيق الذي تركوه فيهنّ. عند لحظة الولادة، تتخلّص الأمّهات من بناتهنّ، لكنّهنّ يتخلّين عن أبنائهنّ رغمًا عنهنّ، لا لشيءٍ إلا لأنّ قواعد علوم الأحياء تفرض عليهنّ ذلك.

داخل كلّ رجلٍ يمارس الحبّ مع امرأةٍ، هناك صبيّ صغيرٌ يحاول التسلّل عائدًا إلى رحمِ أمّه.

بيروت – الثلاثاء 10 تشرين الثاني 1970
الفقر يهدّ الروح.
الفقر يهدّ الروح.
الفقر يهدّ الروح.
واللون الزهري يطوّقني...

لم تعد تستطيع أن تتحمّل.

كانت في كلّ حالٍ قد اتّخذتْ قرارها هذا منذ وقتٍ طويل. كلّ ما في الأمر أنّها كانت تنتظر ريثما يصبح الطعم المعلّق بالصنارة حلمًا

مُغريًا لا يُقاوَم. اليوم، شعرتْ بأنه وصل إلى درجة الاختمار: استيقظتْ ولعابها يسيل اشتهاءً للموت.

كان ذلك اليوم هو، في كلِّ حال، عيد ميلادها. عيد ميلاد المرء يومٌ مناسب ليموت فيه.

بعد قليل، ستستفيق نجاة وستصل ميسان لتزورها كما تفعل كلَّ يومٍ في أوائل ما بعد الظهر. فكّرَتْ: « Pedkeh Arag Enem» [23]. أمس، أخبرتها ميسان أنّ رجلًا رمى بنفسه من على سطح المبنى حيث تقيم مع زوجها وابنتها، المؤلَّف من خمسة طوابق. لم تستطع سيرون أن تتخيَّل أنها قد تُقدِم على أمرٍ كهذا: أن تُلوِّث الشارع في الأسفل بالدماء والعظام المسحوقة واللَّحم العاري! كانت بحاجةٍ إلى موتٍ نظيف، بلا ضجّة. إلى موتٍ لا يصيب عائلتها بالإحراج.

جلستْ لدقيقة تلتقط أنفاسها كما باتت تفعل غالبًا في الأونة الأخيرة. رأت نحلةً عالقةً على غطاء مرطبان المربى، فوق طاولة المطبخ. فقالت في نفسها: «لا بدّ من أنّ الغطاء دبِق. يجب أن أنظّفه». ثمّ هزّت كتفيها بلا مبالاة، وقالت: «لاحقًا، لاحقًا».

كانت النحلة ترفّ بأجنحتها الصغيرة وهي تُصدر طنينًا ينمّ عن التململ والاضطراب. لكنّ سيرون لم تشعر حيالها بأيّ شفقة. «جميعنا عالقون. كفّي عن التذمّر».

توجّهتْ إلى غرفة نجاة كي تطمئنّ إليها. كانت لا تزال نائمةً، ممدّدةً على ظهرها، ساكنةً كجثّة، وشعرُها الأملس الكثيف يغطّي وجهها. اقتربتْ سيرون بحذرٍ من فم ابنتها، مرهِفةً السمع كي تتأكّد من أنها لا تزال تتنفس. «هذه الحبوب تقتلها ببطء». كان شعر نجاة أسوَد مائلًا إلى الزرقة، مثل شعر أختها ميسان. فكّرتْ سيرون: «مثل خالتهما أوسانا تمامًا». فتشقّق جدارٌ آخر في قلبها الزجاجي. لم ترِثْ أيٌّ من بناتها خُصَلها الحمر، فشعر فاطمة كان كستنائيًا. تحسّرتْ وهي

تتذكّر: «حبيبتي فاطمة»، فأطفأت الذكرى آخرَ شمعةٍ مرتجفةٍ في روحها.

تساءلت: «هل أخطأتُ عندما أخبرتُ ميسان؟»

لم يعد هذا يهمّ الآن. فما حدث قد حدث. شعرتْ بأن ابنتها تستحقّ أن تعرف. كانت ميسان قد طرحت عليها أسئلة كثيرةً في الماضي، أسئلةً لم تُجِب عنها قطّ. أما الآن، فأجابت عن كلّ شيء، حتى عن الأسئلة التي لم تُطرَح.

«كلّ ما أطلبه ألا تُخبري أباكِ عن آقي. فهو لا يستحقّ هذا الألم».

عادت إلى المطبخ، وتوجّهتْ نحو الخزانة تحت المغسلة حيث كانت تحتفظ بكلّ منتجات التنظيف. فتحت باب الخزانة ببطء بيديها اللتين باتتا الآن لا تكفّان عن الارتعاش. ثمّ جثمتْ ومدّتْ يدها لتمسك بعبوةٍ خلف زجاجةِ منظّف.

كانت العبوة صفراء مشعّة، عليها خربشاتٌ سوداء.

كُتِب عليها «سمّ للجرذان».

كُتِب عليها «خطر».

كُتِب عليها «لا تبتلع».

لكنّ سيرون لم تكن تجيد القراءة.

نظرتْ إلى الملصق الذي يحمل صورة جمجمة وعظمتَين متقاطعتَين.

أنذاك رأتهم. كانوا كلّهم هناك، وجوههم على العلبة تبتسم وتلوّح لها: نظار، هاغوب، أوسانا، مارين، غريغور، ڤارتوهي، أناهيد، فاطمة... وآقي...

«سبق لي أن متّ موتًا حاسمًا أوّل مرّةٍ فقدتُك. كلّ الميتات التي متّها قبلًا كانت تمارين لا مفرّ منها. كلّ الميتات التي متّها لاحقًا كانت تكرارًا غير ضروري. أنا جثّة فتاةٍ بلا حياة في الثامنة عشرة. أنا جثّةٌ في السادسة والستّين تأخّر موعد حصادها».

ابتلعت سيرون الحبيبات الرمادية وعبرت إلى الجهة الأخرى.

بيروت – الثلاثاء 11 نيسان 1978
أنا سيرون صزافيان،
وكيلةُ الذلّ في الصحراء السورية.
ليس في ذاكرتي إلا أعماز التيه والإهانة والانحلال والموت. لو استطعت، لجعلت من هذه الأعمار بلاذا سميتها أناي المتشظية في الرمل والليل والمتاهة.
ليس في جسدي إلا رائحةُ المني والمقابر وعواطف الديدان والقيح والدم المتخثر.
أحمل في لا وعيي ينابيع الدموع من ماضي أرمينيا إلى مستقبل الأجيال المفجوعة بمصائرها القتيلة.
كلّما أشرقت شمس، تداعى فوق عمري المتثاقل جبلٌ تلو جبل، تلو جبل للهزيمة الإنسانية.
كلّما غابت شمس، أسدلت في ثنايا عمري عيون الأطفال المغمضة، وآهات الأمهات المكتومة وجموح الحياة المتلاشية.
عندما قتلوني، وبقيتُ على قيد الحياة، رأيت أنه ينبغي لي أن أتقمص شروط اللعبة حتى آخر حذافيرها، وأن أؤدي مراسمها، وأجسد في جثة حياتي شخصيةَ المرأة التي شاءت أن تتحدى ما لا يمكن تحديه، ومواجهة ما لا يمكن مواجهته إلّا بالرضوخ.
عندما قتلوني أمام الشاهد الذي هو جثتي، والذي هو مرايا عيني، لم أشأ أن أموت على الفور، بل أردت أن أحمل موتي هذا، وأتحامل عليه، وأتعايش معه، وأرجئ الاحتفال، متفاديةً تجسيد النهاية غير الناضجة، ليكتمل الاقتصاص ويصل إلى مبتغاه النهائي.
في المسرح، يجب التماهي والانحلال ليصير الممثل هو نفسه الشخص الحقيقي، وهو نفسه الحقيقة. في هذا المسرح الحيوي المكتنز، لا يعود

النص إملاء من فوق، أو من خارج. بل يصير مضمَّخًا بحبر الشخص، بدمه، وبخلاياه المفجوعة بذاتها.

يصير النص هو الواقع. ويصير الواقع منحلًا في النص. ليصبحا مادة الاحتفال ومضمونه على السواء.

هنا، على الخشبة، في هذه الصحراء المتمادية، ينخرط الممثل في الشخص، في الدور، فيصيرهما، ويكتمل التجلّي.

أنا سيرون صزافيان، انخرطتُ في الدور فصرتُ إياه. انخرطتُ في المرأة القتيلة الشاهدة فصرتُ القتيلةَ وصرتُ الشاهدة.

هكذا كان عليّ أن أواصل مسيرتي، حاملةً هذه الجثة المفردة الأحاسيس والمآسي، لأنه كان لا بدّ لهذا المسرح من أن يستكمل عناصره، فأتخطّى الزمان والمكان التاريخيين، ولو كان عليّ أن أنتهك وحدتهما المطلوبة، وذلك من أجل أن تنضج الوليمة، ويشارك الجميع، أجدادًا وأحفادًا وأجيالًا متعاقبة، في المجزرة.

في الصحراء، لم نكن نخرج من مكانٍ لنمشي صوب مكان. كنا فقط نغرق في الرمال. كلّما تقدمنا، شعرنا بأنّنا نقترب أكثر فأكثر، لننضمّ إلى صناعة المتاهة الكبرى. كأنّنا كنا نعرف أن الخلاص لا وجود له، وأن الموت هو الخلاص. كلّما سقط أحدنا، أو تساقط، أو تأخّر في اللحاق بالقافلة، أدركنا أنّنا نواجه المصير نفسه لا مفرّ، حتى أن الواحد منا كان يتمنى في قرارته أن يكون هو الرقم الإضافي الجديد في تعداد ضحايا المجزرة.

لم نكن في حاجةٍ إلى أن نتخاطب، فقد كانت حياتنا المذبوحة هي لغتنا.

كلّما ابتعدنا عن أرضنا، شعرنا بأن الصحراء هي مأوانا الوحيد وبأنها تفغر فاهها لتبتلعنا في مقبرتها الكبرى.

أيُّ شعورٍ بالحياة يمكن أن يظلّ ينتاب المرء عندما لا يعود في مقدوره أن يحصي الموتى؟

أيُّ شعورٍ يكتنفه، عندما لا يعود في مقدوره أن يحصي الأحياء؟

كما عندما لا يعود في مقدوره أن يعرف أين هو تماماً: أفي المكان أم خارجه. أفي الزمان أم خارج الزمان. أبين الأحياء أم بين الموتى؟!
هكذا أدركت أن الموتى ليسوا الأرمن الذين طوتهم الرمال، أو الذين اجتثتهم يد الطغيان العثماني فحسب، بل هم الذين تنتظرهم متاهات الصحراء المرصعة بذهب الزوال.
حتى لكنت أتساءل في جحيمي، هل كنا نمشي ونتقدم حقاً أم كنا نغوص في فجوة لامتناهية من الانسلاخات؟!
كان بوذي، وأنا أجرجر أسمال روحي، أن أشتعل لأصير كعليقة موسى. وأنتقل للعيش بين النجوم والشهب في حركة سيارة من التيه المنظم غير القابل للوصول إلى مكان ولا العودة إلى آخر.
كنا نقيم في الرعب الحسي المطلق. وهو رعب أن يكون المرء حياً، حالماً بعينين يقظتين، رائيتين، صافيتين، كصفاء هذا الشسوع غير القابل للانطفاء.
هو هذا الرعب الذي يكون فيه القتيل شاهداً، عارفاً أنه لا يستطيع أن يغمض عينيه لئلا يفوته شيء من دهشات المشهد الأخير.
لا أرى إلا الجثث. لا أصافح إلا الجثث. لا أفكر إلا في الجثث. أنا أيضاً جثة.
الجثث في كل مكان. الجثث هي العناصر الأربعة. وهي الهواء. وهي الماء. وهي النار. وهي التراب. وهي الماضي. وهي الحاضر. وهي المستقبل.
الجماعة الأرمنية التائهة هي الزاد الذي أحمله. هي الخبز. وهي ماء العطش الباقي في الصحراء.
هي إرثي الذي يتهادى فوق السراب الأخير.
أيكون السراب بلادنا الحقيقية الأخيرة؟!
أيكون هو سقفنا المفتوح على إثم السماء؟!
أيكون عائلتنا الوحيدة؟!
كيف نتقاسم الحياة. كيف نتبادلها؟

رأيتُ طفلةً تأكل جثتها لتحيا.
رأيتُ أمًا تفلش شعرها ليكون سماءً لظلّها المتداعي.
رأيتُ نفسي في كلّ حبة رملٍ، في كلّ نهمٍ للاغتصاب، في كلّ ارتكابٍ لا ثمن له.
هؤلاء الذين ورائي ستجعلهم الرمالُ آيةَ التاريخ والجغرافيا.
هؤلاء الذين أمامي ينتظرهم الهبوب المذهّب بسمّ الصحراء، حاملًا معه تراجيديا الأرواح المثلومة والبيوت المتصدعة فوق أحلامٍ مغتصبة.
هؤلاء الذين يقيمون فيّ، كيف يمكنني أن أغطي جثتهم بالراحات المفتوحة، وكيف لي أن أسهر على دماثة دمائهم وحشرجات عيونهم الزائغة؟!
هؤلاء الذين أقيم أنا فيهم، لم يعد في مقدوري أن أحصي نومهم الأبديّ فيّ، أنا العدم الأعظم، ولا فرارهم اللامتناهي في الظلمة المفتّتة مسامُ الهواء وجروحه غير القابلة للالتئام.
أغيثوني، أنا سيرون صرافيان، ابنة الأقدار الأرمنية، وحاملة الأمانة القاتلة في المتاهة التي تليها متاهةٌ في إثر متاهة.
اردموا السماء عليّ، اجعلوني تحت غيومٍ دائمة، مذدوني في شرايين الماء، في سرابه المفتكر، في خيالاته المذبوحة، في عسل احتمالاته.
لم يسمعني أحدَ. لم يسجّل صيتي أحدَ.
لمن أسلّم رفاتي التي تتناسل في الأمكنة وفي العناصر المدلهمة؟!
عيناي اللتان كنتُ أترقّب الليل لأفتحهما على المطلق، لأبلغ بهما عن جريمة، مَن يستعيد نظراتهما لتكون منارة الكتب التي لن تُكتب، والروايات التي لن تُروى، والأشعار التي لن تُغنّى؟!
أنا الابنة والأمّ والجدة الأرمنية، أنا الرحم المدودة، أستجمع في شخصي القتيل، وهج الجمر ورماد المجزرة، لأنّ من حقّي أن أمرّر هذه الرسالة المتخفية إلى حرّاس الكذبة الكبرى، كذبة الإنسان المضرّج بلاإنسانية العالم.

من حقّي أن أسفيكم، قاتلًا إلى جانب قاتل. وشاهدًا متواطئًا إلى جانب شاهد.
يمكنكم أن تتنصلوا. يمكنكم أن تقهقهوا في الفراغ لتستجلبوا ذئاب الريح من أجل أن تلتهم ما تبقى من أشلاء الضحية. يمكنكم أن تواصلوا اللعبة كي لا يتنغص ترف الاغتصاب. يمكنكم أن تستسلموا إلى النوم الفتخم والمفتوح على شهية الدم والرعب.
يمكنكم أيضًا أن تبتسموا لنا على غرار ابتسامات المراقبين الدوليين العارفين بالسز والراضين بوقائعه ومترتباته.
أنا سيرون صزافيان، ألعن القيم التي تؤمنون بها، والأمم التي تنتمون إليها، والعدالة التي تسفحون روحها لضمان الخدعة الكونية غير القابلة للانتهاء.
أنا سيرون صزافيان، أحرس الوديعة القاتلة، لأنقلها إلى وَرَثتي، من أجل أن يجسدوها بأنفسهم على المسرح نفسه، في غير مكانٍ، وفي غير زمانٍ، على أن ينقلوها إلى وَرَثتهم، وهم جيل الأحفاد، جيل الزمن الآتي، والمكان الآتي، بعد كلِّ زمانٍ ومكان.
ولدتُ من جثة. أعيش في جثة. وسأموت في جثة.
بتُ أفهم أخيرًا ما معنى كلمة «ميتة» يا مايريغ. لم أعد خائفة.
وداعًا يا نفسي.

[1]تعني بالأرمنية «ذات الرداء الأحمر».
[2]جثة باللغة الأرمنية.
[3]فراولة باللغة الأرمنية.
[4]أمي باللغة الأرمنية.
[5]حبيبتي باللغة الأرمنية.
[6]أبي باللغة الأرمنية.
[7]بابا نويل باللغة الأرمنية.
[8]أنا عطشان باللغة الأرمنية.
[9]هذه باللغة التركية.

10تعني بالتركية يحتاج إلى شمك.
11لقب فخري كان يُعطى لضابط عسكري أو مدني في الأمبراطورية العثمانية.
12تعني بالأرمنية ما اسمك أيتها الفتاة الجميلة؟
13تعني بالأرمنية أخت.
14تعني بالأرمنية بندورة.
15القديس يعقوب بالأرمنية.
16إمش! بالتركية.
17الوردة الحمراء بالعبرية.
18سنجاب بالأرمنية.
19مرحبا بالأرمنية.
20كيف حالك؟ بالعبرية.
21أحبك بالأرمنية.
22هنا بالأرمنية.
23تعني يجب أن أسرع بالأرمنية.

شيرين

(بيروت، ١٩٧٠ -...)

حفيدة سيرون
والدة جميلة
ابنة ميسان
«تلك التي عيناها توقظان الرعد من كبوته.»

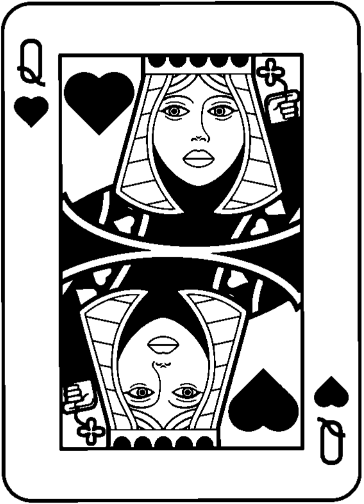

ملكة الكوبة امرأةً غير تقليدية، مغامرة، فضولها أبدي تجاه الحياة. تحتاج إلى التنوع والتغيير، وتخصص وسع الوقت والطاقة لسبر كل الاحتمالات.

متعاطفةً وشهوانيةً. توقعاتها للعثور على الحب المثالي مضخمة. تحكم العاطفةُ قدرها.

«في صباحِ ما بعد موتي
سنجلس في المقاهي
لكنّي لن أكون هناك.
لن أكون.»

إيتل عدنان
(شاعرة لبنانية)

فتح الباب على عجل ثمّ أغلقه وراءه بقوة.

أجفلتْ مبغوتةً.

بسرعة. بسرعة. رمت الكتاب بعيدًا. أخذتْ نفسًا عميقًا. حاولتْ أن ترتّب شعرها الجامح.

دخل. لم ينبس بكلمة. لم يرمقها حتى بنظرة. جلس على الكرسي قبالتها. قبض على ذراعها. جذبها نحوه بقسوة. أجلسها على حضنه. شدّها من شعرها. أطبق بشفتيه على عنقها. ثم عضّ شفتها السفلى.

صرختْ متوجعةً. خرمشتْ ظهره بشراسة. عضّتْ شفته العليا. استنشقتْ عبق رغبته المدوّخة. استقبلته داخلها ببطء، من دون أيّ تمهيدات. أحسّتْ بالذنب. أحسّتْ بالروعة. وتأوّهتْ...

كيف حدث ذلك بهذه السرعة؟ هذا الاستيلاء، هذا «الاجتياح» كما اختبرته. كما عاشته. كيف يعقل ذلك؟ منذ أقلّ من أسبوع، لم يكن له وجود. لم يكن لكلّ هذا وجود. الآن، أصبح هو، كلّ هذا، يحتلّ الحيز بأكمله داخلها وفي ما حولها. كان أسرع استسلامٍ في التاريخ. لم تقاتلْ حتى.

على غرار الكثير من أطفال الحرب، تركتْ مصطلحات الحرب تأثيرها في مفرداتها وفي رؤيتها للعالم: «اجتياح»، «يحتلّ»، «استسلام».

الأهمّ من ذلك كلّه، «تقاتل».

بدأ الأمر يوم 14 آذار من سنة 2005. كانت شيرين تلوّح بالعَلَم اللبناني وتصرخ بملء رئتيها مع الجماهير الغفيرة المتدافعة في وسط مدينة بيروت، عندما شعرتْ فجأةً بلمسةٍ رقيقةٍ، لكن حازمة، ترفع

رباط حمّالة الصدر الذي تراخى على كتفها، وترده إلى مكانه. عندها، حانت منها التفاتةٌ إلى الوراء، فرأته للمرّة الأولى. لم يقل شيئًا. ابتسم فقط، ليتوارى وسط الحشد.

في ذلك المساء نفسه، وبعد انتهاء التظاهرات، قصدتْ إحدى حانات شارع مونو الكثيرة مع مجموعةٍ من أصدقائها لاحتساء مشروب. ويسكي مع الثلج. هذا كان سمّها. «النبيذ للنساء»، هكذا كانت تقول دومًا، عاقدةً حاجبيها بتمرّد. صحيحٌ أنها كانت أنثى على شتّى المستويات – بحسب الأفكار المستهلَكة الشائعة التي تنصّ على ما يُعتبَر وما لا يُعتبَر أنثويًا – لكنّ شيئًا ما في داخلها كان يثور ضدّ الأطياف الأحادية اللون. ويتوق، عوضًا من ذلك، إلى الظلال المتعدّدة الألوان، المتجلّية في صفات الأنوثة والذكورة معًا: هذا، في الواقع، هو الإنسان المثالي في نظرها. تذكر كم شعرتْ بالغبطة عندما أخبرها مرّةً أحد المعالجين الروحانيين البرازيليين، الذي التقته على متن طائرة، بعد أن أمسك يدها لخمس دقائق محرِجة: «لقد عشتِ حيواتٍ عديدة في الماضي، كنتِ فيها رجلًا». ومع أنها لم تكن تصدّق كلّ هذه الترّهات، إلّا أنها أحبّت فكرة أنه دعم، بطريقته الخاصة، الأسطورة التي اخترعتها لنفسها: أسطورة أنها من أولئك الذين يجسّدون ثنائية الذكر والأنثى، كلٌّ في تجلّيه الصحيح الأقوى.

كان جميع مَن في المكان ثمِلًا من نشوة «ثورة الأرز». فقد اجتاحت لبنان موجةٌ هائلةٌ من المطالبة بالتغيير بعد اغتيال رئيس الوزراء سابقًا رفيق الحريري في 14 شباط. «بيكفّي دم! بيكفّي انقسام! منحبّ الحياة وبدنا نعيشها، مش بس نتنفّس!»

وأيضًا وخصوصًا: «سوريا طلعي برّا».

لقد استيقظ الشعب. أخيرًا استيقظ.

هل استيقظ فعلًا؟

هناك، رأته مجدذا، في إحدى الزوايا الخلفية من الحانة إياها، يحدق فيها بإصرارٍ عبر المرآة المواجهة للمشرب حيث كانت تجلس. بمجرد أن التقت عيونهما، وقف وتوجه نحوها. تفنث له هذه الجهوزية، هذا الأسلوب الذي يقوم على اغتنام الفرصة على الفور. كانت تكره الرجال الذين تسفيهم «الزخويات»، أولئك الذين يمضون الأمسية كلها وهم يسترقون النظرات إلى امرأةٍ ثم يتهزبون بجبنٍ، بدل أن يستجمعوا شجاعتهم للقفز في أحضان النار. لم تشعر يومًا بانجذابٍ تجاه مَن يقدم نفسه فريسةً جاهزةً للالتهام. كانت تحتاج إلى صياد مفترس. شخص يمكن أن يكون نذها. وها هو الصياد الند أمام ناظريها، منغمسا في التلذذ بمرحلةِ ما قبل الوليمة. لكنه، هذه المزة، نطق.

لا عبارات جاهزة مثيرة للشفقة. لا تمهيدات عقيمة. لا «ما اسمك؟» ولا «ماذا تعملين».

– أسبق لكِ أن قرأتِ أعمال ساندرا سيسنيروس؟

إذا كان من طريقةٍ واحدةٍ لجذب انتباهها فورًا، فقد وجدها.

– كلا. أيجدر بي أن أفعل؟

– «هي امرأةُ حمّالاتِ الصدرِ السوداء المخرّمة/ امرأةٌ تقدم إليك لحظات انتحار/ في كلّ كاميكاز تسكبه/ على ضوء نيون الأمسية الأزرق».

ألقى أبيات القصيدة بلكنةٍ انكليزيةٍ لا تشوبها شائبة، ومن دون أيّ تكلّف. لم تكن تتحمّل الأشخاص الذين يلقون الشعر بطريقةٍ خطابية، كما لو أنهم موسى يخطب من على قمة جبل سيناء.

– هل بحثتَ في غوغل عن هذه الأبيات؟ أم من عادتك أن تحفظ عن ظَهر قلب قصائد عن حمالات الصدر؟

– تلك التي تتحدّث عن لوني المفضل لحمالات الصدر فقط.

– كم هذا رائع! أخيرًا رجلٌ مهووس باللون عوضًا من الحجم.

ضحك. كانت تستطيع أن ترى اللعاب في ضحكته. ضحكته التي لها أن تروي الصحارى وتحيلها غاباتٍ خضراء غنّاء.

صحارى مثل قلبها تمامًا.

كانت يداه جميلتين أيضًا. الأصابع رشيقةٌ والأظفار نظيفة. هذا أول ما تلاحظه في رجلٍ عادةً. اليدان والأسنان. بدت لها أسنانه ناصعةً، مرصوفةً على أفضل نحوٍ بين شفتين مكتنزتَين. لا على درجةٍ كبيرةٍ من الاكتناز. بل مكتنزتان بما يكفي.

– ما حدث اليوم كان عظيمًا، لكنّ شيئًا لن يتغير. ستكون طريقًا مسدودةً أخرى. آمل أن أكون مخطئًا، لكني لم أعد أؤمن بشعبنا.

راودتْها الفكرة نفسها أيضًا. فقد خيّب اللبنانيون ظنّها، ولا سيما السياسيون منهم، مراتٍ عدة إلى درجةِ أنّ التفاؤل بات ترفًا لم تعد قادرةً عليه. لكنّها حاولتْ أن تحافظ على نظرةٍ إيجابية على الرغم من ذلك كلّه. حاولتْ أن تنظر إلى ما حدث كبدايةٍ جديدةٍ لبلدها الذي نصّبوه شهيدًا. لم يكن لديها أيّ خيارٍ آخر.

بعد ساعةٍ من الحديث الشيّق، تطرّقا فيه إلى خطورة «حزب الله»، والشَعر الذي لن يموت أبدًا، ومدى جاذبية رباط حمّالات الصدر المتراخي، قال فجأةً:

– لديّ انتصاب.

لم يصدمها ذلك ولو قليلًا، ولا حتّى أهانها.

ردّت بكلّ بساطة: «أنا أيضًا لديّ انتصاب».

قال لها مازحًا: «لاحظتُ ذلك. أرى نتوءًا ينتفخ فوق جبينكِ».

لم يخطر له أن يسألها: «وكيف يُعقَل أن تشعري بالانتصاب وأنتِ امرأة؟» لم يفكر في ذلك حتى. بل فهم ما قصدته فورًا: إنّها تُستثار جنسيًا بذكاء الشخص الآخر. بظرُها، وما يتبع، تقع في رأسها. لهذا لم يتمكّن رجالٌ كثيرون من إثارتها. ذات يومٍ قالت لعالِمٍ جنسيٍّ بريطانيٍّ متحذلق، كان يحاول أن يثير إعجابها بمخزونه المعرفي عن

الفيزيولوجيا الأنثوية: «بالنسبة إلي، نقطة التهييج هي المادة الرمادية في الدماغ».

لكن غفر عرف ذلك كلّه عنها بالحدس. زد على أنه كان يقدم إليها إطراءً ذا حذين: فقد كان يمدح نفسه بمقدار ما كان يمدحها. متكبّرًا كان، لكن محتالًا أيضًا. لعلّها تلك كانت اللحظة التي وقعت فيها شيرين في غرامه، بل كانت السبب الرئيس الذي أوقعها في ذلك. بعد ساعتين فقط، كانت مستلقيةً في سريرٍ فوضوي، في غرفة نوم فوضوية، في شقته الفوضوية في الحمرا. تذكر كيف عبست صديقتها المقرّبة نينا، وعلامات الاستنكار تعلو وجهها، عندما أخبرتها شيرين أنها ستغادر الحانة برفقته.

كان اسم نينا الحقيقي هو نظلة. سُمّيت كذلك تيمّنًا بجدتها لأبيها، لكنها كانت تبغض كلّ البغض هذا الاسم العتيق الطراز. وكلما تذمّرتْ من اسمها غير العصري كانت شيرين تقول لها بسلاطةٍ: «لا أعتقد أنه كان عصريًا في أحد الأيام. ولا حتى في زمن ما قبل الميلاد».

كانت المدرسة الابتدائية عذابًا مستمرًا بالنسبة إلى الفتاة الصغيرة، فقد كانت السخرية منها زاد الأولاد اليومي. نظلة الهبلة. نظلة البصلة. نظلة طالعة. لم يتوقف سيل الألقاب المشينة. جميع رفاقها في الصف كانوا يضايقونها ما عدا واحدة: شيرين. لحسن حظّ نظلة، كانت شيرين الفتاة التي لا يجرؤ أحدٌ على إزعاجها. بدءًا من الصف الرابع، شملتْها شيرين بعين الرعاية، وأصبحتا لا تفترقان منذ ذلك الحين.

في اليوم الأوّل من المرحلة المتوسطة، قررت نظلة أن تصبح نينا. قبل بضعة أسابيع، كان والدها قد أهدى إلى والدتها قارورةً من العطر لمناسبة عيد ميلادها. كان عطر «لير دو تان» من نينا ريتشي، وقد عشقت ابنة العشر سنين كلًا من الرائحة الزكية ووقع الاسم عليها. فما كان من شيرين إلّا أن غيّرتْ اسمها بدورها إلى نانا، تضامنًا مع

صديقتها. كانت نينا ونانا وحدةً واحدةً لا تتجزأ. الأولى فتاةٌ هادئة تقليديةٌ، والثانية مجنونةٌ ثائرة. هاتان الشخصيتان غالبًا ما تنجحان في بناء صداقةٍ متينة ودائمة.

– نانا! لقد التقيت بالرجل لتوك! سيعتقد الآن أنك امرأة سهلة!

تنهدتْ شيرين تنهيدة انزعاج. لم تفهم ولم تخضع يومًا لذلك المنطق الذكوري الذي يصنف النساء في فئتين: «السهلة» و«الصعبة المنال». بالنسبة إليها، كانت ترى الأمور من منظورٍ مختلف: الرجل إمّا يعجبها أو لا. لم يكن لديها صبرٌ على الإطلاق للألاعيب. فإذا شعر الرجل بأنه في حاجة إلى «التوسل إليها» كي يحظى برفقتها، فهذا يعني أنه لا يندرج ضمن نوعها المفضل، و«ليذهب إلى الجحيم». هكذا، بكلّ بساطة.

– بالنسبة إلي، هو السهل. فأنا أعتبر نفسي المتصيّدة يا نينا. أنسيتِ؟

– ولكن، ماذا عن فؤاد؟

غادرتْ شيرين. الوقت والمكان، لم يكونا مناسبين لسؤالٍ كهذا.

كلّما تعمّقتْ معرفتها بغفر في الأيام التالية، انتابها شعورٌ متدفّقٌ بالشغف. ليس هذا فحسب، بل بالإعجاب أيضًا. هي كانت من النساء المغامِرات والمتطرّفات، المستعدات في أيّ لحظة الى ممارسة الهاراكيري العاطفية. سريعةً في استخدامها كلمة «حب». سريعة جدًا. ربما لأنّ الحب كان يرعبها حتى الصميم، ما جعلها تستهلك الكلمة لتخفّف من وقعها الخطير.

كان «الحبّ» يسبق «الإعجاب» بالنسبة إلى شيرين. فلطالما جاء الارتجاج الفكريّ والجسديّ أوّلًا، والتقييم المعنويّ ثانيًا. الإنسان العاقل والشهوانيّ ثمّ الأخلاقي. كانت تعلم أنّ المرء يمكنه أن ينجذب إلى عقل شخصٍ وجسده، ليكتشف لاحقًا أنه مجزد وغدٍ على المستوى الإنسانيّ. الأذكياء ليسوا في الضرورة أشخاصًا لطفاء أو صادقين.

الفطنة تعزّز الخداع. فمن يتحلّى بالذكاء والخُلق في آنٍ واحد يستحقّ ميداليةً في هذا العالم الماكيافيلي. على الأقلّ، هذا ما كانت تعتقده.

أُعجبتْ شيرين بغفر لأسبابٍ عدّة. فهو لم يكن رجلًا ذكيًا وطيب السريرة، مزدانًا بشخصيةٍ قويّة ومواقفَ غير قابلةٍ للمساومة وحسب (وهو أفضل مزيجٍ في رأيها)، بل كان أيضًا من أنصار مذهب اللذّة، جامحًا، يكره الكلمات والأفعال والعواطف المعسولة في السرير. بالنسبة إليه، طريق اللذّة مرصوفٌ بهمجيةٍ مطلقة العنان، لا بالرومانسيّة العذبة. موسيقاه أقرب الى «كرنفال الحيوانات» لكاميل سان سانس، منها الى «نوكتورنو» شوبان. إلى ذلك كلّه، كان يملك القدر المناسب من التهكّم: لا يزيد على حدّه بما يجعله ثقيلًا، ولا ينقص بما يجعله ساذجًا. توسّط البراءة والانحطاط. ذلك المزيج الرائع من الصبي المحبب والشيطان المسعور.

كان عليها أن تُقِرّ بأنها أعجبتْ به لاسمه أيضًا، وللديانة التي تترافق مع اسمٍ كهذا. فعلى رغم كلّ الحديث الدائر عن التعايش المزعوم، لا تزال العلاقات الغرامية بين امرأةٍ مسيحيّة ورجلٍ مسلم، أو العكس، موضوعًا غير متداول على نطاقٍ واسعٍ في لبنان (هل يمكن أن تتغير هذه الحال يومًا؟ برغم بعض الخروق هنا وهناك، لا تزال أقلّ من أن تشكّل تقدمًا ملموسًا). كانت شيرين تحبّ أن تنتهك المحظورات، وخصوصًا من طريق المصادفة. نادرًا ما أقدمتْ على الاستفزاز عمدًا. مع ذلك، كلّما تحدّت النظام المفروض، من غير قصد، لا لشيءٍ إلّا لأنها كانت تتصرّف على طبيعتها ووفق الحياة التي اختارتها، كانت تشعر بغبطةٍ عظيمة. لكأنها نالت مكافأةً لم تحسب لها حسابًا، وراكمتْ قيمةً إضافيةً لأنّها صادقةٌ مع نفسها.

هو، من جهته، لم يكن يبالي بالدين البتّة. مثلها تمامًا. «لا أحبّ أن أهدر وقتي على الفرضيّات. كما أنّي من العفويّة بمحلّ يمنعني من

الالتزام بنصّ مكتوب».

اكتشفت أيضًا أنّ غمر لم يجرب كلّ شيء في الحياة. في جعبته الكثير من المرات الأولى التي لا يزال ينتظر اختبارها. وهو أمرٌ مدهش لشخص في منتصف الأربعينات. أعجبها هذا فيه أيضًا. فهي لم تحبّ يومًا أن تكون مجرّد نسخةٍ مكرّرة عن شخصٍ سابق. أو عن شيءٍ سابق. أو أن تكون في أفضل الأحوال عرضًا أوّل بعد سلسلة من البروفات. ظاهرة «ديجا-فو» جنسية وعاطفية. لم يكن من مفرّ لهذا طبعًا، لكنها لطالما فضّلت رجلًا يقول لها، بعد أن يقوما بشيءٍ ما معًا، جملةً من نوع: «هذه هي المرّة الأولى التي أفعل فيها أمرًا كهذا». من المثير للعجب أنّ عشيقها، ابن الخامسة والأربعين، كان قادرًا على أن يوفّر لها هذا. وأكثر بكثير.

مع ذلك، لم تكن جميع هذه «التجارب الأولى» تروق لها. ففي ليلتهما الأولى معًا، بعد جولاتٍ جنسيةٍ محمومةٍ بالرغبة، طغى عليها الصمت ما خلا بعض الكلمات الفاحشة بين الحين والآخر. قال لها: «أنتِ أوّل صهباء في سريري»، فشعرت أنها تريد أن توجّه إليه صفعةً قاسيةً على خدّه. أشعرتها نبرتُهُ بأنها مجرّد محطةٍ إضافيةٍ في لائحةٍ من الغرائب الجنسية التي أراد تحقيقها في حياته. وضع علامة إلى جانب: صهباء، والآن هدفه التالي هو مثلًا: امرأة من دون سرّة.

لكنها كبتت كبرياءها وردّت بهدوء:

– وأنت تجربتي الحادية عشرة في الخيانة.

أفلتت منه ضحكةٌ كانت من العلوّ ما جعلها تنأى عن الصدق. ابتسمت في داخلها وقد أيقنت أنها نجحت في استفزازه هي أيضًا. فمهما كان الرجل تقدّميًا، يكره دومًا ألّا يكون في مقدّمة السباق. المنافسة تجري في دم الذكور. يجب أن يتقدّموا على غيرهم. يجب أن يفوزوا. وخصوصًا عندما تكون الجائزة هي جسد امرأة. فقد تربّى الرجل، منذ قرون، وغالبًا على يد المرأة نفسها، على النظر إلى جسد

المرأة كجائزة. إنها غريزةٌ قد لا تتمكّن الحركة النسوية من اقتلاعها من جذورها نهائيًا. فمهما تطوّرت القوانين، ومهما بلغ مستوى التقدم في مجتمعٍ معين، سيبقى هناك دومًا رجلُ كهفٍ داخل العديد من الرجال المؤدَّبين الذين يرتدون البزّات الأنيقة؛ رجلٌ يخبط بقبضتَيه على صدره ويعوي: «فعلتها! فعلتها!»، قبل أن يجزّ الأنثى وراءه من شَعرها.

السرّ، في هذا القرن الحادي والعشرين، يكمن في مدى قدرة الرجل على دفن إنسان الكهف عميقًا في ذاته، أو في مدى تمكُّن المرأة من ترويضه.

يعتبر الرجال أنّ الخيانة الزوجيّة الأولى لامرأة لا تقلّ أهميةً عن أوّل علاقةٍ جنسيةٍ لعذراء. لا بل تفوقها أهميةً أيضًا. فمن الأصعب تخطّي العقبات الأخلاقيّة والشعور بالذنب في الحالة الأولى. كيف لا وهي، في كلِّ حال، إحدى الخطايا «الرسميّة» – لا تزنِ – التي تترافق مع تدمير طرفٍ ثالث، في حين أنّ العذرية تميل إلى أن تكون تركيبةً بطريركيّة اجتماعية. لذا، يكون التحدّي الأوّل أعظم شأنًا. لكن ما إن يتمّ اتّخاذ تلك الخطوة، حتّى يصبح الأمر أسهل بكثيرٍ بالنسبة إلى الرجل، وأشبه بالإدمان بالنسبة إلى المرأة. مثل منحدرٍ زلِق. مثل الشوكولاتة.

كانت شيرين تعرف ذلك كلّه جيدًا. لكنها كذبت عليه: فمع عُمَر، كانت قد قطعتْ بأشواطٍ لوحَ الشوكولا الحادي عشر.

– إذًا، أنتِ إحدى هؤلاء النساء اللواتي يعددن رجالهنّ؟ قولي لي، ألديكِ مذكّراتٌ سرّيّةٌ تخطّين فيها أسماءهم، وترسمين حولها أزهارًا وقلوبًا صغيرة؟

– كلا، ولكنْ لديّ مذكّراتٌ سرّيّةٌ تتضمّن مقاس قضيب كلٍّ منهم.

كان الحوار أشبه بمبارزةٍ بالسيف بينهما، تلذّذتْ بكلِّ حركةٍ فيها. فلطالما أرادت أن تتعلّم أصول المبارزة، لكنها في نهاية الأمر أتقنت

المبارزة بالكلمات عوضًا من السيوف. ففي كلّ حال، نصال اللغة أشدّ بترًا من أيّ شفرة.

عندما عبس غفر لبرهة، قالت في نفسها: «نلتُ منه!»

ثمّ انفجر ضاحكًا: «تعرفين لا محالة أنّ الصهباوات اتُّهمن بالسحر. لا أدري إن كان هذا ما دفعني إلى اختيارك: لا شكّ في أنّكِ سحرتني».

– أوّلًا، أنا التي اخترتك. ثانيًا، لا أمانع أن أعدَم حرقًا، فما الذي تنتظره؟

قرأتْ مرّةً أنّ الصهباوات هنّ سليلات الفايكنغ. أجرتْ بعض الأبحاث واكتشفتْ أنّ المحاربين الفايكنغ وصلوا فعلًا إلى تركيا، قرابة القرن العاشر. ويُزعم حتّى أنّهم وصلوا إلى القسطنطينية (إسطنبول) على متن ألفي سفينة، غير أنّهم لم ينجحوا في الاستيلاء على المدينة قطّ. لكنّهم نجحوا في التسلّل إليها وإلى جوارها متنكّرين كتجّار، وخلّفوا حتّى علاماتٍ خفيّة، على جدران آيا صوفيا، لا تزال هناك حتّى يومنا هذا. فهل خلّف أحد محاربيهم علامةً في فرج إحدى جدّاتها؟ أهذا هو مصدر شعرها الأحمر المتموّج الذي ورثته عن جدّتها لأمّها؟ شعرُ أمّها كان أسوَد مائلًا إلى الزرقة، وأملس كستارةٍ حريريّة.

في ليلتهما الرابعة معًا، طلب منها أن تخلع خاتم زواجها كلّما كانت معه. فعلّقتْ وهي تقصد أن تغيظه: «أنبأني حدسي بأنّ رجلًا عتيق الطراز يختبئ خلف قشرة التهكّم هذه». لكنّ سخريتها هذه لم تؤثّر فيه. فقد كان من الثقة بالنفس ما حال دون إصابته بالخزي. اكتفى فقط بإمساك يدها وخلع الخاتم بنفسه، ثمّ وضعه على المنضدة بجانب السرير بكلّ هدوء.

أيُعقل أنّه يقع في غرامها؟ والأهمّ من ذلك، أيُعقل أنّها تقع في غرامه؟ تركتْ نفسها تنزلق إلى هوّة تلك الفكرة لبرهةٍ، ثمّ ما لبثت أن صرفتها من ذهنها تاركةً قبلاته تحملها إلى مكانٍ آخر. أخذت تلوم نفسها: «لا يا شيرين!»

كانت تعتقد أنها محصنةٌ ضد الغرام. لكنها، في الحقيقة، لطالما تمنته بشدةٍ في لاوعيها، في أحيانٍ كثيرة، ومن دون جدوى، إلى درجةٍ أنها لم تعد تجرؤ على توقعه في سن الخامسة والثلاثين.

بيروت – الأحد 12 حزيران 2005

في البدء، كان الإدراك.

ذلك الإدراك المؤلم أن زواج والدي لم يكن زواجًا سعيدًا على الإطلاق، بل على العكس. كان حربًا نفسيةً وحشيةً، لا تتوقف رحاها، دمّرت البيت الأسري طوبةً تلو الأخرى. أيقنتُ ذلك منذ البداية، لا بسبب أدلةٍ ملموسة، بل كان الأمر أشبه بحدسٍ، بشعورٍ حارقٍ في داخلي بقي ينبئني بأن الأمور ليست على ما يرام.

في البدء، كان الإدراك (أن أحدهما لا يحب الآخر)، فالإنكار (أنهما سيعملان على إنجاح العلاقة)، ثم الرضوخ للأمر الواقع (لن يتغير الوضع)، يليه الاتهام (كلّ الذنب ذنبه أو ذنبها). في النهاية، جاءت أكثر المراحل تدميرًا: عملية تحصين الذات. تغلغلت في اللاوعي. في مكانٍ ما من جوفي. قاسيةً كانت: أنبأتني بأن الحب الحقيقي، الحب الدائم ما هو إلا وهمٌ. وبأن الزواج قرارٌ سيئ. وبأنه من غير المقدّر أن يعيش شخصان معًا الحياة بأسرها. لذا، لا بدّ من خطةٍ احتياطيةٍ أولى. وثانية. وثالثة... إلخ.

استطعتُ دائمًا أن أدير ظهري، إلى أن كانت الأشهر الثلاثة الماضية. أقول «استطعت»، مع أن العبارة الصحيحة هي: «لم أستطع إلا أن أدير ظهري». فالهلع من التعرض للهجر كان أقوى من أي روابط محتملة، ومن كلّ المنافع التي قد ترافقها. هذا القلب الذي كنت لا أنفك أحاول توسيعه، كان، في الحقيقة، دائم التردد، والارتعاش، والجزع أمام أيّ علامةٍ من علامات الخطر. حرصتُ على إخفاء ضعفي جيدًا، حتى عن نفسي. أفرطتُ في قول «أحبك» حتى جزذتُ الكلمة من أي معنى. أقنعتُ نفسي بأنّ «هذه» هي الحزنة؛ أي ذلك العجز عن

التواصل، عن الالتزام، والتوق، والشوق، والشعور بفرح شديد. بالنسبة إلي، كان للاستعباد مترادفاتٌ محددة: التعلّق؛ التورط؛ الاتّصال؛ الألفة؛ الإخلاص؛ الغيرة؛ الاتّحاد؛ الانصهار؛ التملك؛ الحميمية؛ التوقّعات. باختصار، أي شعور مرتبط، وإن من بعيد، بعلاقة حبٍ حقيقية. وكان لا بد لي من تجنب ذلك بأيّ ثمن... فإذا أقدمتُ على الخيانة، اعتبرتُ ذلك دليلًا على حرّيتي. وإذا رحلتُ، أو قطعتُ الاتّصال، أو أدرتُ ظهري، فهذا يعني يقينًا اني روحٌ متحررةٌ لا تقبل الترويض.

لكنّي أعرف الآن أنّي كنتُ مرعوبةً لا أكثر.

غريبٌ كم من حجابٍ نرتدي لنخفي به الحقيقة. لكن أخيرًا، عندما ظهر الحب الحقيقي في حياتي، ذلك الحب الكاسح، الطاغي، الذي لا مفر منه، سمحتُ لموجة التسونامي هذه بأن تكتسحني، وتجرفني، وتمتصّني في جوفها، وتقلبني رأسًا على عقب. شعرتُ كأنّي داخل غسالةٍ تدور بأقصى درجة: غسيل، حرارة، خض، تصريف، دوران، لف، ثني، عصر...

يجب أن أعود إلى حلب في الغد. لقد غبتُ لفترةٍ طويلة. ابتعدتُ عن الأولاد وعن المحلّ. لكنّ اغتيال سمير قصير قبل عشرة أيام، وموجة التظاهرات الجديدة التي تلت ذلك، حالت دون مغادرتي. سمير الشجاع، الذكي، غير المتهاون... ها حلمٌ لبنانيٌ آخر قد مات. كلّا، لم يمت. بل قُتل. هي إحدى جرائم نظام سوريا الأسد التي لم تعد تُحصى في لبنان، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

بدا لي كلّ شيء سورياليًا وعبثيًا: أن أتظاهر ضدّ النظام الأمني السوري في بيروت، في حين أنّي متزوجةٌ من رجلٍ سوريّ ينتظرني في حلب. ولكن، أليست هذه حال الدنيا؟ سوريالية وعبثية تمامًا؟

لعلّي لم أكن فقط أتظاهر ضدّ وجود جيش النظام السوري في لبنان.

لعلّي كنت أيضًا أتظاهر ضدّ وجود زوجي السوري في حياتي.

في خضم ذلك كلّه، وقع الانفجار العظيم في حياتي.

ظهر عمر.

وُلدتْ شيرين برصوم في يومٍ حارٍ من شهر ايلول من العام 1970. أراد والدها لوقا أن يسمّيها «شابريتا»، أي جميلة بلغته الأشوريّة الأمّ. لكنّ أمّها ميسان رفضتْ ذلك رفضًا قاطعًا: «أيّ نوعٍ من الأسماء هو هذا؟ ستكون محطّ سخرية الأطفال». حاول لوقا جاهدًا أن يقنعها بالأمر قائلًا: «لكنّ اسم شابريتا يشبه ريتا كثيرًا!» كان يعرف أنّها تحبّ قصيدةً شهيرةً لمحمود درويش بعنوان «ريتا والبندقية»، وهو الذي عزفها إليها بنفسه قبل سنتين في إحدى رسائله الغراميّة العديدة التي كان يبعث بها. لكنّها لم ترضخ. كانت ميسان امرأةً قويةً، لا يجرؤ أيّ رجلٍ على الجدال معها، وخصوصًا خلال فترة الحمل الحافلة بالهرمونات. فاقترح عليها عندئذٍ اسم «يالدا»، وهو اسمٌ أشوريٌ آخر. لكنّها اعترضتْ قائلةً: «هل تتعمّد إثارة غضبي؟». كان اسم يالدا شديد الشبه بـ«يلدز»، وهو اسمٌ تركيٌ شهير. وقد دأب اللبنانيون على استخدام عبارة «متل قصر يلدز»، للإشارة إلى منزلٍ ينعم بحياة الترف. تابعتْ: «لن يحمل أيٌ من أولادي اسمًا ذا وقعٍ تركي». قالت بحزم: «سنسمّيها شيرين»، معلنةً نهاية النقاش.

عندئذٍ، طالب لوقا بحقّ اختيار الاسم الذي يريده لطفلهما الثاني، فوافقتْ ميسان من دون تردّد. لم يكن يعرف أنّها قرّرتْ، بالنيابة عن كليهما، أنّهما سيحظيان بطفلةٍ واحدةٍ فقط.

وُلد لوقا برصوم، والد شيرين، في الأشرفيّة عام 1943، لأبوَين من ماردين كانا وصلا إلى بيروت في العقد الثاني من القرن العشرين هربًا من اضطهاد العثمانيين. ولطالما افتخر بأنّه وُلد في 22 تشرين الثاني من ذلك العام، يوم نال لبنان استقلاله. فتغيظه أمّه قائلةً: «كفّ عن التبجّح بهذا الأمر! فلستَ أنتَ مَن اختار هذا التاريخ!» نال والداه اللذان لم يولدا في لبنان، كحاله هو، الهويّة اللبنانيّة، لكن بعده بسنوات. ففي البداية، لم يكن اللاجئون الأشوريّون والمسيحيّون الآخرون يملكون الجنسيّة اللبنانيّة. لكن في العام 1958، طرح رئيس

الجمهورية آنذاك، كميل شمعون، مرسومًا يمنح أفراد الأقلّيات الجنسية اللبنانية إذا استوفوا شرط الإقامة لعشر سنين على الأراضي اللبنانية. ولمّا كانت هذه حال والدَي لوقا، قدّما طلبًا للحصول على الجنسية، فنالاها بعد وقتٍ وجيز.

أمّا والدة شيرين، ميسان بركات، فوُلدت في دير ياسين، فلسطين، عام 1946. وعندما بدأ اعتداء اليهود على الفلسطينيين عام 1948، غادر والداها فلسطين نحو لبنان. استقرّا أوّلًا في مروحين عند الحدود، ثمّ في بيروت. عام 1961، انتقل والدا لوقا إلى شقّة تعلو بثلاثة طوابق الشقّة التي عاشت فيها ميسان، وشقيقتها نجاة، ووالداهما في برج حمّود. كانت الأسرة الأشورية تملك مصبغة في الطابق الأرضي من المبنى، لكنّ الرحلة اليومية من الأشرفية أرهقت والد لوقا الذي بات يعاني من مشاكلَ صحيّةٍ في السنوات الثلاث الأخيرة فانتقلت العائلة للسكن في برج حمود. كانت ميسان قد أتمّت عامها الخامس عشر للتوّ، فوُلدتْ قصّة حبٍّ متّقدة بينها وبين لوقا، ابن الثامنة عشرة.

في 13 نيسان 1975، شهدتْ ميسان ولوقا وابنتهما شيرين على بداية حربٍ من أبشع الأنواع. لم تنشب بين الأتراك والأرمن، ولا بين اليهود والفلسطينيين، بل لم تكن بين عدوَّين لدودَين يمكن تفهّم خلافهما، وإن كان مستهجَنًا.

هذه المرّة، وقعت الحرب بين الأخوة. قابيل المسيحي وهابيل المسلم. قابيل المسلم وهابيل المسيحي.

كلاهما لبنانيّ. كلاهما مستعدٌّ لحفلةٍ ماجنةٍ من حمّامات الدم. كلاهما مستمتعٌ بالتهليل والتصفيق أمام متفرّجين من قوىً خارجية.

بيروت – الاثنين 19 كانون الثاني 1976

عشنا نهارًا وليلًا طويلَين في الملجأ أمس، تحت المبنى حيث تقيم عفتي منى وعفو نعوم. لم يكن ملجأ بالمعنى الفعليّ للكلمة، بل كان

مخزنًا واسعًا ورطبًا يقع في طابق ما دون الأرض، حيث الفئران والصراصير تلعب معنا لعبة الغميضة. في الواقع، كانت موجودةً بهذه الكثرة بسبب فرنٍ في الطابق الأرضي من المبنى، يعتمد معاييرَ متدنية جدًا من النظافة.

كنت أسرع الخطى في كل مرة أقصد فيها عمتي، لأني أضطر إلى المرور أمام باب الفرن الخلفي، المفتوح دومًا، والكاشف عن رجلٍ فسلٍ قبيح لم يفوت فرصةً إلا وفتح فيها سحاب سرواله كلما صادفني من دون أمي. كنت أغمض عينيّ سريعًا لأحجب عني المنظر، لكن دومًا بعد فوات الأوان. كان يعجن بالأصابع العارية نفسها التي يمسك بها عضوه. في المناسبات الخاصة، كان والداي يشتريان لي قطعة حلوى من ذلك الفرن. وكنت آكلها. فتناوُل قطعة «إيكلير» كان ترفًا نادرًا، جاذبيته أقوى من أيّ شعورٍ بالقرف.

ذات يومٍ، أخبرتُ أمي بما كان يفعله، فانتابتها موجةٌ من الغضب العارم.

– هل لمسكِ هذا الوغد يومًا؟

– كلا يا ماما، أراني عضوه فقط.

توجهت نحو الفرن فورًا، مقتحمةً المطبخ، وأخذتْ تصفعه وتلكمه وتبزحه ضربًا. أرادت أن تتصل بالشرطة، لكن ابن أخيه، صاحب الفرن، رجاها ألا تفعل، ووعدها بأن يعالجه من علته ويبقيه تحت المراقبة. كانت هذه آخر مرةٍ نراه فيها.

بينما كانت أمي تضرب الرجل، بقيت تصرخ: «خذ هذا، أمين». ولم أفهم السبب. فالرجل كان يُدعى كيفورك وليس أمينًا. لكننا نقول أمين أيضًا في نهاية صلواتنا. لعلها كانت تصلّي بينما كان تُشبعه ضربًا!

قبل بضعة أيام، كان بعض المخبرين قد حذرونا من إمكان حصول تصعيدٍ في أعمال القتال بين الكتائب والفلسطينيين، وخصوصًا في منطقة الكرنتينا القريبة من حينا. فتمكنا من الاستعداد جيدًا. كان المستودع، على قذارته، أكثر أمانًا من شقتنا الواقعة في الطابق

الخامس، في مبنىً مقابل لمبنى عمتي، من دون أيّ ملجأ تحت الأرض. وكان مريحًا أكثر من السلالم التي ننام عليها كلما ارتفعت حدّة الاشتباكات على مقربة منا. وضبّت أمي بعض الأغراض، مع جزدانها الجلدي الأسود الصغير، ذلك الذي كانت تخبئه دومًا في خزانتي. «أياك أن تقولي لأبيك عنه. هذا لك، في حال أصابني أيّ مكروه». ووضبْتُ أنا بدوري كنوزي: «مارتين في حديقة الحيوانات»، وهو آخر كتاب اشتراه لي أبي، عددين من مجلة «بوردا» كنتُ أخذتهما من المجموعة التي تحتفظ بها أمي. سألتني أمي بحيرة: «ما حاجتك إليهما؟»

– أحب أن أتفرج على الصور!

– حسنٌ. ولكن إياك وتمزيق أيّ صفحةٍ. أحبها أن تبقى مرتبة.

تحب أمي أن يبقى كلّ شيءٍ مرتبًا. في بعض الأحيان، أشعر بأنها تفضّل لو أكون تمثالًا: «لا تمشي هنا! لا تلمسي هذا!» كانت تمسح أرض المنزل كلّ ساعتين، وتستطيع رؤية أشياء لا يمكن لأيّ شخص آخر أن يراها. كآثار الخطوات على البلاط، أو الأصابع على الجدران، وحتى الغبار المختبئ تحت الغبار. كانت جدتي تشبهها أيضًا، لكنها كانت تسمح لي بأن ألمس كلَ ما أريده، وأن أتصرف كما يحلو لي.

وكانت، كلّما غسلتُ يديّ ولم أجففهما بسرعة، تقول لأمي: «دعيها وشأنها. لا بأس». لكنّ أمي كانت تهرع لتمسح قطرات الماء المتساقطة من أصابعي على الأرض، ثم تجفف يديّ وهي تضغط عليهما بشدةٍ، إلى درجةٍ أنّي أشعر أحيانًا بأنها تريد أن تكسرهما.

عندما استيقظتُ وخرجتُ من الملجأ ذلك الصباح، تعثرتُ بشيءٍ ما بينما كنتُ أعبر الشارع خلف أمي، وكدتُ أقع. في بداية الأمر، لم ألاحظ ما الذي تعثرتُ به. لكن عندما انحنيتُ لألتقط كتابي والمجلّتين، أمعنتُ النظر فأدركتُ أنها ذراع رجل. ذراعٌ كاملة من دون بقية الجسد. لاحظتُ دماءً جافةً في المكان الذي كان ينبغي أن تكون الذراع متصلةً بالكتف فيه. كانت كتلٌ من اللحم تتدلّى إلى الخارج. وكانت إصبعٌ واحدة تنقص من اليد، الخنصر، تلك التي نستخدمها لنخاصم الآخرين

«سنغف سنغف». عرفت أنها ذراع رجلٍ عندما رأيتها مكسوةً بكمية هائلةٍ من الشعر.

لاحظت الساعة فورًا. استغربت أنها لم تتضرر، لا بل بدت جديدةً تمامًا. كانت ساعة «كاسيو» فضيةً بأرقام، عوضًا من الساعة التقليدية ذات العقارب، كالتي يملكها أبي. أبي حصل على ساعته في العام الماضي من أحد زبائنه الأثرياء. كان فخورًا بها جدًا، وعلّمني كيف أعدّ حتى الاثني عشر، وأميز بين الأرقام كي أتمكن من معرفة الوقت.

أحببت الساعة جدًا، فانحنيت فوقها وأخذتها. أخذتها برفق، وقلت شكرًا قبل أن أسرع الخطى لألحق بأمي.

في ما بعد، سألتني: «من أين حصلت عليها؟»

– لقد وجدتها.

لم أرد أن تضربني، فكذبت. لم تكن كذبةً، في كل حال. فقد وجدتها فعلًا.

هل ذراع الرجل حزينةٌ؟ هل سيلتقطها أحدهم ويعلّقها بكتفه من جديد؟

اعتادت شيرين الشجار بين والديها. كانت الحرب التي شهدت عليها داخل البيت لا تقلّ خبثًا وعنفًا عن تلك الدائرة خارجه. مَن كان ليدري أن قصة حبٍ عاصفةٍ كالتي جمعتهما (ثماني سنوات من الغزل والشوق المتبادل، كما قال لها والدها) يمكن أن تستحيل جحيمًا كهذه؟ صحيح أنها اعتادت ذلك الواقع، لكنها شعرت بأنها باتت عفنةً من الداخل، كثمرة فاكهةٍ تأكلتها الديدان. لم تكن تطيق الصراخ المستمر (من جانب والدتها)، ولا العبوس الدائم (من جانب والدها)، ولا اللوم المتبادل. ولا حتى الصمت الحافل بالعدائية الذي كان يخيم على المنزل لأيامٍ، بل لأسابيع أحيانًا، عندما تمسي هي مجزد مرسالٍ بين الاثنين. المال. كان المال هو السبب في معظم الوقت. سمعت جدتها تقول مرةً: «البرد والفقر هما سبب كل المشاكل».

في بادئ الأمر، خالت شيرين أنها حال كلّ علاقةٍ زوجية. إلى أن زارت منزل نينا للمرة الأولى، ولمست إلى أيّ مدى لا يزال الحبّ مشتعلًا بين والدَي صديقتها بعد ثلاثة عشر عامًا من الحياة المشتركة. شعرت بصدمةٍ فعلية. لكنها تمكّنت من امتصاص الصدمة بسرعة، ثم التغلّب عليها، وتسويغها. قالت لنينا: «لا بدّ من أنهما الاستثناء الذي يثبت القاعدة. الزواج يقتل الحبّ. والسبب هو إمّا الروتين القاتل، أو الجوارب القذرة المرمية على الأرض، أو فواتير المنزل، أو أقساط الأطفال المدرسية، أو الأحقاد البسيطة التي تتراكم تدريجًا حتى تصبح جبالًا شاهقة». نتيجة هذا التشكيك في العلاقات، باتت شيرين إنسانةً عملية جدًا، في حين أصبحت نينا مغاليةً في رومانسيّتها. ومن المقدّر لكلتيهما أن تدفرهما الصفتان، العمليّة والرومانسيّة، على نحوٍ متشابه.

العلاقات لا تتحمّل أحكامًا مبدئية. لا تفاؤل، لا تشاؤم. ما عليكِ إلّا أن تغمضي عينيكِ وتقفزي.

كانت أمّها تقول لها بمرارة: «الزواج كالبطّيخة. لا يمكنكِ أن تعرفي هل سيكون سعيدًا إلّا عندما تفتحينها، وعندها يكون الأوان قد فات». وقد اتّضح أن زواج والدَيها كان بطّيخةً سيّئة. تذكر جيّدًا أحد أوّل فصول شجارهما؛ كانت في السادسة من عمرها، وكان يومًا صيفيًا حارًا يتناولون فيه الغداء في منزل جدّتها. لم يكن جدّها باسم في البيت، بل في مقهى مجاورٍ يلعب لعبة الطاولة كعادته نهارَ كلّ أحد.

كانوا يتحدّثون عن رجلٍ، مقاتلٍ في إحدى الميليشيات، يُدعى بشير الجميل، معارضٍ للسوريّين. كانت والدتها تمقته بقدر ما كان والدها يحبّه، فالأشوريّون كانوا من أوائل مَن انخرطوا في الميليشيات المسيحية، وكان للوقا العديد من الأقارب والأصدقاء المنتمين إلى الكتائب. في الواقع، كان ليلتحق بدوره بهذا الحزب، لولا اعتراض ميسان العنيف. فضلًا عن ذلك، كان لوقا يكره السوريّين بكلّ ما أوتي

من قوة. فقد كان مقتنعًا بأن الرئيس السوري حافظ الأسد يتحجج «بالتدخل لإنهاء الحرب»، لا لشيء إلّا لاحتلال لبنان. كيف لا، والمسؤولون السوريون كرّروا مرارًا أنّ لبنان جزء من سوريا، وأنّ الجيش السوري لا يحتاج إلى إذنٍ من أحد للدخول إلى الأراضي اللبنانية. ذلك كلّه، ملأ لوقا حنقًا.

في ذلك اليوم، ما بدأ كجدالٍ بين الاثنين تحوّل إلى قتالٍ بكلّ ما للكلمة من معنى. فأخذت الشتائم والاتّهامات تنهال من كلا طرفَي مائدة الغداء، كطلقات الرصاص.

– كلّ مشاكلنا من الفلسطينيين في كلّ حال. لقد اندلعت الحرب بسببكم.

– غير صحيح. اندلعت الحرب لأنّ اللبنانيين أوغاد عنصريون طائفيون متعجرفون وأنانيون.

كانت شيرين تتضرّع سرًّا: «أرجوكِ، كفّي عن الصراخ يا ماما!». سدّت أذنيها، وكذلك فعلت خالتها نجاة. أمّا سيرون التي كانت تُعدّ القهوة عندما بدأ الشجار، ولم تكن تُعِرْهما اهتمامًا في بادئ الأمر، فحاولت جهدها أن تهدّئ من روعهما.

– توقّفا Hadjiss[1]! كفّا عن ذلك!

ثمّ التفتت نحو ميسان قائلةً: «صدّقيني، aghjikes. الفلسطينيون ليسوا بملائكة[2]. إلى ذلك، ينبغي أن تكونا أكثر ذكاءً من أن تتشاجرا بسبب أحد أسياد الحرب... ذكّراني ما اسمه؟»

أجابت ميسان بنبرةٍ ملؤها الحقد: «بشير».

فرد لوقا، وهو يشدّد على لقب الزعيم الفخري: «الشيخ بشير».

فجأةً، سقطت الصينية التي كانت سيرون تحملها، فتحطّمت فناجين القهوة الأربعة كلّها. أجفلت نجاة، وتوقّف الزوجان عن الصراخ في الحال.

سارعت إلى طمأنتهم: «لم يحدث شيء. لا تقلقوا. كلّ ما في الأمر أنّي شعرتُ بالدوار لبرهة. لا بدّ من أنّه الحرّ. خير، خير».

ثمّ تمتمت، كأنّها تتكلّم مع نفسها: «الشيخ بشير، بشير كيزلار آغا. مجرمٌ كلّ مَن يحمل اسم بشير».

وحدها شيرين التي كانت تساعد جدّتها على التقاط القطع المكسورة، سمعت الجملة الأخيرة.

بيروت – الثلاثاء 11 نيسان 1978

لم أرَ شيئًا في البداية. فأشعة الشمس التي تغمر المطبخ الصغير، في فترة ما بعد الظهر من كلّ يوم، كانت ساطعةً على نحوٍ باهر. سمعتُ فقط صراخ أمّي ما إن فتحتُ الباب.

ثمّ رأيتُها. كانت ممدّدةً على الأرض، مرتديةً فستانها المزخرف المفضّل. وكانت خالتي نجاة جاثيةً إلى جانبها.

– لِمَ أنتِ ممدّدة على الأرض يا تاتيكي؟

كم كانت تحبّ عندما كنتُ أدعوها تاتيكي عوضًا من تيتا.

لكنّها لم تُجب. كانت خالتي نجاة تحاول أن تهزّها لكنّها لم تتحرّك. لم تقل: « Batchik dour inzi »[1] كما كانت تفعل دومًا كلّما وصلت.

هل كانت مريضةً؟

رأيتُ علبةً صفراء بالقرب منها. قرأتُ عليها كلمتي «سمّ للجرذان» مكتوبتَين بالأسود. كنتُ ماهرةً جدًّا في التهجئة.

كنتُ أعرف ما تعنيه كلمة «جرذان». وكنتُ أكره الجرذان، باستثناء جيري، نجم أفلام الكرتون المفضّلة لديّ. كان جيري مضحكًا ومحتالًا، أكثر احتيالًا من القطّ توم. كنتُ أشاهدهما بالأبيض والأسود كلّ مساءٍ عند السادسة والنصف على شاشة التلفزيون.

في الحقيقة، كان جيري فأرًا، لا جرذًا. لقد شرح لي أبي الفرق بين الاثنين.

– ما معنى «سمّ» يا ماما؟

لكن أمي لم تُجب. التفتُ ونظرتُ إليها. كانت تغطي وجهها بيديها.
ثم صرختْ في وجهي: «اخرجي! اخرجي حالًا!»
ماذا فعلت؟ هل مرضتْ تاتيكي بسببي؟
أخذت تانت إلهام، الجارة، تقرع الباب وقد أصابها القلق.
– هل كلّ شيء على ما يرام؟
فتحت أمي الباب ودفعتني إلى الخارج، الى حضن الجارة، التي استشعرتْ خطورة الوضع واصطحبتني الى بيتها.
ثم عمّت الفوضى في كلّ مكان. من مكاني في شقّة تانت إلهام، كنت أسمع تمتمات الجيران الآخرين، وصفّارة الإسعاف، وتعليمات المسعفين. لاحقًا، انتهى كلّ شيء وغادر الجميع. بقيتُ أنا ونجاة في بيت تانت إلهام تلك الليلة. أمّا أمي، فلم تودّعني حتى.
في وقت لاحق، جاء والدي ليطمئن عليّ. قال: «سنأتي لنأخذكِ غدًا بعد الظهر. كوني فتاةً عاقلة». ثم ضمّني إلى صدره بقوّة.
لم يُجب عن أسئلتي، ولا فعلتْ تانت إلهام. لكني اكتشفتُ ما حدث بنفسي. كنت معتادةً على رؤية الجثث.
وداعًا، تاتيكي.

كان للجحيم فرعٌ في لبنان، يُدعى دير الصليب أو «العصفورية»، وفقًا للاسم المتداوَل.

كان ديرًا في بادئ الأمر، بُني عام 1919 تقريبًا، ثم تحوّل إلى مأوىً عام 1937، ليستحيل أخيرًا مستشفى للأمراض العقلية/ جحيمًا، عام 1951.

في بداية آب من العام 1982، توفّي باسم بسلامٍ في نومه في عمر الثامنة والثمانين، فباتت نجاة مشكلةً. لم تستطع ميسان أن تتركها وحدها في المنزل، فقد ساءت حالتها النفسية بشكلٍ تدريجي منذ انتحار سيرون. كانت بالكاد تأكل شيئًا، وتمضي ساعاتٍ طوالًا وهي تحدّق في الحائط. كانت تلك السنوات الطويلة من تناول الفيرونال،

ومن بعده الفاليوم، قد دمرتها تدريجا، وحولتها إلى زومبي. في تلك الآونة، أحد أصدقاء لوقا أخبر ميسان عن ذلك المستشفى المتخصص الكائن في إحدى ضواحي بيروت. قال: «يعتنون بالأشخاص جيدًا هناك».

أُدخِلت نجاة إلى دير الصليب في 18 آب 1982. هناك، اكتشفت بعدًا جديدًا تمامًا لكلمة «ألم»: من حمامات الثلج لتهدئتها وبقية النزلاء عندما يعلو صراخهم وجلبتهم، إلى الصدمات الكهربائية لتحفيزهم عندما يغرقون في اكتئابهم، ويمسون شبه مخدرين بعد حمامات الثلج. حلقةٌ مفرغةٌ من الأذى هي، حوّلت ما شُفي بالعلاج النفسي، وفقًا لمعايير ذلك المستشفى في تلك الأيام، عكسه تمامًا.

الموت ثم الإنعاش. الإنعاش ثم الموت. مرةً تلو أخرى، إلى أن يصبح ذلك الموت الذي لا رجعة منه أمل النزيل المرتجى.

تمامًا كما تحيل سجون لبنان الجُناةَ الصغار، أو أولئك الذين ارتكبوا جرمًا للمرة الأولى، مجرمين محترفين، كذلك يحوّل دير الصليب، رسميًا، مَن يعاني كآبةً بسيطةً أو اضطرابًا معتدلًا، إلى شخصٍ «مجنون» سريريًا، على نحوٍ لا لبس فيه.

عندما رافقت شيرين والدتها للاطمئنان على نجاة بعد أقلّ من شهرٍ على دخولها، كانت نجاة ابنة ثمانية وعشرين عامًا، لكنها بدت كعجوزٍ في السبعين. في بداية الأمر، لم تستطع أن تتكلّم. كانت تبكي فقط. تعانق شيرين بقوة وتشدّ على يد ميسان. بكت لأربعٍ وثلاثين دقيقة كاملةً، عدّتها شيرين على ساعتها الـ«كاسيو». كانت صديقتها نينا تسخر دائمًا من تلك الساعة، وتقول إنها تناسب الرجال. لكن شيرين كانت متعلّقةً بالساعة جدًا. الـ«كاسيو» على معصمها، والقلادة الفولاذيّة حول عنقها، كانتا الشيئين الوحيدَين اللذين لم تكن تنزعهما عنها قط.

عندما غادرت الراهبة التي نقلت نجاة إلى قاعة الزوّار لبرهة من أجل تلقّي مكالمةٍ هاتفية، همست خالتها لهما: «أرجوكما خذاني من هنا. دخيل إجريكم!» كانت قد نمت لها شعيراتٌ سوداء على ذقنها، جزاء جرعات الكورتيزون التي كانوا يحقنونها بها. حتى صوتها تغير خلال ذلك الشهر. بات مبحوحًا وأكثر عمقًا، لكأنه خارج من قبرٍ. القبر الذي باتت تجسده روحها.

لن تنسى شيرين ذلك الصوت في حياتها.

كان الإصغاء إلى ميسان وهي تشرح لأختها عن ضرورة بقائها هناك، ضربًا من العذاب. كيف يمكن لأمها أن تكون مجرّدةً من الإحساس على هذا النحو؟ لقد أخبرتْ نجاة، بصراحة، أن لا مكان لها «في الخارج». بينما كانتا تودّعانها، وهما تَعِدانها بالعودة قريبًا، قرّرتْ شيرين أنها لن تعود إلى ذلك المكان ثانية. لا تقوى على ذلك، فقد باتت مسكونةً بالصرخات التي سمعتْها، وبالأجساد المتشنجة التي لمحتْها في ذلك المكان الرهيب.

ذات يوم، بعد مرور سنواتٍ عدة، سيساورها ندمٌ شديدٌ على ضعفها وأنانيتها هذه. وسيمسي الشعور بالخجل جزاء عدم زيارة نجاة أقسى من صوت الصراخ ومشهد النوبات المَرَضية، وأسوأ من كلّ تلك العيون الفارغة التي كانت قد رأتها هناك مرّةً.

أكانت هذه العيون فارغةً حقًّا أم «مفرغة»؟ كانت شيرين غالبًا ما تحلم أن الراهبات والممرضات يستخدمنَ ملاعق لإفراغ عيون المرضى من الحياة.

عندما خرجتا من المستشفى، التفتتْ نحو وجه أمها: كانت ثابتةً، رابطة الجأش. لكأنها لم تشعر بشيء. لا محبة. لا عطف. لا إحساس بالذنب. «أقلبُها مصنوعٌ من حجر؟ هل تملك قلبًا حتى؟»

– متى ستخرج من هنا؟

– لا أعرف.

– ألا تستطيع العيش معنا؟
– كلّا.
– ولِمَ لا؟
– لأنها لا تستطيع بكلّ بساطة. كفي عن طرح كلّ هذه الأسئلة.

كانت لأمّها طريقةٌ فجّة في وضع حدّ لأيّ حديثٍ معها، وقد اعتادت شيرين ذلك الأمر. «لِمَ انتحرت تاتيكي...؟ لِمَ تنامين في سريري وليس مع بابا...؟ لِمَ لا يمكنني الحصول على شقيق...؟»
– كفي عن طرح كلّ هذه الأسئلة.

منذ أن بلغت شيرين الرابعة، بدأت تتوسّل إلى والديها للحصول على شقيق. كانت تريد شقيقًا بالتحديد، مع أنها كانت لترضى بشقيقةٍ أيضًا. كان أبوها يبتسم ويقول «إنشالله»، فيما تتجاهل أمّها توسلاتها. فعلت ذلك في كلّ مرّة، إلى أن أقبل يومٌ توقّفت فيه شيرين عن السؤال.

أخبرهما سائق التاكسي الذي أعادهما من دير الصليب أنّ انفجارًا دوّى في مقرّ حزب الكتائب في الأشرفية، وأنّ شائعة تسري عن احتمال مقتل الشيخ بشير الجميل.

في وقتٍ لاحق من ذلك المساء، تأكّدت الشائعة مع انتشال جثة الشيخ بشير من تحت الأنقاض.

بيروت – الثلاثاء 14 أيلول 1982

«أولئك الأشخاص».

مَن هم؟

يسمّونهم المختلّين عقليًا، الحمقى، الغريبي الأطوار، المعتوهين، المجانين، الممسوسين، المشوّشين، الثنائيي القطب، المخبولين... غير اللائقين بجلالته، المجتمع...

أولئك الذين يجب أن نتجاهلهم، ننساهم، نتجنّبهم، ننبذهم، نشفق عليهم، نعرض عنهم، نستبعدهم، ندفعهم عنّا... مع أنّنا، في أكثر

الأحيان، نكون منهم.
بل لأننا منهم، لا ننفك نقول «أولئك الأشخاص»، لنبقيهم سجناء في بعد منفصلٍ عنا. نميز بين «نحن» من جهة، و«أولئك الأشخاص» من جهةٍ أخرى، فنقنع أنفسنا بأننا في أمان.
نقول «أولئك الأشخاص»، تمامًا كما نقول أيضًا «هيداك المرض» لوصف السرطان. «معها من هيداك المرض». لا نسميه، خوفًا من أن يسمعنا، فيتنبه إلى وجودنا ويأتي كي ينقضّ علينا.
لكنّ الحقيقة هي أننا جميعًا مرضى عقليون. جميعنا موصومون. جميعنا غير متوازنين ومرضى ومرتبكون ومشوشون. السبعة مليارات نسمة. لكن بدرجاتٍ مختلفة.
لا يمكن للمرء أن يكون إنسانًا يعيش ويتنفس من دون أن يكون قد عانى شكلًا من أشكال الاضطراب العقلي، لمواجهة وحشية هذا العالم. كي يتمكن من تبريره، أو على الأقل تحمله.
قد يكون اضطرابًا واضح المعالم، كانفصام الشخصية. أو آخر مخفي بإحكام، كالعقيدة الدينية: وهذه أقصى درجات الذهان الجماعي.
الاضطراب هو الدواء، وليس المرض.
دواءٌ للشفاء من الحياة.

كان يوم سبت، وكانت تحب أيام السبت. كان أيضًا عيد ميلادها، لكنها كانت تكره أعياد ميلادها. خبزت أمها قالب حلوى دائريًا مجوفًا، ستغرس فيه ثلاث عشرة شمعةً في المساء. ستنفخ شيرين الشموع وسينتهي الأمر. سينتهي ذلك الاحتفال السنوي الشهير بيوم مولدها. كان كلُّ ما تتطلع إليه شيرين هو مجموعة الكتب الجديدة التي سيهديها إياها والدها من دون شك، في وقتٍ لاحقٍ من ذلك النهار. طلبت منه تحديدًا كتابًا لمصفّفتها المفضلة، صونيا ريكيال، بعنوان «وأريدها عارية». أملت أن يغض والدها المحافظ النظرَ عن هذا

العنوان المثير للجدل، فيفاجئها بالكتاب في تلك الليلة. أملت كذلك أن يتمكن من إيجاده: فقد نُشر عام 1979، أي قبل أكثر من أربع سنوات.

أحبت كلّ ما له علاقة بريكيال: بدءًا بشعرها الغجري الأصهب، في طبيعة الحال، وصولًا إلى الأهم من ذلك: تصاميمها الثورية، وقصّاتها التحرّرية، وأسلوبها الذي لا يَحتسب على رجلٍ أو امرأة. أمّا والدة شيرين، ميسان، فكانت من محبي كوكو شانيل. طبعًا، لا شك في أن شانيل كانت امرأةً استثنائية، كسرت القيود وأصبحت ريادية على أكثر من صعيد، لكنها كانت كلاسيكيةً جدًا بالنسبة إلى ذوق شيرين المتطرف. لذا، عندما قرأت مقالًا عن صونيا ريكيال، في أحد أعداد مجلة «إيل» التي كانت استعارتها من والدة نينا، شعرت بأنها وجدت مثالها الأعلى. بالإضافة إلى ذلك، ازدانت دار أزياء ريكيال في باريس، كما بدت صورتها في المجلة نفسها، بميزة صعقت شيرين: كانت مصممة الأزياء تعرض كتبًا في واجهة متجرها، لا ملابس فحسب! لقد مزجت، بطريقةٍ من الطرق، بين كلا العالمين، ونجحت في ذلك. شعرت شيرين التي كانت تحار دومًا بين هاتين الهوايتين، الأدب والموضة، بالاطمئنان أخيرًا: لن تضطر إلى التخلّي عن إحداهما على حساب الأخرى.

تجاوزت الساعة الظهيرة عندما قالت ميسان لشيرين المستغرقة في قراءة إحدى رواياتها: «عليّ أن أذهب إلى مكانٍ، وأريدكِ أن ترافقيني».

– Oor Gertangkor[1]؟

خاطبت أمها بالأرمنية. فمنذ وفاة جدتها قبل خمس سنوات، صممت على تعلّم لغتها. كانت تفهمها جيدًا في أيّ حال، ما مكّنها من إجادتها بطلاقةٍ في غضون ستة أشهر.

– إلى الطبيب.

– لماذا؟ ما الأمر؟

– كفي عن طرح الكثير من الأسئلة Hakvir [2].

لطالما شعرت شيرين، في سنوات نشأتها، بأنها أقرب إلى والدها من والدتها. صحيح أنها تتشارك مع كلٍّ منهما أموزا عدة (حب الموضة مع ميسان وحب الكتب مع لوقا)، إلا أن تلك الحميمية مع أمها كانت قد تقوّضت. فقبل كلّ شيء، كانت مرغمةً على الانحياز إلى طرفٍ منهما في شجاراتهما، وإن سرًا. فالانحياز إلى أحد الطرفين يمكن أن يحمي أطفال الزيجات الفاشلة من التخبط في مشاعرهم. يُرَبّى الأطفال عادةً على رؤية الحياة من منظور الازدواجيات الحادّة؛ خطأ وصواب، أسوَد وأبيض. فهم ليسوا مجهَّزين لمواجهة المناطق الرمادية في العلاقات، أو الفهم أنه، في بعض الأحيان، «ليس الذنب ذنب أحد»، أو أنّ «كليهما مخطئ». لا بدّ من وجود معذِّب وضحية. في طبيعة الحال، وبعد وقتٍ طويلٍ، طويلٍ جدًا، يكتسبون الأدوات اللازمة لاستيعاب ما حدث، ويضطرون إلى تحمّل ذنب الانحياز إلى الضحية أو المعذِّب، على حساب الآخر. في مطلق الأحوال، كان من الأسهل على شيرين أن تنحاز إلى لوقا لأنّه لم يكن يتدثّر، كوالدتها، برداء المذنب أثناء الشجارات. فبين الاثنين، كانت أمها الطرف الذي لا يكفّ عن الصراخ، ووالدها ذلك المستفزّ الماكر الذي يحافظ على هدوئه.

ستتعلّم لاحقًا أنّ الذين يصرخون هم الأضعف في سلّم السلوكيات العدائية.

ثانيًا، كان والدها بطبعه إنسانًا سهلًا، بعكس أمها التي كانت لجوجةً ومتسلّطةً. «افعلي هذا؛ كوني كذلك». في أغلب الحالات، كانت شيرين تشعر بأنّ ميسان تنتقم عبرها من شيءٍ ما، أو شخصٍ ما. ومع أنّها كانت بدورها ذات طبيعةٍ مندفعةٍ وقوية الإرادة، إلّا أنّ ثقل ضغوط ميسان وتوقّعاتها كانت فوق طاقتها في بعض الأحيان. أرادت شيرين أن ترسم طموحاتها الخاصة، لا أن تكون انعكاسًا لطموحات أمّها العقيمة.

أضف إلى ذلك، كانت ميسان ذات طبع عنيف ومتقلّب، وقد عانت انهياراتٍ عصبيةً ومشاكل في حبّ السيطرة والتحكم، ولا سيما بعد انتحار أمها وحبس شقيقتها نجاة في مأوى. ومع أنّ شيرين كانت تعرف أنّ ضرب الأطفال أسلوبٌ شائع في التربية (فالعديد من صديقاتها كنّ يُضربن عندما يسنن التصرف)، إلّا أنّها كانت ابنةً مطيعة ومحترمة. كانت، في معظم الأحيان، تنطوي على نفسها، وبالكاد تثير أيّ مشاكل. على رغم ذلك، لم تكن ميسان تتوانى عن ضربها لأتفه الأسباب. كأن تصفعها مثلًا في منتصف الليل فتوقظها من نومها، إذا كانت تتقلّب في السرير الذي كانتا تتشاركانه. صعبٌ على شيرين أن تسامحها. فقد كانت تتميز بروحٍ ثائرة، وأمّها كانت الوحيدة التي تُقدِم على كسرها، مرّة تلو الأخرى.

بينما كانت شيرين تسير مع ميسان، راحت تفكّر في الرواية التي كانت تقرأها ذلك الصباح، أو بالأحرى تعيد قراءتها. عنوانها «نساء صغيرات» للمؤلفة لويزا ماي ألكوت، وهي في الواقع تقرأها للمرّة المئة على الأرجح. عشقت شخصية جو بشكلٍ خاص، تلك الفتاة الثائرة التي تحبّ الأدب. كانت قراءة الكتب، ورسم تصاميم فساتين، دواء شيرين الناجع، ولطالما تحسّنت نفسيّتها بشكلٍ ملحوظ بعد الاستغراق في قراءة «نساء صغيرات». في كلّ حال، ألم يكن والدها يقول لها دومًا: «المدرسة ضرورية طبعًا لكنّ الكتب هي المعلّم الحقيقي»؟

علّم والدها نفسه بنفسه، وكان أكثر نضجًا فكريًا مما أوحت به شهادة البريفيه التي كان يحملها. ارتاد مدرسةً رسميةً بشكلٍ متقطع، لكنّ مخزونه المعرفي الحقيقي جاء من أحد أقارب والده الذي كان له خير معلّم. في الواقع، لم يعلّمه القراءة والكتابة والحساب بالأشورية والعربية فحسب، بل أعطاه أيضًا قصائد كي يحفظها عن ظهر قلب. كما طلب منه التمعن في بعض المفاهيم الفلسفية. كان هذا القريب قسًّا متقاعدًا مسنًّا وغريب الأطوار، لا يغادر منزله البتّة من دون قبعةٍ

وعصا. كان يمضي صباحه وهو يرسم، وأمسياته وهو يتنزّه، واضعًا كفه اليسرى خلف ظهره، وأصابعه تقلّب حبّات مسبحته بلا هوادة.

منذ أن بلغ لوقا السابعة من عمره، دأب على زيارة أبونا كوركيس مرّتين أسبوعيًا في بداية المساء، وتلقّي دروس في التاريخ، والجغرافيا، والأدب، والفلسفة، والعلوم وغير ذلك. في أقلّ من خمس سنوات، اكتسب من المعارف ما فاق مستوى طلاب الثانوية في تلك الأيام. بعد ثلاث سنوات، نال شهادة البريفيه مواصلًا تعليمه من خلال الكتب، بينما كان يساعد والده المريض على إدارة مصبغة العائلة في برج حمّود.

« Hosseh »[6]. جاء صوت ميسان منخفضًا على نحوٍ غير اعتيادي، ما أخاف شيرين. كانتا قد بلغتا وجهتهما. صعدتا إلى الطابق الأول من مبنى متردٍّ من طابقين. كانت المياه النتنة تقطر من كلِّ زاويةٍ من زوايا الدرج، والصراصير تملأ المكان. كان باب العيادة الرئيسي مفتوحًا. دخلتا إلى غرفةٍ مهترئةٍ فيها كراسٍ بلاستيكيّةٌ بلون بيج، وضوء نيون مزعج. لم ترَ أحدًا هناك ولا حتى سكرتيرة. كانت تلك القاعة الكئيبة تقود إلى غرفةٍ أخرى ذات بابٍ مغلق. «انتظريني هنا. سأنهي عملي خلال ساعة تقريبًا».

دقّت ميسان على الباب. ففتح أحدهم. سمعت شيرين صوت رجلٍ، لكنها لم تتمكّن من رؤيته من حيث كانت تجلس. دخلت والدتها، فأغلق الباب وراءها سريعًا. تلا ذلك خمس أو عشر دقائق من الصمت. ثم بدأ الصراخ.

كان صراخًا مريعًا. هائلًا. تقشعر له الأبدان.
كما كان ليصرخ غزالٌ يلتهمه أسد، لو استطاع ذلك.
كما كان ليزأر الموت لو قُدّر له الإعلان عن مجيئه.

وقفت شيرين، ثم هرعت نحو الباب وفتحته على عجل. فرأت ما لا يجدر بأيّ فتاةٍ في الثالثة عشرة أن تراه. كانت ميسان عاريةً من

الخصر نزولًا، فيما قدماها متباعدتان. أما الرجل، فبدا أشبه بجزارٍ منه بطبيب، ربما بسبب بقع الدم التي كانت تغطي رداءه الأبيض. رأته منحنيًا بين فخذي أمها وهو يحرك إبرة كبيرة غريبة الشكل داخل أحشائها. ثم رأت الدم يقطر داخل دلوٍ بلاستيكي ذي لونٍ أخضر داكن.

«اخرجي! اخرجي الآن!» بقيت والدتها تصرخ بنبرةٍ محمومةٍ حتى بعد خروجها.

عرفتْ بالضبط ما الذي كان يجري. فقد درستْ ذلك في صفّ علوم الأحياء. «كان بإمكاني أن أحظى بالشقيق الذي لطالما رغبت فيه. لن أسامحها على ذلك أبدًا. أبدًا!»

كم من أشياء لن تسامحها عليها!

في طريقهما إلى البيت، أخذت ميسان تسير بصعوبةٍ وتتكئ على ابنتها. ثم التفتتْ إليها وقالت بلهجةٍ جافّة: «لا تُخبري والدكِ عمّا حدث».

بيروت – السبت 24 أيلول 1983

«لا أريد قالب حلوى لمناسبة عيد ميلادي يا أمي. أريدكِ فقط أن تكفّي عن ضربي».

هل سأجرؤ يومًا على أن أقول لها ذلك بصوتٍ عالٍ؟ هي تعرف كيف تمارس معي لعبة الشعور بالذنب بكلّ مهارة.

«تحمّلتُ ما لا يُحتمل بسببكِ».

في كل مرة تقول لي هذا، أشعر برغبةٍ في الصراخ في وجهها: «يا ليتكِ لم تفعلي! دمرتِ حياتي لأنكِ فعلتِ ذلك!»

في تلك اللحظات بالذات، أشعر بأنّ لديّ كل الحقّ في كرهها.

لكنها لا تلبث أن تنفق لياليَ متتالية، لا يُغمض لها فيها جفن، وهي منحنيةٌ فوق ماكينةٍ للخياطة من ماركة ميرسيدس، لتخيط لي الفستان نفسه الذي لم تستطع أن تشتريه لي، أو ذلك الذي صفعته بنفسي.

أرتديه وأنا أشعر بالسوء، وكأنني أرتدي كفنًا... كفن يرقد فيه كبريائي

وقد قتلت على يد ضميري المثقل بمشاعر الذنب، أو بالأحرى ضميري الذي تعرض للابتزاز.
يمكن أن تكون كلمة «التضحية» أداةً للإرهاب النفسي. وهي إحدى الممارسات الأسوأ، والأكثر إيذاءً للغير، بل إيذاء للنفس، على الإطلاق.
لا أستطيع أن أتذكر لِمَ استحققتُ الضرب أمس. عيناي متورمتان من شدة البكاء. الناس في الشارع يحدقون بي.
أجل، تذكرتُ! سكبتُ عصير الكرز على زيي المدرسي.
قرأتُ مرةً عن جنس من القردة الصغيرة يُدعى الطمارين المشوب، ينتشر في البرازيل بشكلٍ عام. يبدو أن الأمهات في هذه الفصيلة تنزع إلى قتل صغارها الرضَّع. هكذا، تسحق رؤوس جرائها بلا رحمة أو ترمي بها من فوق أشجارٍ عاليةٍ نحو الأرض.
«كفي عن ضربي. كفي عن ضربي».
اليوم كانت الحجة هذه الجريمة الشائنة.
أكنتُ أداةً تنتقم بها من والدي؟ لا تنفك تقول إنه خيب أملها. أليس خذلان شخصٍ ما شكلًا من أشكال الخيانة؟
لهذا السبب، لا خير في تعليق آمالٍ كبيرة على علاقةٍ زوجية. فالزواج مقصلة الأحلام، ومن الأفضل التحرر من الأوهام منذ البداية.
كنتُ قد قرأتُ أيضًا مسرحية «ميديا» ليوريبيديس. وهي عن أميرة يونانيةٍ تقتل أولادها، لا لشيءٍ إلا لتنتقم من زوجها. صُعِقَت معلّمة اللغة الفرنسية عندما أخبرتُها أني قرأتُه. «هذا الكتاب صعب جدًا. هل فهمتِه؟»
طبعًا فهمتُه! فأنا ابنةُ ميديا يا آنسة أليس!

لمس ذقنها برفقٍ، ففتحتْ فمها تلقائيًا.
- هل سيؤلمني ذلك؟
ابتسم. كانت تعرف أنها تبدو كفتاةٍ صغيرة، لكنها تشعر بالرعب من أطباء الأسنان.

من أطباء الأسنان، والأطباء النسائيين، والصراصير.

– تمددي واسترخي. أعدكِ بأنكِ لن تشعري بشيء.

كانت تلك أولى الكلمات التي قالها لها. وقعتْ عليها لهجته السورية وقوع الصاعقة. فعلى الرغم من أنها تعلّمتْ، بمرور الوقت، ألا تُطلِق الأحكام المعممة على السوريين كما يفعل أبوها، فقد بقيتْ تواجه صعوبةً في مسامحة نظامهم الديكتاتوري على ما فعله ببلدها. ما فعلوه هم، وآخرون طبعًا.

فكّرت: «ونحن أيضًا نتحمّل قسطًا من المسؤولية، لربما كان القسم الاكبر». حاولتْ جاهدةً أن تكون عادلةً. كانت الحرب الأهلية اللبنانية – التي خلت من كلّ ما يمتّ بصلةٍ إلى التحضّر – قد وضعت أوزارها رسميًا قبل شهرين، أي في تشرين الأول 1990. لم تدم ممانعتها طويلًا. فقد كان يتمتّع بصوتٍ دافئٍ وساحرٍ عوّض عن تلك اللهجة غير المستحبة التي أعادت إلى ذهنها ذكريات حربٍ غير مستحبةٍ أيضًا.

كان فؤاد اليازجي رجلًا هادئًا، صافي البال وصبورًا، عكسها تمامًا. في الواقع، كان الرجل الأقلّ كلامًا بين سائر مَن قابلتْهم من رجال، كما كان شخصًا جديرًا بالثقة، يمكن الاعتماد عليه، ومن السهل التنبؤ بتصرفاته. لو كان ثمّة ترياقٌ مضادٌ لتهوّرها الطاغي، لَتجسّد في فؤاد. شعرتْ معه بالأمان. الأمان المفرط. بدأ يتواعدان بعد وقتٍ قليلٍ من لقائهما الأوّل. كانا يفعلان ذلك سرًا في البداية، لأنها خشيتْ تقديمه إلى والدها. غير أنّ فؤاد فاتحها بموضوع الزواج بعد ستة أسابيع فقط من موعدها في العيادة حيث يعمل. كانت في الواقع عيادةً فاخرةً جدًا، حتى أنها شعرتْ بالامتنان لأنّ والديها تمكّنا من إرسالها إليها على الرغم من وضعهما المادي الصعب.

«ما رأيكِ لو نتزوّج؟» تفوّه بهذا السؤال بكلّ بساطةٍ، بينما كان يعالج ضرس العقل في فمها. ففكّرتْ في نفسها وقد انتابها شيءٌ من الاستياء: «يا له من عرضٍ للزواج!» لم تشكّ يومًا في أنه سيتصرّف

برومانسيةٍ، لا بل إنها قدرته على حسه العملي هذا. ولما كانت تتوق إلى مغادرة منزل والديها، فقد وافقت في الحال. في الواقع، لم تتفوه بالكلمة نفسها. لم تكن تستطيع ذلك. ففمها كان مفتوحًا على اتساعه، ولسانها مبنّجًا تمامًا بفعل ما حقنه فيها من سوائل تخدير. لم تفعل إلّا الإيماء بجفنيها بقوة. وهكذا كان.

لم تكن شيرين مغرَمةً بفؤاد، لكنها أحبت رفقته، أو بالأحرى أحبت التأثير الذي كان يخلّفه فيها. فقد كان يسبغ عليها إحساسًا بالسكينة. قالت لنينا يومًا عندما أخبرتها عما شفي بعرض الزواج هذا: «إنه البانادول الذي يسكّن حرارتي المحمومة». لكن صديقتها لم تقتنع بهذا الوصف المجزد من العاطفة.

– يجب أن تتزوّجي بشخصٍ تحبينه!

ردّت بسخرية: «نعم، معكِ حقّ، فقد نجح الأمر مع والديّ تمامًا، أليس كذلك؟ أشكركِ على النصيحة، نينا، ولكن لا. شكرًا. الحبّ هو لأولئك الذين يفتقرون إلى الخيال، أو الذين يفرطون في التخيل».

– سينتهي بكِ الأمر إلى كرهه للأسباب نفسها التي تعجبكِ فيه اليوم.

فقالت شيرين في نفسها: «أعرف منذ الآن علامَ تحتوي هذه البطيخة. لا توقّعات كبيرة، لا خيبات أمل».

كان فؤاد ميسور الحال، وهي نقطةٌ أساسيةٌ تصب في مصلحته. فالمصبغة التي يملكها أبوها كانت في وضعٍ صعب وكان لوقا يمضي معظم وقته في القراءة أو لعب الورق مع أصدقائه في الغرفة الخلفية. كان قد أدمن لعبة الطرنيب، موجدًا سببًا آخر للشجار بينه وبين ميسان. لكأنهما كانا بحاجةٍ إلى سببٍ آخر! باتت أجواء البيت خانقةً أكثر من ذي قبل.

ما إن فهمت شيرين معنى كلمة «طلاق»، حتى أخذت تتمنى سرًّا أن يتطلّق والداها. أيعرف الزوجان اللذان يتشاجران مدى الأذية التي

يلحقانها بأطفالهما؟ أيعلمان مدى أنانيتهما عندما يقرّران البقاء معًا، مستخدمَين أولادهما وبناتهما كحجّة؟ هل يدركان أن جملة «حتى يفرّقنا الموت» يمكن أن تتحوّل إلى أمنيةٍ بالموت في أرواح أطفالهما؟ تبًا للمجتمعات المنافقة التي تفضّل وضعًا زائفًا، على انفصالٍ سليمٍ وصحي. وتبًا للأمهات والآباء الجبناء الذين يخضعون لمثل هذه المعايير الاجتماعية والدينية.

إنّ الحياة لأقصر من إهدارها على الأعراف والتقاليد.

في 28 نيسان 1991، بعد فترةٍ تجاوزت الأربعة أشهر بقليل على لقاء شيرين وفؤاد، عقدا قرانهما. عارض والداها الفكرة في بداية الأمر، خصوصًا والدها. أما اعتراضات والدتها، فما لبثت أن تلاشت عندما علمتْ أنّ فؤادًا ميسور. فكّرت شيرين: «هذا كلّ ما يهمّها. مصاري مصاري. إنّها مهووسةٌ بالمال».

أمّا لوقا، فاستشاط غضبًا: «ما زلتِ صغيرةً جدًا على الزواج! وماذا تعرفين عن هذا الرجل في أيّ حال؟ بالكاد التقيتما!» مع ذلك، بقيت تصرّ على رأيها حتى رضخ أخيرًا. كانت تعلم تمام العلم لماذا لم يكن يرغب «بهذا الرجل»، بشكلٍ خاص، زوجًا لها، وهو السبب نفسه الذي جعلها تتردّد في تعريف أحدهما إلى الآخر. كانت أصول فؤاد تعود إلى حلب، لكنّ والديه كانا قد انتقلا إلى اللاذقية قبل ولادته. وبعد أن أنهى دراسته الثانوية، فضّلا إرساله إلى الجامعة الأميركية في بيروت ذات المستوى الرفيع، على الرغم من الأوضاع غير المستقرّة في لبنان. فكلية طب الأسنان [7] في تلك الجامعة كانت إحدى أفضل الكليات في الشرق الأوسط. وكان في مقدور عائلته الثرية أن تتكبّد كلفة تعليمه فيها بكلّ سهولة. كما كانا يملكان معارف نافذة تربطهما بالعديد من الأسر السياسية اللبنانية، وقد تكفّل رعايته أكثر من زعيمٍ نافذ.

تخرج فؤاد في حزيران 1989، لكنه قرّر أن يبقى في بيروت على الرغم من خوف والديه المتزايد عليه، وتوسّلهما إليه بالحاح كي يعود إلى دياره. فقبل بضعة أشهرٍ ليس إلا، كان قائد الجيش اللبناني آنذاك، الجنرال ميشال عون، قد أعلن انطلاق «حرب التحرير» ضد السوريين والميليشيات اللبنانية المتحالفة معهم. فبات الوضع في العاصمة متفجّرًا كما لم يكن عليه يومًا. هدّده والده بأن يقطع عنه مصروفه، لكن فؤاد لم يرضخ. كان أحد أساتذته قد وظّفه للعمل في عيادته الشهيرة في الأشرفية، فترك مهجع الجامعة الأميركية، واستأجر شقّةً صغيرةً بالقرب من العيادة. كان قد أدمن بيروت.

كانت جاذبية بيروت وسحرها الذي لا مثيل له، لعنتها أيضًا؛ فبيروت كانت أفيون الكثير من العرب: لا يشبعون منها، وفي الوقت عينه يحقدون عليها في لاوعيهم لأنها تُخضِعهم لسحرها على هذا النحو، ولكونها المكان الوحيد النابض بالألوان في وسطِ منطقةٍ رماديةٍ في معظمها. ومع أنّ العديد من القادة العرب كانوا يندّدون بالدمار الذي أصاب بيروت عبر المنابر العافة، إلا أنهم كانوا في السرّ يفركون أيديهم حماسةً، وهم يشعرون بالانتقام.

ننظر، دائمًا تقريبًا، بعين الحسد إلى ما، أو مَن، نبالغ في حبّه. فالعاشق سجينٌ يجتاز عتبة السجن بإرادته. لم يُرغِمه أحدٌ على الوقوع في الأسر، بل دخل هذا الحبس البرّاق عن سابق تصوّرٍ وتصميم، بابتسامةٍ عريضةٍ مرسومةٍ على محيّاه، معتقدًا أنه على وشك الدخول إلى مدينة ملاهٍ. وهو غالبًا ما يختار البقاء حتى بعد توقّف الأرجوحة الدوّارة بوقتٍ طويل.

انعقدت مراسم الزفاف في كنيسة الروم الأرثوذكس في مار نقولا في الأشرفية. كان احتفالًا بسيطًا جدًا، لم يشارك فيه إلا الأشخاص الضروريون فقط: أهل العريس والعروس، نينا التي كانت إشبينة شيرين، فادي صديق فؤاد منذ الطفولة، الذي جاء من اللاذقية خصّيصًا

لحضور المناسبة، بالإضافة إلى بعض أفراد الأسرة المقرّبين ولفيف من المدعوّين الآخرين.

يوم زفاف شيرين، كان شهران فقط يفصلانها عن التخرج ونيل شهادةٍ في التصميم من الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة. في تلك الأونة، لم يكن في لبنان كلّيةٌ متخصصةٌ في تصميم الأزياء، فبدا لها برنامج التصميم المعتمد في جامعة الألبا الأقرب إلى مجال اهتمامها، والأكثر فائدةً. كانت أقساط الأكاديمية تفوق قدرة والدَيها، لكنْ عمّتها منى كانت الطاهية في منزل عميد الكلّية، وكانت زوجته تحبها، فوافق العميد على إعطاء شيرين منحةً دراسيةً، خصوصًا بعد أن رأى مسوّداتها السابقة لعصرها وعلاماتها الممتازة في المدرسة. لكنه اشترط أن تنجز بعض الأعمال المكتبية كلّ يومٍ بعد انتهاء صفوفها إلى حين تخرّجها.

اقترح فؤاد عليها الانتقال إلى اللاذقية مباشرةً بعد تخرّجها، فوافقت. كان قد تصالح مع والده، زدْ على أنّ الإقامة في لبنان لم تعد تُشعره بالسعادة. فقد كانت الكراهية تجاه السوريين تشتدّ يومًا تلو الآخر، خصوصًا بعد هزيمة عون على يدهم، ونفيه القسريّ في 13 تشرين الأول من العام السابق. طالعته مشاعر البغض والضغينة حتّى في التفاصيل البسيطة من حياته اليومية. تجهّمٌ فاترٌ من هنا، ونظرةُ ازدراءٍ تفتقر إلى اللباقة من هناك. إلى جانب ذلك، كان عمّه، وهو طبيب أسنان أيضًا، قد فتح عيادةً له في اللاذقية، وبدأ يحث فؤاد على الانتقال ومساعدته في إدارتها. أما شيرين، فلم تمانع الابتعاد عن أمّها قدر ما تستطيع. كانت قد سمعتْ أنّ اللاذقيّة مدينةٌ ساحليةٌ ساحرة. لكنها فرضتْ عليه شرطَين فقط: أن يعيشا في منزلٍ مُطلٍّ على الشاطئ وأن تتّخذ لها وظيفةً هناك.

– لستِ بحاجةٍ إلى وظيفة.

– أنتَ تعرفني. العمل بالنسبة إلي شغفٌ أكثر منه وظيفةً.

– ماشي.

كان فؤاد يكره الشجار، وهو سببٌ آخر جعل شيرين تُوافق على الزواج به بلا تردد. كان يصرف عنه المشاكل التي لا يمكن حلها بشكلٍ سلمي بمجرد الموافقة. وقد ناسبها هذا جدًا بالطبع، لكنها لم تتوقع أن يأتي يومٌ تستحيل فيه طبقة الغبار المكنوس تحت السجادة كثيفة إلى درجة لا يمكن تجاهلها.

هكذا، انتقلا إلى اللاذقية في الأول من تموز 1991، إلى منزلٍ مطلٍ على الشاطئ، تمامًا كما طلبت. وبعد أقل من شهر، كانت شيرين تعمل كمساعدةٍ لأحد مصممي الأزياء السوريين الشهيرين، وقد عقدت العزم على إطلاق مجموعتها الخاصة وفتح بوتيكٍ خاص بها بعد أن تكتسب ما يكفي من الخبرة.

بوتيك حيث تبيع الملابس مع الكتب، طبعًا.

اللاذقية – الجمعة 6 أيلول 1991

– تمددي واسترخي. أعدكِ بأنك لن تشعري بشيء.

لعلّ هذه الجملة الأولى التي قالها لي تلخص حياتنا الجنسية بكلّ ما للكلمة من معنى. نحن متزوجان منذ أكثر من أربعة أشهر، ولا شيء حتى الآن. لا أشعر بشيء وأنا معه.

في الحقيقة، لا أشعر بشيء تجاهه.

كم كانت نينا محِقّة. رصانته الصارمة هذه تستفزني.

أنظر إليه فأرى رجلًا لا عيب فيه، رجلًا بلا جوانب ضعفٍ ظاهرة، ولا نقاط حساسة.

أنظر إلى حياتنا فأرى حياةً لا عيب فيها. حياة بلا هموم ولا مخاطر ولا حيرة.

لكن، ما يكون الرجل من دون جوانبِ ضعفٍ ظاهرةٍ فيه؟

ممثلٌ لا أكثر.

وما الحياة من دون حيرة؟

سيناريو مكتوب لا أكثر. سيناريو مملٌ، متوقَّع.
أشعر بأنه تم الزج بي في فيلم. فيلم لا يعجبني حتى. وحريٌ بي الابتسام وتلاوة دوري، والتظاهر بأن كل شيءٍ على ما يرام.
لو أنه أكثر مراعاةً لمشاعري فقط. لو أنه أكثر تعبيرًا عن عواطفه واحتياجاته الجسدية. يمارس معي الحب كما لو أنه يتبع تعليمات دقيقةً في كتيب ما. بعد ذلك، يُدير لي ظهره ويخلد إلى النوم. لم يسألني مرةً إذا كنت استمتعت. لكأن الأمر مسلمٌ به جدلًا. أهذه أنانيةٌ أم إنكار؟
«السرير يجسد كل الزواج». كم كان بلزاك عبقريًا.
تأخرتْ دورتي الشهرية. أيعقل أن أكون حاملًا؟
ألا يجب أن يكون هناك عائقٌ جسديٌ يمنع المرأة من الحمل إذا لم تبلغ النشوة الجنسية؟
حتى الطبيعة متحيزةٌ وتفضل الذكر على الأنثى!

فتحت شيرين الستائر الخشبية الزرقاء، فطالعتها أصوات الشاطئ وروائحه كلها مباشرةً. قويةً كانت، زكيةً ورطبة. كان صباح أحدٍ دافئًا من شهر آذار. رأت زوجين يتنزهان حافيين على الشاطئ، وقد رفعا سرواليهما الجينز قليلًا. بين الحين والآخر، كانا يتوقفان، فينحنيان ثم يرسمان شيئًا على الرمال بأصابعهما. الأرجح أن هذا الشيء كان قلبًا، لكن الأمواج كانت تمحوه دومًا. الأرض تعطي والماء يأخذ. بقيت شيرين تنظر إلى طيفيهما حتى اختفيا ولم يعد في مقدورها أن تسمع ضحكاتهما.

لطالما حلمتْ بالعيش في منزلٍ كهذا. منزل على الشاطئ. في صغرها، كانت تقول لأصدقائها: «يومًا ما، سأمتلك بيتًا أبيض بشبابيك تشبه سماواتٍ ممتدة حتى عندما تكون مغلقة».

بالفعل، حلمتْ شيرين بهذا البيت منذ وقتٍ طويلٍ جدًا. ليس هذا البيت بالتحديد، بل ببيتٍ، يكاد يكون أيّ بيتٍ، يطلّ على الشاطئ. لم

تتصوّر أنّ خيالاتها ستتجسد في نهاية المطاف في بيتٍ في اللاذقية في سوريا. كانت قد ترنّت على المسيحية في بيروت، رازحةً تحت ثقل الحرب. والفتيات المسيحيات اللواتي يكبرن في بيروت تحت الحرب، لا يحلمنَ عادةً ببيتٍ مُطلٍّ على الشاطئ في سوريا، أي «العدوّ». لم تحلم حتى ببيتٍ في الروشة، الكائنة على الشاطئ الغربي للعاصمة، حيث معظم السكان من المسلمين (أو بيروت الغربية كما كانت أمّها ميسان تصرّ على تسميتها). عوضًا من ذلك، كانت تأمل أن تتمكّن من العيش يومًا ما في جونية أو جبيل، أو حتى عمشيت، وهي كلّها مدنٌ ساحليةٌ لبنانيةٌ يعيش فيها المسيحيون بشكلٍ عام.

لم تزُر شيرين بيروت الغربية حتى بلغت العشرين من عمرها. أمّا قبل ذلك، فكانت المنطقة مجرّد صورةٍ فوتوغرافيةٍ على بطاقةٍ بريديةٍ، أو محض مكانٍ غامضٍ يتحدث عنه أبوها أحيانًا، عندما ينتابه الحنين فجأةً. حكى لها عن سينما «الكابيتول»، وسوق الطويلة، وغيرها من الأماكن الغامضة ذات الأسماء المجزّدة التي لم تكن تعني لها شيئًا. كلّما سلك لوقا درب الذكريات هذا، كانت تشعر بأنّها غريبةٌ عن هذا المكان. فبيروتها ليست بيروته. بيروتها مدينةُ رعبٍ ودمارٍ وعنفٍ؛ أمّا بيروته، فمدينةُ حزيةٍ وإثارةٍ وتنوير. كانت هناك فجوةٌ واضحةٌ بين الاثنتين، شقٌّ كبيرٌ بلا ترابطٍ ولا جسور. لكأنّها كانت وافدةً من بلدٍ آخر، له عاصمة مغايرةٌ كليًا. كانت كلّما سمعت عبارة «باريس الشرق الأوسط» التي كانت تُطلَق على بيروت، ينتابها الغثيان. حسدتْ والديها على تلك الأيام، خصوصًا أنّ استعادةَ ذكرياتِ ما قبل الحرب تخفف أهوالَ حقبةِ ما بعد الحرب في ذهنيهما. كان في استطاعتهما دومًا التطلّع إلى الماضي، ولا سيما والدها، وهو عزاءٌ لا تملكه. مع ذلك، أعجبتْها هذه الفجوة بين مفهومهما للمدينة ومفهومها هي، لأنّه كان يلائم ولعها بالاستكشاف. وفكّرتْ بتهكّم: «لحسن الحظّ أنّه لا يمكن تصدير الذكريات من جيلٍ إلى آخر».

لكنّها لم تكن تعلم أنّ الذكريات، ولا سيما الحارقة منها، تصبح مشفّرةً في جيناتنا.

كانت صديقتها نينا – التي ارتادت برفقتها، لأربع عشرة سنةً متواصلة، مدرسةً كاثوليكيةً تديرها راهبات – تهزأ منها كلّما ناقشتا آمالهما وخططهما المستقبلية، وهما جالستان إلى إحدى الطاولات البلاستيكية البيضاء في الكافيتيريا: «بيتٌ مطلّ على الشاطئ؟ أيّ نوعٍ من الأحلام هو هذا؟ سيتجعّد شعركِ بسبب الرطوبة الرهيبة». لكنّ شيرين لم تكن تمانع الرطوبة الرهيبة، ولا الشّعر المتجعّد، بل كانت في حاجةٍ ماسةٍ إلى العيش على مقربةٍ من البحر. كان ذلك وعدًا قطعْته على نفسها في طفولتها، وهي واقفةٌ على شرفة الشقّة المتواضعة التي ترعرعت فيها، في أحد أحياء بيروت الأشد فقرًا؛ شرفة لا تطلّ إلّا على مبانٍ متداعيةٍ أخرى تآكلتها طلقات الرصاص، وقضمت منها الصواريخ كتلًا كبيرة.

كلّما تذكّرت طفولتها، ولا سيما أيام المدرسة مع الراهبات، كان العبوس يعلو جبينها. مقتتْ شيرين عرائس يسوع المزعومات هؤلاء. فالسنوات التي أمضتها بينهنّ جعلتها تكتشف ازدواجيتهنّ، وطمعهنّ، ولا إنسانيتهنّ. وبالطبع لم يخلُ الأمر من بعض الراهبات اللطيفات والعطوفات، لكنهنّ بقين «طبعةً محدودةً». لطالما علّقتْ بسخريةٍ على مسامع نينا المصعوقة: «عرائس يسوع! هراء! إنّ الرب في حاجةٍ ماسةٍ إلى مستشار زواج». كانت صديقتها مارونيةً متدينة، يهولها أدنى تعرّض للرموز أو الشخصيات الدينية، وتهاب «نيران الجحيم المشتعلة»، تلك المؤثرات الخاصة التي كانت تعتمدها الكاثوليكية لزرع الخوف في النفوس، لضمان الطاعة والخضوع.

– بالله عليكِ يا نينا! لا شكّ في أنّ الله يتمتّع بحسّ الفكاهة. هل رأيتِ أنف الراهبة كونستانس؟

جاءت من شيرين التفاتةٌ أخيرةٌ إلى البحر المتوسط، متنشقةً جماله الفوضوي، ثمّ أغلقت الستائر وهي تفكّر: «هذا البيت هو، على الأرجح، الشيء الوحيد الذي يعجبني فعلًا في زواجي».

«اصمتي يا شيرين! إنه رجلٌ طيبٌ وأنتِ لستِ إلّا فتاةً مدلّلةً جاحدة!»

اعتادت تلك الأحاديث الطويلة مع نفسها.

حين تمدّدت على السرير مجدّدًا، وهي تنتظر ريثما يُحضِر لها فؤاد فنجان القهوة الذي يحمله إليها في السرير كلّ صباح، شعرت بركلات جنينها القويّة.

فهمست وهي تبتسم: «هل استيقظتَ أيّها الجنيّ الصغير؟» ربّتت بطنها بلطفٍ وهي تقول: «أعرف أنّك لا تطيق صبرًا حتّى تخرج من هذا المصباح السحري. بقي شهرٌ واحدٌ يا حبيبي. شهرٌ واحدٌ فقط».

هل ستكون أمًّا صالحة؟ كلّ ما تعرفه على وجه اليقين هو أنّها لن تضرب أطفالها أبدًا...

في تلك اللحظة نفسها، وصل فؤاد. لم يكن يحمل فنجان قهوة، وكان وجهه أحمر على غير عادة. قال لها: «سننتقل إلى حلب في الأسبوع المقبل. ضبّي كلاكيشك». ثمّ غادر الغرفة فورًا من دون أن ينظر حتّى في عينيها.

فكّرتْ في نفسها: «إنّه يعرف».

كان صباح أحدٍ دافئًا من آذار 1992 عندما بدأت شيرين تدفع الثمن... ثمن تمرّدها.

اللاذقية – الخميس 19 آذار 1992

– أهو طفلي على الأقلّ؟

كانت هذه أولى كلماته لي منذ أربعة أيام. كنتُ فرغتُ من توضيب أغراضي، وطيّ كلّ الملابس الجديدة التي قمتُ بخياطتها للطفل. كنتُ

جالسةً إلى ناحيتي من السرير وأنا أفرك بطني بزيت الزيتون. لا بد من أن السؤال يقض مضجعه منذ أن اكتشف الأمر.
– نعم.
– كيف تعرفين ذلك على وجه اليقين؟
– لأن الأمر بدأ بعدما اكتشفنا أني حامل.
– تفه عليك!
قالها بهدوء، من دون أن يرفع صوته، لكنها لسعتني أكثر مما تفعل الصرخة، أكثر حتى من الصفعة. أشمئز من نفسي أنا أيضًا، لكني كنت أشعر بوحشة رهيبة هنا. وكان هذا الشعور يتفاقم عندما أكون في صحبته.
هناك أشخاص تشحذ رفقتهم سكين الوحدة.
كفي عن تبرير نفسك يا شيرين! إنه رجلٌ طيبٌ وأنت لست إلا فتاةً مدللةً جاحدة!
أعرف أنه رجلٌ طيب. أعرف ذلك. ولكن أيكفي أن يكون الرجل طيبًا؟ أيجدر به أن يكون كذلك؟
إذا افترضنا أن ذلك يكفي، فكيف يعقل أن العديد من النساء الطيبات في العالم لا يكفين أبدًا؟ لم تُعتبر خيانة الرجال مقبولةً اجتماعيًا أكثر من خيانة المرأة؟ يسمونها غالبًا «العمل الطائش»، فيما يبقى الأمر «خيانةً» في حالة المرأة.
يبدو أن هناك جينًا مسؤولًا عن ذلك، وأن الرجال يحملونه أكثر من النساء. أراهن أن الشخص الذي جاء إلينا بنتائج هذه الدراسة كان رجلًا، رجلًا «طائشًا».
ما تعريف الخيانة؟ وما أكثر ما يهم، الإخلاص للنفس أم للشخص الآخر؟
أسئلةٌ كثيرةٌ تحمل أسئلةً متناقضة...
كان صديقه. وإشبينه. يا لهذه المعادلة المبتذلة! كيف تجرأت؟
اطلبي منه أن يسامحك، يا شيرين.

وهل من ذنب حقًا ليسامحني عليه؟ وإذا افترضنا أني فعلًا مذنبة، فهل أريده أن يسامحني؟

هل أنا نادمةً على ما فعلته؟ كلا. هل أشعر أني منحطة؟ نعم. لكن لأني اقترفت شيئًا واحدًا فقط: الأكاذيب. الأكاذيب التي تترافق غالبًا مع جري المرء وراء اندفاعاته عوضًا من عقله.

ها صوته الهادئ، مجددًا.

- هل أنت مغرمةً به؟

- كلا.

- ليش لكن يا شيرين؟

نعم، ليش؟ لم يكن فادي يعجبني حتى. كان نرجسيًا تمامًا خارج السرير، في حين أن فؤادًا نرجسيّ تمامًا داخله. كانا أحدهما يكمل نواقص الآخر على أفضل نحو، ولكن أيًا منهما لم يكمل الفراغ الموجود في داخلي.

الأسرة. أربعةُ أمتارٍ مربعة من النعيم والجحيم، حيث وعودٌ كثيرة تُبرم وتُنتهك. محيطٌ هائج من التقلّبات، نعم ولا، لا ونعم. كان فؤاد الجبل الجليدي في سريرنا، وأنا سفينة التايتانيك. أينا أغرق الآخر يا ترى؟ لماذا يا شيرين؟

لا تقولي إن الجنس هو السبب. الجنس ليس إلا غطاء... غطاء لذلك البحث اليائس عن الأحدية، ذلك التوق إلى نسيان وحدتنا المتأصلة فينا.

لو أن فؤادًا كان عاشقًا فراعيًا لمشاعري، أكنتُ لأخونه على رغم ذلك؟ قوليها يا شيرين، قولي. أتحداك أن تفعلي.

نعم.

كلا.

نعم.

هي الإثارة أكثر من الفعل نفسه، ما دفعني إلى ذلك. تلك الطاقة الفسكرة التي تجعل المرء أكثر قدرةً على احتمال الحياة.

الذنب ذنب أمي. كم أحبت أن تجعل أبي تعيسًا. وكم أنني نسخة مصغرة منها.

كفي عن لوم أمك على عيوبك. لكلٍّ منكما عيوبه. لم تعودي طفلةً.

اكبري يا شيرين.

أيجدر بي أن أكبر؟

الإجابة كامنةٌ في أحشائك.

أيُقدم جميع الأشخاص على الخيانة؟ هناك إحصاءاتٌ تتناول هذا الموضوع، لكني لا أثق بها. هل الإخلاص لشريكٍ واحدٍ أمرٌ ممكن؟ أعني إخلاص المرء بملء إرادته لشريكٍ واحد، لا الإخلاص الإلزامي، المصطنع، من النوع الذي يقوم على مبدأ «لا يمكنني أن أفعل هذا به/ بها».

ذلك الشعور بأنّ شخصًا ما، بكليته، يكفينا، من دون بذل عناءٍ أو جهدٍ إضافي. لا ريب في أنه شعورٌ ساحرٌ، مُسكر. هل أشعر به يومًا؟

قرأتُ أنّ الأجنة تتأثر بتجارب أمهاتها في مرحلة الحمل. أيعني هذا أنّي قد أنجب زانيًا بالفطرة؟ لحسن الحظ أنه صبي. فالحياة أسهل على الرجل الخائن في هذه البقعة من العالم.

تبًا لهذه البقعة من العالم. كم هي منافقة، قاتلة، جبانة، وظالمة.

قرّر فؤاد أن يسميه بولس، تيمنًا بوالده. بدأ يدعوه بولس مباشرةً في عيادة الطبيب النسائي، بمجرد أن كشفت الصورة الصوتية عن جنس الجنين. كان يفيض فخرًا واعتزازًا.

كان يعلم أنّي أتمنى أن أرزق بفتاة. حاول أن يواسيني فقال إنه سيسمّي ابنتنا الأولى تيمنًا بوالدتي. «اسمها جميلٌ جدًا. ذات يوم، سنزور ميسان معًا. سنزور الأرض المقدسة أيضًا، بعد أن نطرد الإسرائيليين خارجًا».

كم كان يجهلني. وكم من حواجز بنيتها لئلا يعرفني جيدًا.

– أفضل أن أسميها سيرون، تيمنًا بجدّتي.

عقد حاجبيه. لم يكن يريد أن يطلق على ابنته اسمًا غير عربي. فسأل: «ماذا عن جميلة؟ ألم تقولي لي مرّة إن سيرون معناه جميلة؟ هذا هو اسم جدتك على تذكرتها اللبنانية. إذًا الاسمان متشابهان، أليس كذلك؟»

كلّ شيء يتشابه يا فؤاد. ولا شيء يتشابه.

– ما هو ذلك الاسم الذي ذكَرْتِهِ، يا نينة ؟ ألمظ؟

في ذلك اليوم، دعتها أمل، شريكتها في البوتيك الذي كانت قد فتحته حديثًا في حلب، وصديقتها الوحيدة في تلك البلدة، إلى الاحتفال بعيد ميلاد جدتها لأبيها التي ستبلغ المئة هذا العام. كانت للمرأة العجوز شخصيةٌ فريدةٌ فعلًا. التقتها شيرين، قبلًا، خلال إحدى زياراتها لمنزل أمل. كانت تركيةً من أضنة، تزوجت سوريًا من حلب. توفّي زوجها وأربعة من أولادها. وُلدتْ في العام 1896، وشهدتْ على الكثير مما أصاب عالمنا في القرن العشرين.

كانت شيرين متحيزةً ضد الأتراك تحيزًا ثابتًا لا يتزعزع. لكن، من الصعب عليها ألّا تحبّ ألمظ. فقد كانت سليمة العقل على نحوٍ مفاجئٍ بالنسبة إلى امرأةٍ في المئة من عمرها. كما أنها تمتّعتْ بذاكرةٍ مدهشة، وكان في مقدورها أن تتلو القرآن عن ظهر قلب، ناهيك عن مئاتٍ من الأبيات الشعريّة أيضًا. زِدْ على ذلك أنها كانت مرحةً وخفيفة الظلّ. بعد انتهاء التقليد السنوي، وقطعِ قالب الحلوى الذي أصرّت على خَبْزه بنفسها، أجلستْ شيرين بالقرب منها وبدأتْ تقصّ عليها قصّة حياتها. قالت للمرأة الشابة: «تعالَي، دعيني أضجركِ. إنّه عيد ميلادي ومن حقّي أن أختار ضحيةً جديدة». تُشجّعها هذه المناسبة المميزة على استعادة الذكريات، ولا ريب في أنّ ذكريات ألمظ وافرةٌ جدًا. ابتسمتْ شيرين. لم تعرف لِمَ اختارتها من بين سائر الأشخاص الذين حضروا حفلتها. لربَما كانت مجرّد مصادفة.

ولربما لم تكن.

لم تكن شيرين ترهف السمع فعلًا، بل كانت مستغرقةً في التفكير في مجموعة الصيف الجديدة التي كان يجدر بها تحضيرها الشهر الماضي. فكّرتْ أيضًا في الطفل الجديد الذي ينمو في أحشائها. قال لها الطبيب النسائي أمس «إنّها فتاة». فجأةً، انتشلها اسمٌ، وقعُه مألوفٌ في قصة العجوز، من أحلامها.

«ما هو ذلك الاسم الذي ذكرتِه؟» اضطرتْ إلى أن تكرّر سؤالها بصوتٍ أعلى، وخصوصًا أنّ ألمظ كانت تعاني مشاكل في السمع.

– بشير كيزلار آغا. أحد أكثر الرجال وحشيةً الذين عرفتُهم في حياتي. وقد عرفتُ عددًا لا بأس به منهم.

كان اسمًا محفوظًا في ذاكرة شيرين، مذ كانت طفلةً، برغم أنّها لم تتذكّره قبل هذه اللحظة قطّ. فجأةً، شعرتْ بأنّها عادت طفلةً في السادسة من عمرها، جالسةً في منزل جدتها تاتيكي، تسمعها تتمتم بينما تلتقط قطع الزجاج المكسور عن الأرض: «مجرمٌ كلّ مَن يحمل اسم بشير».

– مَن كان هذا يا نينة؟

أخبَرَتْها ألمظ كلّ شيء. حكت لها عن عمليات الخطف، والاستغلال، والاغتصاب. أخبرتْها عن تلك القصص الشائعة التي كانت لسان حال الكثيرات من النساء الأرمنيات في العام 1915. كانت شيرين قد أجرت الكثير من الأبحاث، وقرأت كتبًا لا تُعَدّ ولا تُحصى عن مذبحة الأرمن، لكن بقيتْ هناك ثُغَرٌ لم يتمكّن أحدٌ من ملئها، ولا سيما أنّ أمّها ميسان لم تخبرها إلّا القليل القليل. لذا، كان سماع الخبر من شخصٍ شهد بنفسه أهوال ما جرى، أمرًا لا يُقدَّر بثمن، ومؤلمًا أشدّ الإيلام. بالكاد كانت شيرين قادرةً على مغالبة دموعها.

كان من الصعب عليها أن تسامح النظام السوري على ما فعله في لبنان، والإسرائيليين على ما يستمزون بفعله في وطن جدها، فلسطين.

لكنها، مع ذلك، تمكّنت من التحلّي بدرجةٍ من المنطق والتعقّل عند التفكير في هذه النزاعات.

فالمذنب كان نظام الأسد الإجرامي، لا جميع أفراد الشعب السوري... والصهاينة المتطرّفين (والدول الغربية المتحالفة معهم)، لا اليهود جميعهم. أمّا الأتراك، فقصّةٌ أخرى. كانت تكرههم كرهًا مطلقًا، بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ جارفةٍ لا تتزحزح. وقد رفعت لواء وصمتها ضدهم عاليًا من دون أيّ إحساسٍ بالذنب.

«مجرمٌ كلّ مَن يحمل اسم بشير».

أكانت جدّتها إحدى ضحايا هذا الرجل؟ ألهذا قالت ما قالته في ذلك اليوم؟ لا يُعقَل أن يكون مثل هذا الأمر قد حصل. فالتواريخ لا يتناسب بعضها مع بعض. كانت بطاقة هويّة سيرون اللبنانية معها. سرَقَتْها من حقيبة يد أمّها الجلدية السوداء، وقد ذُكِرَ فيها بوضوح أنّها من مواليد 1912. بالتالي، لم تكن إلّا طفلةً صغيرة في العام 1915.

لكنّ الاسم كان نفسه بالضبط: بشير كيزلار آغا. لربّما أخطأوا في تسجيل تاريخ ميلاد جدّتها، تمامًا كما فعلوا باسمها.

– جدّتي كانت تُدعى سيرون وكانت أرمنية. هل تذكرين امرأةً اسمها سيرون بين النساء المخطوفات اللواتي التقيتِ بهنّ في قصر هذا الكولونيل؟

– كلّا، لم يكن من امرأةٍ بهذا الاسم.

– هل أنتِ متأكّدة؟ لعلّها كانت هناك ولم تكوني تعرفينها.

– طبعًا أنا متأكّدة! كنتُ أعرفهنّ كلّهنّ. وهذا الاسم ليس شائعًا. كان ليلفتني.

كانت شيرين على وشك تبديد شكوكها، عندما تداركتْ ألمظ فجأةً، بعد دقيقةٍ من الصمت، قائلةً: «لحظة...»

كاد نفَس شيرين أن ينقطع: «نعم؟!»

– تذكرتُ الآن... كانت هناك طفلةٌ صغيرةٌ لطيفة اسمها سيرون. كانت ابنة إحدى السبايا الأرمنيات.

بدا الأمر أكثر منطقيةً وتناسبًا مع الفارق الزمني. هل كانت شيرين على وشك اكتشافِ سرٍّ كبيرٍ عن جدتها؟ كانت سيرون تستحوذ على تفكيرها. تتحدث معها كلّما شعرتْ بالحيرة، وبأنها في حاجةٍ إلى من يوجهها. في الواقع، كانت علاقتها السيئة بأمها قد جعلت سيرون أمًّا حقيقيةً في حياتها.

قبل أن تنتحر سيرون بيومٍ واحد، قالت لها: «أريدكِ أن تحتفظي بهذه. إنها التذكار الوحيد الذي بقي لي من أمي».

أمسكتْ جدتها يومذاك بالقلادة الفولاذية المعلّقة دائمًا حول عنقها، تلك التي لطالما لعبتْ بها شيرين كلّما جلستْ في حضنها. نزعتْها عنها ووضعتْها بين يدَي حفيدتها. تذكر شيرين أنها سألتها في تلك اللحظة:

– ما كان اسم أمكِ يا تاتيكي؟

– كان اسمها مارين، وأبي كان يُدعى نظار.

فجأةً، عادت سيرون طفلةً في الثانية من عمرها، تتلو بتفانٍ والتزام، الكلمات التي علّمتْها إياها شقيقتها أوسانا.

«اسمي سيرون صزافيان ووُلدتُ في عنتاب. أبي إسكافيٌ وأمي خياطة».

ثم ما لبثت أن صححتْ كلامها:

– كان. كان. أبي كان إسكافيًا وأمي كانت خياطة.

– أريد أن أكون خياطة أيضًا يا تاتيكي! مثلكِ تمامًا!

– ومثل أمكِ! إنها خياطة ماهرة! أليست هي من خاطت لكِ هذا الثوب الجميل؟

تجاهلتْ سيرون الملاحظة الأخيرة. ثم سألتْ جدتها:

– ألديكِ أشقاء يا تاتيكي؟

كانت مهووسةً بالأشقاء.

ترددتْ سيرون ثم قالت:

– نعم، Sirelis، كان لديَّ شقيقان. هاغوب ونرسيس. وكانت لديَّ شقيقتان أيضًا. ماريا وأوسانا. في الواقع، هذه القلادة تحتوي على خصلٍ من شعرهم جميعًا، وشعري أيضًا.

– أكان شعرهم أحمر، مثلكِ ومثلي؟

– كلّا Hokis [2]. كان شعرهم أسود مائلًا إلى الزرقة، مثل شعر أفكِ ونجاة.

– أين هم جميعًا الآن؟ هل يمكنني أن ألتقي بهم؟

صمتتْ سيرون لدقيقة، ثم غيرت الموضوع لتتحدث عن القلادة من جديد.

– إذًا، كما قلتُ لكِ، هذه القلادة هديّتي إليكِ. هكذا، ستتذكّرينني دومًا إذا حدث لي أيّ مكروه. لكن يجب أن تعديني بشيء.

– ما هو؟

– ألّا تفتحيها أبدًا.

– لماذا؟

– لأنّكِ إذا فعلتِ، فسيتطاير كلّ أشقائي وشقيقاتي منها، ولن نعثر عليهم ثانيةً.

– أعدكِ بذلك يا تاتيكي.

هنا، تدخلتْ ميسان:

– توقّفي عن التحدث على هذا النحو، مايريغ. لن يحدث لكِ شيء. سلامة قلبكِ.

لا تزال شيرين تذكر جيدًا عينَي ميسان في ذلك اليوم. كانتا حمراوين، تشبهان حبتَي زبيب أحمر. عندما وصلتا إلى منزل جدّتها، جلست المرأتان في المطبخ وهما تتهامسان مطوّلًا، في حين بقيتْ شيرين في غرفة المعيشة تلعب مع هز الجيران الذي غالبًا ما كان

يتسلّل إلى البيت من الشرفة. بعد ساعة، خرجتا من المطبخ، وكانت عينا ميسان متورّمتين.

بعد أسبوعين على موت جدّتها، طالبت شيرين والدتها بالقلادة.

– أين هي؟ أرادت تاتيكي أن أحصل عليها.

– لقد أخذتُها منكِ في ذلك اليوم، ألا تذكرين؟ سأُبقيها في مكانٍ ما لئلّا تفقديها.

– لن أفقدها. أريدها، وأريدها الآن!

لعلّ تلك المرّة كانت الوحيدة التي واجهت فيها أمّها فعلًا.

فجأةً، ردّ صوت ألمظ شيرين إلى الحاضر.

– نعم، أذكر سيرون جيّدًا جدًا. حاولت أمّها الفرار، فقتلوها. يا للمرأة المسكينة. لكن قيل لي إنّ الفتاة الصغيرة تمكّنت من النجاة.

اغرورقت عينا ألمظ بالدموع وتابعت: «اعتنيتُ بأصلان لثلاث سنوات قبل أن أتزوّج وأغادر القصر. بكيتُ كثيرًا عندما غادرتُ».

كانت الحكاية كلّها مُربكة جدًا. مَن كان أصلان؟ لعلّ ألمظ ليست سليمة العقل، واعية، كما يبدو عليها. لعلّها تخلط بين قصص مختلفة.

– مَن هو أصلان، نينة ألمظ؟

– إنّه أخو سيرون غير الشقيق. الابن الذي أنجبته مارين من بشير كيزلار آغا.

ثمّ حانت من ألمظ نظرةٌ إلى شيرين، فلمعت عيناها، لكأنّها كانت تراها للمرّة الأولى:

– كان لسيرون وأصلان شعرٌ أصهب، مثلكِ تمامًا!

هرعت شيرين إلى الحمّام وأغلقت الباب. كان عليها أن تفتح القلادة بأيّ ثمن. لا خيار آخر أمامها. لا شكّ في أنّ جدّتها ستسامحها على ذلك.

كانت يداها ترتجفان بينما تفتح القلادة. وجدت فيها خُصَل شعرٍ عدّة، تمامًا كما كانت سيرون قد أخبرتها، كلٌّ منها مربوط بخيط

مطاطي.

أحصتها كلّها. كان المجموع ست خُصَل.

ست خُصَل، لا خمس.

أربعُ خُصَلٍ سوداء مائلة إلى الزرقة، واثنتان حمراوان.

بيروت – الثلاثاء 3 شباط 2004

متى بدأتُ أكرهه؟

على الأرجح عندما سامحني قبل اثنتي عشرة سنة، يوم ولد بولس. حاولتُ جاهدةً أن تكون علاقتنا ناجحة. حاولتُ طوال خمس سنوات. لكنّ هذه الجهود باتت تكلفني سلامتي العقلية واحترامي لنفسي، فتوقّفتُ عن ذلك. تمامًا بعد أن أنجبتُ سيرون. يسمّي ابنتنا جميلة وأسمّيها أنا سيرون. حرصتُ على أن تحمل كلا الاسمين على شهادة ميلادها، فوافق، طالما أن اسم جميلة سيكتَب أولًا. جميلة سيرون اليازجي. لديّ اليوم طفلان من رجلٍ لا يجمعني به أيّ شيءٍ آخر على الإطلاق.

وحدها بيروت كانت خلاصي. المدينة التي لطالما رفضتُ الانتماء إليها، أصبحت أخيرًا ملاذي. أعرف أن فؤاد يشكّ في الأسباب التي تجعلني أرغب في زيارتها بهذه الكثرة. لا أنفكّ أخبره أني أريد الاطمئنان على والدي. وأنّ زوج نينا ضربها من جديد وهي في حاجة إلى دعمي. وأني أريد حضور عرض أزياء أو لقاء زبونةٍ محتملة. لكني أعرف أنه يعرف. وقد حزّرتني هذه المعرفة من الشعور بأنّي أكذب عليه. في بعض الأحيان، أعتقد أنّه يريدني أن أكذب عليه. أنا متأكدةٌ من أنه يفترض أني أقيم علاقات. لكنّ هذا غير صحيح.

أنا بالأحرى أجري تجارب. تجارب جيّدة. تجارب سيّئة. تجارب يمكن الاعتراف بها. وأخرى لا. تجارب مع رجال. تجارب مع نساء. في الواقع، أجريتُ تجربةً واحدةً من النوع الأخير. مع امرأةٍ واحدةٍ فقط. هكذا اكتشفتُ أن ذلك لا يروق لي.

بيروت. الحزنة. الاحتمالات. قوة امرأة تريد أن تجزب كلّ شيء ولا تخجل من ذلك.
هل أنا أكثر سعادة اليوم؟
لا.
لكن أصبح باستطاعتي أن أنسى، بدرجةٍ أكبر، إلى أيّ مدى أنا تعيسة.

ركع أمامها، ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال: «بتتجوزيني؟»

كانا عاريين، وقد لف ذراعيه القويتين، المفتولتي العضلات، حول ركبتيها. كلّما نظرتْ إلى هاتين الذراعين، فكّرت أنهما أشبه بـ«ذراعَي عامل بناء».

سألته أكثر من مرّة: «كيف أصبحتْ لك هاتان الذراعان؟ أنتَ مثقفٌ وعضلتك الأقوى هي دماغك!»

– إيّاكِ والاستخفاف بقدرة المغرورين على نفخ أنفسهم!

لم يكن عُمَر يحبّ المثقفين. كان يعتقد أنهم من أكثر الأجناس غرورًا وغطرسةً على الأرض. لعلّه لم يكن ليقسو عليهم إلى هذا الحد لو لم يكن قاسيًا على نفسه أيضًا.

– هل تتزوجينني؟

كان سؤاله مفاجئًا إلى درجة أن شيرين احتاجت إلى دقيقةٍ كي تدرك ما الذي كان يقوله فعلًا. لتدرك ضخامة هذا الأمر. شعرتْ برغبةٍ عارمةٍ في أن توافق – وفي أن توافق بأعلى الصوت – على الرغم من كلّ شكوكها في هذا المفهوم، وفي هذه المؤسسة عمومًا. لكنها لم تجرؤ على أخذه مأخذ الجد. فماذا لو كان يمازحها؟ كانت قد أخبرته أنّ أحدًا لم يعرض عليها الزواج قط. لربما كان يحاول أن يسخر منها فقط. إنهما معًا منذ سنتين. في الواقع، ليسا «معًا» فعلًا، بل على علاقة، كونهما يعيشان حياتين منفصلتَين، في مدينتين منفصلتَين، في بلدَين منفصلَين.

ق. ع. (. B.O)، هي الصيغة التي أصبحت تستخدمها للإشارة إلى حياتها قبل غمر. كانت تعتقد أن هذه هي المعادلة المثلى. فكلما كانت المسافة الفاصلة بين عاشقين أكبر، أصبحت العلاقة أفضل وأطول. وإذا صادفت من يشكك في رأيها هذا، سردت عليه ما قاله جبران خليل جبران: «اتركا بينكما بعض فسحات لترقص فيها رياح السموات».

أما ب.ع. (بعد غمر)، فقد تغير كلّ شيء. فسحات؟ أيّ فسحاتٍ؟ لو استطاعت أن تخيط نفسها به، لَما ترددت. جوانبُ كثيرةٌ من نمط تفكيرها انقلبت رأسا على عقب. «كنتُ مجزد جبانة». معه، عرفَت الحريّة الأهم. معه لم تعد تكذب على نفسها. معه، اكتشفت أنّ «شخصا واحدا بكلّيته، يكفينا، من دون بذل أيّ عناءٍ أو جهدٍ إضافي».

أحيانًا، كانت تطلق تنهيدةً وتسأله: «غمر، أما كان في إمكاننا أن نلتقي قبلًا؟»

فيجيبها دومًا، وهو يطبع قبلةً على كتفها: «الحب لا يعرف توقيتًا مثاليًا». قبلتهُ هذه، والطقس الذي كان يعتمده كلّ صباح، عندما يخلع عنها جواربها القطنية، شكّلا روتينًا عشقته. أذهلها كم أحبتْ ذلك كلّه، هي التي تمقت الكلمات المبتذَلة والتصرفات المبرمجة.

«أسمعتِ ما قلتهُ؟» كان لا يزال جاثمًا على ركبتيه، وهو ينظر في عينيها، ورأسهُ مائلٌ قليلًا إلى الوراء. ضحكتْ بعصبيةٍ وهي تداعب رأسه، ثمّ قالت: «أنا متزوّجة يا أخوَت!»

لكنه تجاهل ردّها وكرّر: «هل تتزوّجينني، شيرين برصوم؟»

تعمّد أن يخاطبها باسمها ما قبل الزواج. وهو الاسم نفسه الذي استخدمته عندما أطلقتْ دار أزيائها. برصوم، لا البازجي. عندما رأى فؤاد البطاقات على الملابس، بدت عليه علامات الانقباض والغضب.

ثمّ أضاف غمر: «أنا أتحدث جدّيًا».

أنبأه حدسه بما كانت تفكر. لطالما فعل ذلك. كان ذلك مُسكِرًا لها، لكن مخيفًا أيضًا؛ فكم من مرةٍ صرخت بغيظ: «اطلع من راسي». في الوقت نفسه، غمرها شعورٌ هائلٌ بالتحرر، وقد أيقنت أنه ليس في إمكانها أن تخفي عنه شيئًا.

كانت لا تزال مترددةً. هل تأخذه على محمل الجد أم لا؟

– لطالما قلتَ إنك لا تؤمن بالزواج!

– هذا صحيح. لكني أؤمن بالزواج بكِ أنتِ.

– حسنٌ إذًا.

– حسنٌ إذًا؟ أيُّ نوعٍ من الإجابات هو هذا؟ أنا لا أطلب منكِ أن تبتري رجلكِ!

أحبت حس الدعابة لديه، خصوصًا في مثل هذه الأوقات غير الملائمة، عندما يكونان في خضمّ مناقشةِ أمورٍ حساسةٍ أو شائكة. فقد ساعدها ذلك على التخفيف من توتّرها.

– أقصد نعم! نعم يا مجنون! طبعًا سأتزوّجك!

ثم أضافت بدلال: «أعرف بالضبط ثوب أيِّ مصمّمةٍ سألبس في يوم زفافي».

– جيد. ومتى ستهجرينه؟

كان دائمًا ما يشير إلى زوجها بضمير الغائب. لم يلفظ اسمه مرةً.

متى ستهجره؟ ها قد طرح عليها السؤال الشائك مباشرةً. كان غمَر رجلًا يحبّ الطرق المختصرة، فلا يلفّ ولا يدور طالما بإمكانه بلوغ هدفه بسلوك الطريق المستقيم والمباشر. طرح عليها هذا السؤال مراتٍ عدّة في السابق، لكن من دون أن يتطرّق إلى القسم المتعلق بـ«الزواج».

– سبق وقلتُ لك. ليس قبل أن يكبر الولدان.

وقف ثم ارتدى سرواله الداخلي من جديد. «الولدان؟ يكبران؟ إنهما كبيران فعلًا! أنتِ تقترفين في حقهما ما تمنّيتِ ألّا يفعله والداكِ

بك».

– كلا، الأمر ليس ذاته. فوالدهما وأنا لا نتشاجر أو نتبادل الصراخ.

– وما الفرق؟ هما يعرفان أنكما منفصلان. الأطفال يعرفون هذه الأمور دومًا، مهما حاول أهلهم جاهدين أن يخفوها عنهم. أنتِ تستخدمينهما كحجة يا شيرين!

علمتْ أنه مصيبٌ في كلامه. شعرتْ بالخزي لتأخرها في اتّخاذ القرار. هي التي لطالما تباهت بأنها امرأةٌ حازمةٌ ومستقلّة، هي التي لطالما انتقدتْ مَن يرضخ بالعيش في علاقةٍ زوجيةٍ فاشلة.

إلى ذلك، كانت مستقلّةً ماديًا. عرفتْ نساءً كثيراتٍ اضطررن إلى تحمّل أزواجهنّ بسبب المال، لكنّ شيرين كانت تجني ما يكفي من عملها الناجح كمصمّمة أزياء لكي تعيش مرتاحة وحدها. حتى والدتها نصحتها بهجر فؤاد. «الحياة قصيرةٌ جدًا يا بنتي». كانت علاقتها بميسان قد انقلبتْ تمامًا بعد أن تصارحتا بما في مكنونات صدريهما؛ بعد أن رأت أخيرًا أمورًا كثيرة كانت ترفض رؤيتها. «تحمّلتُ ما لا يُحتمل بسببكِ». الأطفال يروّضون أمهاتهم فعلًا.

– أنتَ تعرف كم يمكنه أن يصبح شرّيرًا! لن يسمح لي برؤيتهما بعد ذلك.

لم ينبس عُمَر ببنت شفة. اكتفى بالجلوس بوجهٍ متجهّم.

– اسمعني يا حبيبي. سيغادر بولس إلى الولايات المتحدة خلال ثلاث سنوات. يريد أن يدرس المحاماة في جامعة ديوك. وأنا متأكدة من أنه سيُقبَل في الجامعة. إنه عبقري، وفي إمكان والده أن يتحمّل تكاليف دراسته بكلّ تأكيد. لكنّي أعرف فؤادًا. لن يرسل ابنته إلى أميركا. سمعتُهُ مرّةً يقول لأمه إنه يريد لسيرون أن تتسجّل في برنامج شهادة البكالوريا الدولية، كتلميذةٍ في مدرسةٍ داخليةٍ في الإنترناشونال كولدج في بيروت، لأنّ هذا الأمر سيزيد من فرص قبولها في الجامعة الأميركية في بيروت.

«ستصبح جميلة طبيبة أسنان، مثلي تمامًا»، قالت مقلّدةً زوجها بنبرةٍ حاقدة.

كانت تحلم بأن تتولّى ابنتها زمام عملها في دار الأزياء ذات يوم، لكنها كانت حكيمةً بما يكفي لتترك لها حزنة القرار في الوقت المناسب.

أكملت: «بالتالي، بمجرّد أن تنتقل إلى بيروت، سأطلب منه الطلاق وأنضمّ إليها هنا. تذكّر هذا التاريخ: 19 تموز 2012».

– تاريخ ماذا؟

– تاريخ تخرّج سيرون من الصفّ العاشر في حلب، لتصبح بعدها مؤهّلة للمشاركة في برنامج شهادة البكالوريا الدولية في بيروت! اليوم الأوّل من حياتنا الجديدة معًا.

– هل أنتِ مجنونة؟ ذلك لن يكون قبل خمس سنوات!

– وأين المشكلة؟

مجدّدًا، لا جواب. بدأتْ تقلق. هل هو مستعجل لأنه يريد أطفالًا؟ لطالما قال إنّه لا يريد طفلًا، لا بل كانت له نظريةٌ مطوّلةٌ عن ضرورة توقّف الناس عن الإنجاب. لكن، لعلّه غيّرَ رأيه في شأن ذلك أيضًا.

– هل تريد طفلًا؟

– طبعًا لا!

تنفّست الصعداء وقد شعرتْ بالارتياح.

– إذًا، لِمَ العجلة؟ أنا هنا ولن أذهب إلى أيّ مكانٍ. كما أنّي أمضي كلّ عطلات نهاية الأسبوع معك تقريبًا، أليس كذلك؟

– لم أعد أريد أن أكون رجل نهاية الأسبوع بالنسبة إليك يا شيرين.

حلب – الثلاثاء 25 كانون الأول 2007

اليوم عيد الميلاد. اتّصلت بي أمّي للتوّ. نجاة ماتت. رمت بنفسها أمس من الطابق الثالث من المبنى المحبوسة فيه في دير الصليب. للوهلة

الأولى، فكرْتُ: «أخيرًا، صار في إمكانها أن ترتاح». فظيعٌ أن أقول هذا، لكنها الحقيقة. حياتها كلّها لم تكن إلّا رحلةً من العذاب المستمرّ، ولا سيما بعد حبسها القسري. خمسٌ وعشرون سنةً طويلة أمضتها عقوبةً لجريمةٍ لم تختر أن تقترفها: جريمة أن يولد المرء مختلفًا.
توسلتُ إلى أمي أن أُبقي مسألة انتحارها سرًّا. يجب ألّا يعرف أحد. وشددتُ: «بالتحديد أبونا مروان»، ذلك الكاهن الكاثوليكي النكد الذي كانت من رعيته، والذي كان سيشرف على مراسم الجنازة. مع أن أمي كانت قد أصبحت أشوريةً على الورق بعد زواجها من أبي، إلا أنها بقيت تحضر القداس في كنيسة الروم الكاثوليك المجاورة. كان الأب مروان صارمًا، ومن المحتمل أن يحرم نجاة من دفنٍ كنسي لأنها أقدمت على الانتحار. أمّا سلفه، أبونا الياس، الذي كان قد أشرف على جنازة سيرون، فكان أكثر تسامحًا وانفتاحًا بكثير. يومذاك، أخبر ميسان وباسفًا: «ومَن نكون نحن لنحكم على إحدى بنات الله؟».
كنتُ على وشك القول: «سحقًا للأب مروان، ولكلّ مَن يعتبر اليأس خطيئةً مميتة»، لكنّي تمالكتُ أعصابي. لم يكن ثمّة لزومٌ لأتسبب لأمي بمزيدٍ من الإزعاج في مثل ذلك الوقت العصيب.
لماذا يدين الكثير من الأشخاص الانتحار، أو يعتبرونه من المحرمات، أو عملًا جبانًا؟ أليس ضربًا من الشجاعة أن يعلن المرء من تلقاء نفسه أنه «آن أوان الرحيل؟» وهذا لا يقلّ شجاعةً، في أيّ شكلٍ من الأشكال، عن «قرار البقاء على الرغم من كلّ شيء». يميل الناس إلى الاعتقاد أن أولئك الذين ينتحرون يعيشون حالًا موقّتةً من الجنون؛ وأنهم لا يكونون واعين لما يفعلونه، وقد أسرفوا في اليأس. لكن الانتحار فعلٌ واعٍ بامتياز؛ فلا يمكنك أن تقتل نفسك من دون أن يكون وعيك شريكًا في جريمة قتلك كحدّ أدنى، إن لم نقل العقل المدبّر لهذه الجريمة.
الاستمرار في العيش أشبه بالاستسلام لحالٍ من الوجود لم نختزها بملء إرادتنا. أمّا اتخاذ قرار الموت، فهو قبول التحدي، هو رفض

الانصياع لإسقاطاتٍ متطرفة، هو استرداد حقّ الاختيار، في حياةٍ إكراهيةٍ في جوهرها.
أيهما أكثر شجاعةً، إذًا؟ أن نوصد ذلك الباب بأنفسنا، أم أن ننتظر ريثما يوصد في وجهنا، ونحن على يقينٍ من أن ذلك اليوم آتٍ لا محالة؟
وداعًا، نجاة.

كان يومًا حارًا في أواخر شهر أيار من العام 2012، والوقت يمرّ في حلب متثاقلًا وسميكًا، لكأنه مجبولٌ بالوحل. لم يعبر بسلاسة، بل تدحرج فوقها كصخرةٍ عملاقة، تسحق ظهرها مزةً تلو مزة.

كانت شرارة الحرب الأهلية السورية قد اندلعت قبل نحو سنة. فالتظاهرات السلمية التي انطلقت ضد نظام الأسد في كانون الثاني 2011 تحولت، تدريجًا، إلى العنف، عندما بدأت الحكومة تقتل المتظاهرين العزل في درعا ومدنٍ أخرى. في حلول يوم الجمعة 22 نيسان، استحالت التظاهرات حربًا رسمية، ولا سيما بعد فتك القوى الأمنية بأكثر من 109 متظاهرين عزل في أكثر من عشرين بلدةً في مختلف أنحاء سوريا، وبدأت المعارضة بالتسلّح. فكّرت شيرين: «نيسان آخر يمرّ علينا حاملًا معه حربًا أخرى». أليس من الغريب أن الحروب كلّها التي شهدتها أسرتها، بدءًا من جذتها سيرون، قد انطلقت في نيسان؟

لكنّ شيرين كانت معتادةً على كلّ ما هو «غريب». فالقَدَر، في مطلق الأحوال، غريبٌ دومًا. وقد أضحى قبول التناقضات كروتينٍ يوميٍ في حياتها قوّتها الخارقة.

في الآونة الأخيرة، حاولت أن تتجاهل نشرات الأخبار. لم يصعب عليها ذلك كثيرًا. فالحرب هذه لم تحمل «أخبارًا جديدةً» حقيقيةً فعلًا. بل إنها تعرف منذ الآن ما الذي سيحدث: مزيدٌ من الناس سيموتون في ذلك اليوم، مزيدٌ من البيوت ستدمَّر، ومزيدٌ من الأطفال سيتيتّمون و/أو يتحولون إلى جثث...

ماذا يفعل غفر الآن؟ هل ستراه مجدذا؟ كانت السنوات الخمس الماضية حلقةً مفرغةً من الانفصال واستئناف العلاقة من جديد... من دوّامة «لا أستطيع العيش معك، ولا أستطيع العيش من دونك». مع أنّ الحال الأخيرة كانت الغالبة في معظم الأحيان. هذه الحرب لا تسهّل عليهما الأمور. فمنذ العام الماضي، لم تعد تستطيع أن تزور بيروت بانتظامٍ كما كانت تفعل. باتت الرحلة محفوفةً بالمخاطر، وكلُ رحلةٍ أخطر من سابقتها. ثمّ ما لبثت أن تذكّرتْ ما كانت جدّتها الحبيبة سيرون تقول لها كي تواسيها في أيامها الحزينة: «لكلّ طريقٍ منعطف يا أميرتي؛ لكلّ طريقٍ منعطف».

– وأنتِ يا تاتيكي، متى سلكتِ منعطفكِ؟ هل نعمتِ باستراحةٍ يومًا؟

نعم، فعلتُ. استراحة دامت عشرة أشهر. تذكّرتْ شيرين ما روته لها أمها عن سيرون وآقي. فكّرتْ بسخرية: من الواضح أننا نحرز تقدمًا في مجال الحب من جيلٍ إلى آخر. استمتعتْ جدتي به عشرة أشهر، وأمي ثلاث سنوات، وأنا سبعًا حتى الآن. إذا حافظنا على هذه الوتيرة، فلربّما ستختبره إحدى حفيداتنا، قرابة القرن الثاني والعشرين، كاملًا، من دون أحداثٍ مأسويةٍ تعطّل مجراه.

حمدًا لله أنّ بولس غادر البلاد قبل سنتين، وإلّا كانوا أرغموه على الالتحاق بالجيش.

حثّت فؤادًا مرارًا وتكرارًا على إخراجهم من سوريا: «هذه الحرب تخرج عن السيطرة! يجب أن نرحل بدورنا». لكنه كان يرفض الإصغاء إليها. أمس، قالت له: «لِمَ لا نذهب إلى بيروت؟ ستجد عملًا هناك بكلّ سهولة، كما يمكن لجميلة أن تتابع دراستها في الإنترناشونال كولدج، لطالما تمنّتْ هذا».

تعمّدتْ استخدام جميلة عوضًا من سيرون كي تسايره. صحيحٌ أنّ الأمر لم يكن من شِيَمها، لكنها وجدتْ نفسها مضطرّةً إلى اللجوء إلى

كلَّ الوسائل المتوفّرة بغية إقناعه. لكنها لم تفلح.

– لماذا؟ كي تتسنى لكِ رؤية عشيقكِ أكثر؟

كان يحتقرها. صحيحٌ أنهما توصّلا إلى اتفاقٍ ضمنيٍ بالعيش منفصلَين، وأنه اتخذ له حبيبةً بشكلٍ رسمي، إلّا أنه لم يتمكّن من مسامحة شيرين. فهي التي خانته أوّلًا. هذا المجال حكرٌ على الرجال، وقد تجرّأت على سلبه هذه التجربة. كان يرفض أن يمنحها الطلاق. كانت تلك طريقته في معاقبتها. بطبيعة الحال، كان يعاقب نفسه في الوقت عينه. لكنه فضّل تحمّل البؤس على إرضائها ومنحها الحرّية التي تاقت إليها كلّ التوق. كان يحتقرها إلى هذا الحدّ.

– طلاق؟ احلمي!

– سنرى ماذا سيحدث عندما تطلب منك عشيقتك أن تتزوّجها.

كانت تحتقره أيضًا. لكنه لم يكن احتقارًا فحسب، بل كان شعورًا بالاشمئزاز أيضًا. بعد انطلاق الحرب الأهلية، أصبح مواليًا للأسد إلى حدٍّ كبير، شأنه شأن كثرٍ من السوريين المسيحيين الآخرين. فلطالما شعر هؤلاء، الذي كانوا يشكّلون إحدى الأقليات الدينية في البلاد، أنّ وضعهم مهدّد. لكأنّهم ضيوفٌ موقّتون في عقر أرضهم. فاقتنعوا بأنّ النظام المعادي للإسلاميين هو خير حمايةٍ لهم. واليوم أكثر من ذي قبل، في بلدٍ ونزاعٍ تشتدّ فيهما وطأة التطرّف الإسلامي بسرعةٍ رهيبة. بالنسبة إليهم، كان ضمان البقاء أهمّ من خضوعهم لحكم بشار الأسد، ذلك الطاغية ومجرم الحرب، تمامًا كما كان أبوه من قبله.

ومع أنها فهمت سبب اتّخاذ فؤاد لموقفه هذا، إلّا أنها لم تستطع أن تحمل نفسها على احترامه منذ ذلك الوقت.

إلى ذلك، هي لبنانية. وبالتالي، فإن كراهية سلالة الأسد كانت غريزةً شبه فطريةٍ بالنسبة إليها.

شغّلت شيرين جهاز التلفزيون، فوقعت، من جديد، على تلك الصور الباعثة على الاضطراب من المجزرة الأخيرة في الحولة. كانت جثث

الأطفال ممددةً على الأرض، معروضةً كأنها أكياس بطاطا. بقيت قنواتٌ عدة تعرض هذا المشهد المروّع على مدار الساعة منذ يوم أمس. متى تكف عن المتاجرة بالمعاناة الإنسانية كأنها سبقٌ صحافي؟ ولكن، أيجدر فعل ذلك حقًّا؟ كانت تلك هي معضلة الإعلام الأخلاقية الأبدية: ذلك التخبط بين واجب عرضِ واقعٍ مريرٍ من جهة، ومقتضيات الكرامة الإنسانية من جهةٍ أخرى. يزعم بعض الأشخاص أنّ «الإعلام مضاص دماء. يمتص دم ضحاياه إلى أن يجف تمامًا». لكن، هل كان هؤلاء ليفضّلوا العيش في نعيم متجاهلين ما يحدث حولهم؟ ربّما. أيختارون اللون الزهريّ الخادع على الأسوَد الكئيب؟ ألا يُعتبر ذلك شكلًا من أشكال الانغماس الذاتي والهوان المختبئَين وراء حجّة «احترام الكرامة الإنسانية»؟

في الواقع، على الناس أن يكونوا أكثر تعاسةً. أكثر هولًا. أكثر تأثّرًا بما يمكن أن يُخرجهم من لامبالاتهم المثيرة للغثيان. وليس على طفلٍ مذبوحٍ في الثالثة أن يعتذر عن إزعاج الناس وتكدير راحتهم، بل هم من يجب عليهم الاعتذار منه، ومن كلّ ضحيةٍ بريئةٍ غيره، على السماح بحدوث هذا. نعم، «السماح»: فالجمهور هو دومًا لاعبٌ في المسرحية، شريكٌ في الجريمة. لا بأس بالتظاهر والاستنكار والاعتراض والإدانة، لكنها لا، ولن تكفي. عوضًا من لوم الإعلام، «الرسول»، مهما كان ذلك الرسول «مجرَدًا من براءته» في أغلب الأحيان، حريّ بنا أن نركّز على المشكلة الحقيقية: «كيف نرتقي من مرتبة الكائن البشريّ إلى الإنسان؟»

«تبًّا لهذا اللهاث وراء السلطة الذي يقلب الإنسان على أخيه الإنسان، ويُحيلهما حيوانَين. لا، لن أقول حيوانين. فالحيوان أفضل منهما. الحيوان لا يقتل من دون سببٍ قاهر. يقتل فقط ليقتات أو ليحمي جِراءه. أمّا الإنسان، فيقتل ليرضي غروره». غرزتْ شيرين أظفارها في كفّيها، في واحدةٍ من ممارساتٍ مؤذيةٍ للذات اكتسبتْها

على مز السنوات. كم من أشخاصٍ أبرياء يدفعون بحياتهم ثمن إثمٍ لم يختاروا ارتكابه. إثم هؤيّاتهم القاتلة.

ثم كزرت بصوتٍ عالٍ، كما لو أنها تردد تعويذةً: «الحرب قَذري، وعليّ أن أتقبلها». كانت تريد أن تختبر وقع هذه الجملة المريعة على أذنيها، وجلدها، ورئتيها، ومعدتها، وحوضها، وغير ذلك من أعضاء جسمها. فقد اعتادت سمفونيّة القتال. كم من المريع أن يقول المرء أمرًا كهذا، أن يشعر به ويفكّر فيه. لكنه، مع ذلك، صحيح. فبعد سنواتٍ عدة من التدزب والعزلة، في لبنان أولًا، والآن في سوريا، باتت فعلًا معتادةً على سمفونية القتال. «معليش! الحرب دزبتني». هذا ما كانت تقوله لنينا التي كانت تتصل بها أسبوعيًا لتطمئن عليها، ولتشكو لها زوجها العنيف أيضًا.

نظرتْ إلى ساعتها. لم تكن قد تجاوزت الحادية عشرة صباحًا بعد. مع ذلك، شعرت بأنّ دهرًا مز منذ أن استيقظتْ على أخبار الذبح والمآسي. لم تشعر برغبةٍ في فعل شيء. بدت لها الكتب في غير محلّها الآن. ومخطّطات الأزياء غير ملائمةٍ للوضع، البتة.

«يجب أن أخرج من هذه الجحيم».

خطر لها مرارًا أن تأخذ ابنتها وتُخلّف كلّ شيءٍ وراءها. قلّما يهمّها الطلاق. ستنتقل إلى العيش مع عُمَر. الأوراق لا تعني شيئًا. فالزواج الحقيقي هو التزامٌ بين شخصين. يسمّي الكثيرون ذلك، في هذه البقعة من العالم، «العيش في الخطيئة». لكنها لا تبالي بما يقوله الناس أو يفكّرون فيه. إنّما كان هناك عائقٌ واحدٌ، عائقٌ كبير، يحول دون تنفيذ هذا الاحتمال: فكما فعلت شيرين الصغيرة مع والديها، كذلك انحازت سيرون إلى أبيها. لم تكن سيرون قد تجاوزت العاشرة عندما أفصح أبوها لها ولأخيها بكلّ شيء، انتقامًا من طلب شيرين الطلاق. إلى هذا الحد كان زوجها ضعيفًا، عاجزًا عن الانتقام إلّا بهذا الأسلوب الدنيء المجحف. يومذاك، اكتفى بولس بالقول، وهو الذي بالكاد

انسجم مع أبيه: «الذنب ذنبكِ بكلّ تأكيد». أمّا ابنتها، فالتزمت الصمت. فكّرتْ شيرين: «إنها تكرهني على أيّة حال». كانت تعرف أنّ سيرون تلومها على غيابها المتكرّر، وتساهلها في تربيتها لها. لكنّ شيرين لم تفعلْ ذلك بدافعٍ من اللامبالاة تجاه ولديها؛ بل أرادت، أوّلًا، أن تضرب لهما مثالًا حيًا عن المرأة التي تحقّق طموحاتها. وثانيًا، لمّا كانت أمّها قد ضيّقت عليها الخناق، فضّلت شيرين أن تمنح ولديها المزيد من الحرّية والمساحة والخصوصية، معتقدةً أنّه الأسلوب الأمثل للتربية.

لكنّ أسلوب التربية الأمثل لا وجود له. فالأطفال يحتاجون إلى لوم أهلهم، وسيجدون دومًا طُرُقًا وأسبابًا للقيام بذلك، مهما كان حجم ما حصلوا عليه من أهلهم أو ما حُرموا منه.

ذات يوم، عندما كانت سيرون في السابعة تقريبًا، بات تصرّفها السلبي العدواني تجاه أمّها مباشرًا. مباشرًا جدًا. فجأةً، ومن دون سابق إنذار، صرختْ في وجه شيرين «أكرهكِ»، لسببٍ غامضٍ لم تتمكّن هذه الأخيرة من معرفته قطّ. وأخذتْ تردّد ذلك بشكلٍ منتظمٍ منذ ذلك الحين. في الوقت نفسه، لم تعد تجيب أمّها كلّما نادتها بسيرون. «اسمي جميلة وليس سيرون!»

هل كانت هي ميديا بالنسبة إلى ابنتها؟ هل ستدرك يومًا أنّ شيرين كانت تملك أسبابها، سواء كانت للأفضل أم للأسوأ؟

أكان تصرّفها هذا نابعًا من عقدة إلكترا، أم أنّ من الأصعب بكلّ بساطة مسامحة الأمّهات؟

حلب – الخميس 19 تموز 2012
استيقظنا على مآسٍ أخرى اليوم. حلب تحترق. حتّى المدارس والمستشفيات تتعرّض للقصف. يتقاتل الثوّار والقوات الموالية للحكومة بضراوةٍ كي يبسط كلّ منهما كامل سيطرته على المدينة، ونحن محاصرون بين الطرفَين.

هل سبق أن زرتَ حلب يا غمر؟
أعرف أنك تكره سوريا، لكن لا يمكنك أن تكره حلب. أنى لامرئٍ أن يكره مدينةً أمضت وجودها كله، وجودها القديم جدًا (6000 ق.م.) وهي تقاوم وتقاتل، مثلك تمامًا؟
حلب الشهباء. هكذا يلقبونها: حلب البيضاء، المتوهجة، المشاكسة. المقرّ الذي اختاره إله العواصف. أتعرف كم من حضارة وأمبراطوريةٍ نعمتْ بشمسها؟ هل تتصوّر كم طبقةً تحوي كلّ صخرة، كم كتفًا اتّكأت على جدرانها على مرّ السنين؟ الإسكندر الكبير سكب دمعةً هنا ذات مرة. لا تسألني كيف عرفتُ. أعرف وحسب.
استيقظنا على مأسٍ أخرى اليوم. هذا اليوم الذي كان يُفترض فيه أن تبدأ حياتي الجديدة معك.
يومٌ أيقنتُ أنها لن تبدأ أبدًا.

رنّ جرس الهاتف. ففكّرتُ: «إنها أمي بالتأكيد». لا يُعقَل أن يكون غمر. كانت هي التي تتصل به دومًا. لا يمكن أن تكون نينا كذلك. فهي لا تتصل إلّا مرّةً أسبوعيًا، وقد فعلتْ ذلك أمس.

– سكب ركوة القهوة على رجلي. القهوة المغلية يا نانا. لحسن الحظ، استعنتُ بمناديل كانت بالقرب منّي وتمكّنتُ من مسحها كلّها قبل أن أصاب بحروقٍ بالغة.

– متى ستهجرين هذا الوغد؟ قلتُ لكِ إنّكِ تستطيعين العمل معي.

– سيقتلني إن فعلتُ ذلك يا نانا!

– كلا، لن يفعل. أنتِ تسمحين لخوفكِ بأن يتملّككِ. أغلقي السمّاعة وأخبريه أنّ علاقتكما انتهت.

بدأ يضرب نينا بعد شهرين من عودتهما من شهر العسل في قبرص. كانت الرحلة هديّة شيرين لمناسبة زفافهما. كان صباحًا باردًا من يوم الأربعاء في شهر كانون الأول، وكانت نينا قد نسيتْ تشغيل

سخان الماء. لم تكن تتوقّع الصفعة. أفقدها الأمر توازنها فسقطت أرضًا. لم تنهض فوزا وقد تملّكتها الحيرة. فركلها بقوّةٍ في بطنها.

– جعلتِني أستحمّ بالماء البارد يا شرموطة!

ركلة أخرى في معدتها. كان لا يزال مدثرًا بمنشفته، والمياه تقطر على الأرض. مع ذلك، انتعل حذاءه الرينجر الأسود. تعمد إيذاءها قدر ما يستطيع. كان الألم مبرّحًا. لِمَ يفعل ذلك؟ فقد كانت تعشقه. تخلّت عن كلّ شيء كي تكون معه. تخلّت حتى عن أسرتها.

– اختاري، إمّا هو وإمّا نحن يا نظلة.

– أنتما مجرد بورجوازيين. ترفضانه لأنه معدم الحال فقط.

– كلّا يا نظلة. نرفضه لأنّه مدمن مخدرات.

– سابق! مدمن سابق!

هربتْ معه في عيد ميلادها السادس والعشرين. وحدها شيرين عرفتْ بالأمر. «إنه حبّ حياتي يا نانا».

صرخ حبّ حياةِ نينا: «لِمَ لم تشغلي سخان الماء يا كلبة؟»

ركلاتٌ ثلاثٌ أخرى. بات الألم لا يُحتمَل. ثم رأت الدماء. كانت بقعةً على بيجامتها، تمامًا بين ساقَيها.

كان صباحًا باردًا من يوم الأربعاء، في شهر كانون الأول 1996، عندما بدأت نينا تدفع الثمن. ثمن الاستسلام للرومانسية في العلاقات.

مع الوقت، بات ضربه لها أكثر وحشيةً، مع ازدياد تعاطيه الهيروبين وتراجع وظائفه الثابتة. لم تفهم قطّ كيف تُدبَّر الحصول على الهيروبين. في أغلب الأحيان، كان الوضع يستدعي نقلها إلى المستشفى لتلقّي العلاج. في بادئ الأمر، عندما كان الندم لا يزال يحتلّ مكانًا في عقله المنتشي، كان يعتذر منها في اليوم التالي، لا بل ينتحب ويطلب السماح. وكانت تسامحه طبعًا. «أعدكِ أنّي سأتغير». وكانت تصدقه طبعًا. فهو حبّ حياتها.

عندما أدركتْ أخيرًا أنه لن يتغير أبدًا، كان الانفصال عنه قد بات خطرًا. «إذا تجرأتِ على تركي، أقسم بأني سأقطعكِ إربًا يا قحبة!»

قصدتْ مزةُ المحكمة الروحية المارونية لتعرف إذا كان في استطاعتها الحصول على الطلاق. كانت إحدى عينيها متورّمةً ومغمضةً جزاء ضربها أمس، وكانت الكدمات تغطّي جسدها كلّه. لكنّ الكاهن الذي استقبلها طلب منها «التحلّي بالصبر والصلاة». طلب منها أيضًا أن تُراجع ضميرها، وتُقلع عن التصرّف الذي أزعج زوجها إلى هذا الحدّ. لكن عندما أصرّت على إبطال زواجها، قال أخيرًا: «حسنًا، لكن يجب أن تساعديني كي أساعدكِ».

للوهلة الأولى، لم تفهم ما قصد. ثم نهض من مكانه، وجلس على الأريكة بالقرب منها، واضعًا يده المتعرّقة على ركبتها. ما شعرتْ به كان أسوأ من الضرب، هي الإنسانة الورعة والمؤمنة. فوقفتْ وقد شعرتْ بالاشمئزاز، ثم نظرتْ إليه بعينها المفتوحة الواحدة، وغادرت المكان.

أحيانًا، لا بل غالبًا، كانت نينا تشعر بالامتنان لأنها لم تنجب أطفالًا. فذلك الوحش تسبّب لها بالعقم.

كانت شيرين تلحّ عليها بالسؤال: «متى يا نينا؟ متى؟»

– في 19 تموز 2012. سأفعلها عندما تفعلينها أنتِ. فنحن شقيقتان في كلّ شيء، ما هيك؟!

19 تموز 2012. منذ أن أخبرتها شيرين عن عرض الزواج الذي تلقّته من عُمَر، بدأتا تسمّيان ذلك اليوم «يوم التحرير». كانتا تمزحان وتخطّطان لتنظيم «حفل طلاق» مشترك. صادف هذا التاريخ يوم أمس. لكنّ نينا لم تذكره حتى في اتّصالها. لم تكن تريد أن تضاعف ألم شيرين. كانت تفهم صديقتها. إذا أرادت أن تقول شيئًا، فستقوله، وإلّا فلا داعٍ من طرح السؤال عليها.

كان الهاتف لا يزال يرنّ. ردّتْ شيرين. كانت مُجفَلة. فالاتصال كان من أمّها.

– نينا ماتت. ذلك الوغد قتلها ليلة أمس.

حلب – الجمعة 20 تموز 2012

صوتها. صوتها المرتجف في السماعة...

– سيقتلني إن فعلت ذلك يا نانا!

– كلا، لن يفعل. هيا أغلقي السماعة وأخبريه أن علاقتكما انتهت. دافعي عن نفسك! عندما تفعلين ذلك، سيتوقف عن تهديدك.

كم تمسي مثيرةً للشفقة كل هذه المفاهيم والنظريات أمام الواقع الفج، المرير. سهلٌ أن نتخيل أننا نعرف ما يختبره شخص ما، وأن نملي عليه طريقة تصرفه. سهلٌ، سهلٌ جدًا أن نقدم إليه النصيحة.

سهلٌ إلى درجة القتل.

هل تتنهد الأحلام المنكسرة عندما تهوي على الأرض، على غرار الأغصان المتكسرة؟

وداغا، نينا.

[1] من فضلكما بالأرمنية.

[2] ابنتي بالأرمنية.

[3] هات قبلة، بالأرمنية.

[4] إلى أين سنذهب بالأرمنية.

[5] ارتدي ملابسك بالأرمنية.

[6] هذا هو بالأرمنية.

[7] لا تضم الجامعة الأميركية في بيروت كليةً لطب الأسنان فعلًا، بل هو تفصيل ورد لأغراض تتعلق بالرواية.

[8] جدتي بالتركية.

[9] روحي بالأرمنية، طريقة أخرى لقول حبيبتي.

ميسان

(دير ياسين، ١٩٤٦ -...)

ابنة سيرون
والدة شيرين
جدة جميلة
«تلك التي خاضت بذراعيها مليون معركة.»

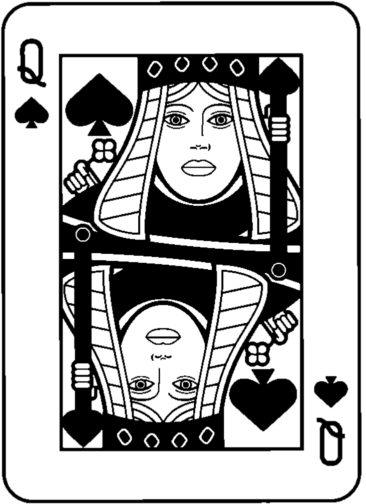

ملكة البستوني محاربةٌ باسلةٌ، ومثالٌ صارخٌ على السلطة. ثاقبةٌ وعازمةٌ هي، تحتاج إلى التحقق كي تكون. مفرطة الاندفاع في بعض

الأحيان وتقسو على نفسها كثيرًا، لذا يلزمها درس أو اثنان في فن التخلّي. تحكم الإرادةُ قَدَرَها.

«هَوَت الشجرة.
عفو جداولنا الحمراء
عفو جذورٍ مرتوية
بنبيذِ سَفْحَته الأشلاء.»

فدوى طوقان
(شاعرة فلسطينية)

«بترجالد!»

لم تكن من النوع الذي يتوسل. فالكبرياء كانت الترف الوحيد الذي تمتعت به. اضطرتْ إلى التوسل مرةً واحدةً من قبل فقط. وقد فعلت ذلك من أجل ابنتها. لكنْ الأمر الآن على القدر نفسه من الخطورة والأهمية. فمصير أختها بين يديها.

– قطعًا لا.

– أرجوك يا لوقا! لم يبقَ لها أحدٌ في العالم غيري!

– قلتُ لا. تكفينا امرأةٌ مجنونةٌ واحدةٌ في هذا البيت. ثم، ألم يخبركِ دانيال بوجود مستشفى متخصص؟

شعرتْ ميسان برغبةٍ في قتله. لكنها عضّت على جرحها وكتمت غيظها. سيسدّد ثمن ذلك لاحقًا لا محالة. فهي لا تتنازل عن جباية ديونها أبدًا.

– لكنهم يعاملون المرضى بشكلٍ سيئٍ جدًا هناك. سمعتُ فظاعاتٍ عن ذلك المكان.

– هذه ليست مشكلتي. كلّ ما أعرفه أنها لا تستطيع العيش في بيتي.

قال «بيتي». لكنها هي مَن كانت تنظّف ذلك البيت. هي مَن كانت تغسل وتطبخ وتمسح؛ هي من أمضتْ ليالي بلا نومٍ كي تطلي الجدران، لأنهما لا يستطيعان تكبُّدَ أجرِ دهان؛ هي مَن كانت تنقل دِلاءً ثقيلةً من المياه خمسة طوابق كلّما كان ينفد منهما الماء، أي كلّ يومٍ. هي مَن كانت تمضي النهار صعودًا ونزولًا لعددٍ لا يُحصى من المرّات، حتى آلمتها ذراعاها، إلى درجةِ أنها كادت تسمعهما تنتحبان من الألم.

على رغم ذلك كله، كان بيته وليس بيتهما.

أكان لوقا متحجِر القلب إلى هذا الحد حقًا، أم أنه كان يحاول الانتقام منها؟ ولكن، لِمَ الانتقام بالضبط؟ إذا كان يجدر بأحدٍ منهما أن يشعر بالمرارة، فحريٌ بها هي ذلك. فلوقا لم يبز بأيٍ من وعوده لها. ولا حتى بوعدٍ واحد.

أكانت مُغاليةً في طلباتها، كما لا ينفكُ يتهمها، أم كان مُبالِغًا في خموله واستسلامه، كما واظبتْ على لومه؟

الزواج هو المكان الذي يصل إليه الحب متهالكًا لكي يرقد رقدته الأخيرة. لكن، أيمكن أن تسفي ما جمعها ولوقا حبًا فعلًا؟ أليس صحيحًا أنهما أحبا فكرة الحب أكثر مما كانا غارقَين فيه؟ كانت علاقتهما بكلّيتها مبنيةً على تصوراتٍ مثاليةٍ رسمها واحدهما عن الآخر؛ تصورات ركنت إليها رغباتهما ومكامنهما الهشة، أكثر مما عكست واقعهما.

لكن بعد أن أزاح الزواج النقاب عن هذه الأوهام – كما يفعل دومًا – انقشعت حقيقة الواحد للآخر. «داب التلج وبان المرج». الزواج هو أكثر الألغاز المحيرة على الإطلاق.

كانت هي روحًا معذّبة، وكان هو في حاجةٍ ماسةٍ إلى أداء دور البطل؛ بل إلى إقناع نفسه بأنه بطل. الفارس النبيل الذي ينقذ الفتاة المسكينة. لكن هذا الدور لم يناسب شخصية ميسان القوية. كما أن شراسة طبعها لم تتجلَ فعليًا إلّا بعد الزواج. كانت لبوةً أكثر منها هرّةً صغيرةً. نعم، لبوةً جريحةً وتعرف ذلك، لكنها تبقى لبوة.

كان لوقا حالمًا فصيحًا، بينما ميسان مناضِلةً بالفطرة. كان العزم من نسيجها، ولا تنقصها إلّا يدٌ ترفعها، وقد افترضتْ أنه سيكون هو هذه اليد. أرادتْ أن تكون ملهمةَ رجلٍ طَموحٍ ومندفع، أن تكون الريح التي تنفخ من تحت جناحَي إنسانٍ صاحبِ رؤيا. لكنها لم تعرف حينها

أن هناك فرقًا كبيرًا بين الأحلام والطموحات، ألا وهو إرادة اتّخاذ القرار والعمل على تحقيقه. هو الفرق نفسه بين التمنّي والفعل.

لكنّ لوقا، كما تبيّن لاحقًا، كان يفتقر إلى هذا كلّه. كان مؤمنًا بالجبريّة. إذا كان شيء ما مقدّرًا، فسيحدث، وإلّا فلا فائدة من النضال من أجله. ذريعةٌ فاشلة يستخدمها كلّ كسولٍ في رأيها. مزةٌ جديدةٌ، لم تظهر هذه الحقيقة المؤسفة إلّا بعد زواجهما.

كلّما زادت عليه وزر طلباتها، تقاعس حتّى عن محاولة تلبيتها. ولم يكن ذلك سوى ردّ الفعل العكسي، المدمّر للنفس، الذي يبديه بعض الأشخاص تجاه الضغوط. عوضًا من الشعور بالتحفيز، شعر بأنّه مخصيّ. فالرجولة تركيبةٌ حسّاسة. والانتصاب، جسديًا كان أم لا، يقتات على صوت التصفيق، والنرجسيّة، والوله غير المشروط. لكنّ ميسان كانت فاشلةً في التهليل. كان أسلوبها اللوم بدلًا من التشجيع. كانت مُبالِغةً في اندفاعها وهو مُبالِغٌ في استرخائه.

ما إن أدركتْ ميسان أنّ تَوقُّع أدنى جهدٍ من لوقا ليس إلّا مضيعةً للوقت، حتّى حوّلتْ كلّ تركيزها وتحفيزها إلى ابنتها شيرين: «سترتادين مدرسةً جيدة. ستنالين علاماتٍ جيدة. ستذهبين إلى الجامعة. ستكونين امرأةً مهمّة. ستجنين مالًا وفيرًا».

المال، بشكلٍ خاص. المال الوافر. فمن عانى القلّة ينشد البحبوحة. الفائض يمنحه الأمان. لا يكفيه الحصول على ما «يكفي». فما يكفي مفهومٌ قلّاب؛ قد يختفي في كلّ لحظة. حسْبُهُ صفعةٌ بسيطةٌ من الحياة، ليرجع القهقرى.

لكنّ التقهقر لم يكن خيارًا عند ميسان.

تابري، تابري!

يلّا، يلّا!

وكان لها ما أرادتْ. أفلح أسلوب الحبّ القاسي. وكبرتْ شيرين لتصبح امرأةً تأخذ بدل أن تتلقّى. لكنّ ضررًا جانبيًا واحدًا نتج من هذه

الحماسة الجبارة التي واظبث على استثمارها فيها: ابنتها لم تكن تحبها. صحيح أن شيرين لم تقل ذلك صراحةً، لكن كان في استطاعة ميسان أن تشعر به. زاد الطين بلةً أنها لم تكن من الأمهات الحنونات اللواتي يعبرن عن محبتهنّ لأطفالهنّ بالكلمات، بل كانت تُظهر مشاعرها بالأفعال، وبأشكالٍ عمليةٍ من الاهتمام، عوضًا من العناق والمداعبات والكلمات العذبة. وعليه، لم تمانع العدائيةَ التي قابلتها بها شيرين. أو بالأحرى، كانت مستعدةً لدفع الثمن.

«ستفهم ذات يومٍ. حتى إن لم تفعل، لا يهمّ، طالما أنها لن تعيش حياتي».

الإنجازات أهمّ من الغرام. فأيّ نفعٍ حصدته ميسان من الغرام؟ مجرد خيباتٍ متتالية. لكنّ الذنب ذنبها أيضًا. فقد جمعتْ كلّ بيضها في سلّةٍ واحدة. وها قد سقطت السلّة على الأرض، فانسحق البيض كلّه تحت قدميها. كان شعور ميسان بالإحباط يسحقها، وكان نابعًا منها هي. هي التي لقّنتْ نفسها فنّ الحقد. حقدٌ مجرّد، مطلق، تجاه كلّ الأشياء وكلّ الأشخاص. لكنها لن تفقد الأمل بالمستقبل. مستقبل ابنتها. أمّا مستقبلها هي، فقد علمتْ علم اليقين أنه أدار لها ظهره.

ماذا ستفعل مع نجاة الآن؟ لا يمكنها أن تتركها وحيدةً في شقة والديها الفارغة. حتى عندما بات والدها طاعنًا في السن، ومنهكًا في السنوات الأربع الأخيرة بعد وفاة زوجته، بقي يتولّى رعاية شقيقتها، ويحرص على تناولها الطعام والدواء. أمّا اليوم، فقد توفّي باسم، وباتت نجاة بائسةً ومهجورةً كشجرةٍ وحيدةٍ في صحراء. سألت ميسان الجيران عن غرفةٍ للإيجار في المبنى حيث تقيم هي ولوقا، أو عن ساكنٍ ينوي الانتقال من شقته قريبًا. هكذا، تطمئن إلى أن نجاة ستكون في جوارها، ويتسنى لها الاعتناء بها بسهولة. لكنّ أسئلتها ذهبتْ خائبةً.

بقيتْ تُقنع نفسها: «لعلّه ليس بهذا السوء». لكنها كانت تعلم أنه إنكار للحقيقة لا أكثر. كانت، بكلّ بساطة، تحاول تبرير فعلتها لئلا تشعر بالذنب.

أحسّت ميسان باضطراب شديد. فقد قتلتْ شقيقةً واحدةً من قبل، وها هي على وشك أن تقتل الثانية.

بيروت – الثلاثاء 14 ايلول 1982

– أتحداكِ أن تبتلعي هذه الإبرة.

كان الحقّ، كلُ الحقّ، على هاتَين العينين؛ هاتَين العينين بلونهما الأخضر الكهرماني المتوهج. كلّ مَن في مروحين انبهر بهما وبها.

– يا لَروعة شعرها الكستنائي!

– كيف نعقِل أنكما سمّيتُماها فاطمة؟

– كم هي محببةٌ عندما تتكلم الأرمنية.

كانت قد تعلّمت الأرمنيةَ قبلي بوقتٍ طويلٍ، مع أنها كانت تصغرني بعامين. كنّا متقاربتَين في الطول. فقد كانت طويلة القامة بالنسبة إلى سنها، وأنا قصيرة بالنسبة إلى سنّي. كانت أمنا تخيط لنا فساتين متشابهة، لكننا لم نبدُ يومًا كتوأمٍ. ففاطمة كانت الأخت «الجميلة» بيننا.

سمعتُ أم رجا تسأل أمي مرةً: «هل يمكن أن تكون ابنتكِ حاملة الورود في زفاف ابني؟ أعني الجميلة بينهما؟» لم تعرفا أني موجودةٌ في الغرفة المحاذية. يومذاك، ردتْ أمي بنبرةٍ عدائية: «ابنتايَ كلتاهما جميلتان». شكرًا ماما. لكن الجارة مُحقة. انظري إليّ: شعري أسود عادي، وعيناي سوداوان عاديتان. بشرتي بلون كسرة خبز، بينما بشرتُها بلون الحليب.

«يا للروعة! يا لَجمال بشرتها الشفافة المميزة!»

كانت فاطمة هي الجميلة بيننا بلا منازع، ما كان يعني شيئًا واحدًا فقط: كنتُ أنا الدميمة.

سمعتُ مرةً أنّ ثمرة الحبّ الحقيقي من الأطفال يتمتّعون بجمالٍ أخاذ. فكلّما كان الشغف أقوى بين الوالدين لحظة الحمل، أصبح الطفل أجمل. فهل كانت أمي أكثر هيامًا بأبي عندما حملتْ بفاطمة؟ لكن هذا غير منطقي. فأنا الإبنة البكر: والحبّ يذبل مع الوقت، ولا يصبح أقوى. أنا الأدرى بذلك.

كانت فاطمة ابنة أبي المفضّلة أيضًا. استطعتُ الشعور بذلك، مع أنّه لطالما حاول أن يُخفي الأمر. فكلّما عاد من عمله في الحقول، كان يحملها ويقبّلها أوّلًا. وعندما تكون موجودةً، أمسي أنا غير مرئية.

– أتحداكِ أن تبتلعي هذه الإبرة.

كان عيد ميلادها، وكانت أمي قد خبزتْ لها قالب حلوى كبيرًا. أكبر من ذلك الذي خبزته لمناسبة عيد ميلادي في شهر آذار الفائت. كلّ ما أردته هو أن أؤذيها قليلًا، تمامًا كما كان وجودها يؤذيني. لم أكن أعلم أنها ستموت. أقسم أنّي لم أكن أعلم.

منذ ذلك الحين والإبرة مغروزةٌ في قلبي.

واليوم، حان دور نجاة. ها عمليةُ اغتيالٍ أخرى. إبرةٌ قاتلةٌ أخرى. لكن ليس من طريقةٍ أخرى. فلولا لن يسمح لها بالإقامة في بيتنا. عفوًا، أقصد بيته.

بقيتْ شيرين تسألني عندما غادرنا المستشفى: «لمَ لا يمكنها العيش معنا؟» ماذا أقول لها؟ «لأن والدكِ وغدٌ وأناني؟» لن تصدقني في أيّ حال. فهي تعشقه. إنّه المفضّل لديها.

وأنا؟ هل سيفضلني أحدٌ يومًا؟

وُلدتْ ميسان بركات في صباح يومٍ جميلٍ من شهر آذار عام 1946. كانت أشجار الكرز بدأت تزهر في دير ياسين، وأجواء الخفة الربيعية سائدة في أنحاء القدس والتلال المحيطة بها.

كان يُفترَض بالمولودة أن تُسمّى فاطمة. عندما حملتْ أمها بها، كان قد مضى على زواجها بأبيها ثلاثة عشر عامًا. قال لها أبوها، ذات

يوم، إنّ الأمر كان معجزة حقيقيّة، مع أنها لم تشعر قط بأنها مميّزة كما يشعر الأطفال «المعجزة». كانت امرأةٌ عجوز قد تنبأت بولادتها، وأصرّت على أمها، سيرون، بأن تسمّي الطفلة فاطمة، لكنّ أباها رفض. مع ذلك، اضطرّا إلى تسمية شقيقتها الصغرى فاطمة، لإزالة لعنةٍ ما حلّت بميسان لأنّهما لم يحترما طلب العرّافة.

لكن هل رُفِعت عنها اللعنة حقًّا؟ كلّا لم تُرفع. كلّ سنواتها اللاحقة تدلّ على ذلك. كانت غالبًا ما تتذكّر تلك القصة في كلّ مرّة ترى مجرى حياتها يتغيّر أمام عينيها. نحو الأسوأ طبعًا. لم يبدُ لها أنّ هناك أيّ اتّجاهٍ آخر غير ذلك. فأرضُها لم تكن مستديرة، ولم تصادفْ فيها أيّ طرقٍ دائريّةٍ على الإطلاق. الطريق الوحيدة أمامها كانت نزولًا. ومهما جاهدتْ وصارعتْ كهرّةٍ تغرق في بركةٍ للسباحة، وتحاول أن تغرز مخالبها في الجدران المحيطة، كانت لا تنفك تنزلق إلى أسفل.

لطالما عانتْ ميسان كي تحقق أو تختبر ما يعتبره الآخرون عاديًا أو سهل المنال. أحسّت دومًا بأنها عبءٌ... حِملٌ ثقيلٌ في حياة الجميع.

كان والدها، باسم، كاثوليكيًا شرقيًا من القدس في فلسطين. ووالدتها سيرون أرمنية، أصلها من جنوب شرق تركيا. شعرتْ بإحساسٍ عميقٍ بالولاء تجاه فلسطين؛ ليس ولاءً عاطفيًا، بل أخلاقيّ، وهو لا يقلّ عن الأوّل شرعيةً. تماهتْ كثيرًا أيضًا مع هويّة والدتها وتراثها الأرمني، وكانت تتكلّم الأرمنية بطلاقةٍ، مع أنها تعلّمتها في سنٍّ متأخّرةٍ نسبيًا. كان ذلك، في هذه الحال أيضًا، تماهيًا أخلاقيًا، أو نوعًا من التكريم لوالدتها.

لم تشكّ يومًا بالماضي الأسوَد في حياة والدتها. لاحظتْ، أو بالأحرى شعرتْ بوجود تلك الهاوية السحيقة في روح سيرون، لكنها لم تعلم ما الذي حفرها. كلّ ما علمته أنّ سيرون وُلِدتْ عام 1912، في بلدةٍ صغيرة اسمها عنتاب، حيث اندلعتْ حربٌ ما. وأنها ووالدها باسمًا التقيا في القدس عام 1930. أما ما بين المرحلتين، فمساحةٌ فارغةٌ لم

تشعر بأنها في حاجة إلى ملئها، على الأقل ليس قبل المرحلة الأخيرة من سنوات مراهقتها.

ثمانية عشر عامًا من الغموض. ذات يوم، أطلقت على تلك الفترة اسم «سنوات سيرون الخفية»، تمامًا مثل «سنوات يسوع الخفية».

مع ذلك، طرحت على نفسها أسئلة عدة أخرى أثناء نشأتها. فعلى الرغم من ولائها لمبادئ انتماءيها الفلسطيني والأرمني، انتابها إحساس عميقٌ باللاانتماء. كانت تخالجها تساؤلاتٌ وجوديةٌ يطرحها طفلٌ يشعر بأنه مثل سمكةٍ خارج الماء. مَن/ ما كانت؟ كانت طفلةً بلا وطنٍ تحن إلى وطن. لم يكن هذا باغترابٍ شاعريّ، ذلك الذي يعتنقه بعض الأشخاص بملء خيارهم. فكلّما كانت تتصوّر نفسها، لم تشعر مرّةً بأنها لبنانيةٌ فعلًا، على الرغم من بطاقة هويّتها اللبنانية، بل كانت لاجئةً وسليلةَ سلسلةٍ من اللاجئين. «اللجوء» هو، أولًا وأخيرًا، حالُ ذهنيةٍ أكثر منها وضعًا قائمًا. قلّةٌ من اللاجئين يحظون بفرصة الاندماج في البلد المضيف، والتماهي معه، أو حتى يجرؤون على ذلك. فالاندماج يتطلّب درجةً معينةً من الجسارة، لا بل من الوقاحة حتى، تجاه السكّان الأصليين. «أنا أهلٌ لهذه الحقوق مثلك تمامًا!» لكنّ ذلك الخوف المتأصّل من التعرّض للرفض، وانعدام الفرص، يجعل اللاجئين يلتحمون معًا ويشكّلون مجتمعاتٍ مستقلّةً، غالبًا ما تكون منفصلةً عن المجتمع المحلي.

عاشت ميسان في بيروت مذ كانت في الثامنة من عمرها، لكن قيل لها إنها وُلدت في قريةٍ بالقرب من القدس، تُدعى دير ياسين. لا تذكر شيئًا عن تلك المرحلة من حياتها. فوالداها كانا قد فرّا إلى مروحين في جنوب لبنان مباشرةً بعد اندلاع الحرب العربية - الإسرائيلية، ولم تكن هي قد تجاوزت الثانية من عمرها في ذلك الحين.

أمّا مروحين، فذاك مكانٌ تذكره جيدًا.

وأنّى لها أن تنسى؟

مروحين – الجمعة 21 آذار 1952

في إمكاني أن أراقب النمل لساعات. يدهشني النمل. لا يتوقف عن التحرك، ولا عن العمل، ولا يبدي أيّ علامةٍ على التعب. هل ينام يا ترى؟ عندما أكبر، أريد أن أكون مثل النملة. أعمل طوال الوقت وأفعل أموزا مهمة.

اليوم هو أول يوم في فصل الربيع، وأنا أرتدي تنورتي الحمراء الجديدة. لها جيبان، واحد من كل جهة، وقد ملأتهما بالحصى الصغيرة التي رميتها خلفي في طريقي إلى الأحراج. هكذا، سأجد طريق العودة إلى البيت. تمامًا كما فعل الأصيبع. حكى لي أبي تلك القصة أمس.

– هل الغيلان حقيقيةٌ يا بابا؟

– كلا يا حبيبتي، إنها مجرد حكايةٍ خرافية. الحكايات الخرافية ليست حقيقية.

كانت أمي قد خاطت لي التنورة الحمراء لمناسبة عيد ميلادي السادس. كما خاطت تنورةً مماثلةً لفاطمة أيضًا. جاء جارنا المسن، جدو أمين، وجلس على الصخرة بقربي. كيف عثر عليّ هنا؟ لا بد من أنه تبع أثر الحصى. أعطاني مصاصةً. دائمًا ما يعطيني مصاصة. جدو أمين رجلٌ لطيفٌ جدًا.

– مرحبًا يا قمورة!

– مرحبًا جدو أمين!

– أهذه تنورةٌ جديدة؟ كم تبدو جميلةً عليك!

– نعم، خاطت أمي واحدةً لي وأخرى لفاطمة. لكنها تبدو أجمل على فاطمة.

– هذا غير صحيح! لقد رأيتُ فاطمة في طريقي إلى هنا وهي لا تبدو بهذا الجمال عليها.

كنت أستمتع بمصاصتي. كانت بنكهة الفراولة، وهي النكهة المفضّلة لدي. شعرتُ بسعادةٍ غامرة.
- حقًا؟
- طبعًا! لن أكذب عليك أبدًا. ماذا تفعلين هنا؟
- آتي لأراقب النمل! لا أجد نملًا بالقرب من بيتنا. وإذا فعلت، تصب عليه أمي الكاز فيموت. أحبّ النمل. أليس رائعًا؟
- إنه رائعٌ فعلًا. اسمعي، سأبني لكِ أروع مزرعة نمل، كتلك التي بنيتُها ليوسف.
- آه! شكرًا جزيلًا يا جدو! أعشق مزارع النمل. لطالما حلمتُ باقتناء واحدةٍ منذ أن أراني يوسف مزرعته!
كان يوسف حفيد جدو أمين. لم يكن يسمح لي بالاقتراب من مزرعته. في الواقع، لم يسمح لي برؤيتها إلا لإغاظتي. كان لئيمًا.
- تكرمي! سأبني لكِ مزرعةً أكبر من مزرعة يوسف. لكني أريد منكِ شيئًا واحدًا في المقابل. فهلّا نفّذتِهِ من أجلي؟
- طبعًا! أي شيء!
أخرج وشاحًا أسود من جيبه.
- سنلعب لعبةً، سترين، إنها لعبة مسليةٌ جدًا. سأعصب عينيكِ بهذا الوشاح. ثم ستركعين وسأضع شيئًا في فمكِ وستلعقينه وتمصينه. تمامًا كما تفعلين بهذه المصاصة الآن.
شعرتُ بالتوتر.
- لمَ عليّ أن أعصب عينيّ يا جدو؟
- هذه هي قواعد اللعبة. تشبه لعبة الغميضة.
كنت أعشق لعبة الغميضة. كما كنت ماهرةً فيها أيضًا.
- هل سيكون طعم هذا الشيء سيئًا؟
- أبدًا. قد تجدينه غريبًا في البداية، لكنكِ سرعان ما ستحبينه.
لم أحبه على الإطلاق. شعرتُ بلزوجته في فمي، كما البزاق الذي تطهوه لنا أمي بعد أول هطولٍ للمطر. كنت أكره البزاق. رائحته كريهةٌ أيضًا.

لكني لم أقل شيئًا لأني لم أرد أن أضايق جدو أمين. فقد وعد أن يبني لي مزرعة نمل! أكبر من مزرعة يوسف!
بعد ذلك، بدأ يتنفس بصوتٍ خشن. فخفت وتوقفت.
– جدو، هل أنت بخير؟
أقحم الحلزون في فمي من جديد، فكدت أختنق. قال: «نعم، نعم، تابعي!» كان صوته غريبًا جدًا. لكأنه تحوّل.
كان الحلزون يكبر ويكبر، حتى بدأتُ أجد صعوبةً في التنفس. بعد ذلك، بصق سائلًا مزًا على لساني. «ابلعيه، ابلعيه!» فابتلعته. شعرتُ بحنجرتي ومعدتي تؤلمانني لكني ابتلعته. شعرتُ بأني على وشك التقيؤ، لكني ابتلعته. لم أرغب في مضايقة جدو. فسيبني لي مزرعة نمل!
لحسن الحظ، انتهى الأمر سريعًا بعد ذلك. أزال الوشاح عن عينيَّ فوقفت. قال وهو يربت رأسي: «شاطرة». أعطاني مضاصةً أخرى. شعرتُ بالفخر. فقد اختار أن يلعب اللعبة معي، وليس مع فاطمة.
– لا تُخبري والديكِ عن هذا! أوعا! إنه سرّنا نحن.
«سرّ». شعرتُ بأني مميزة. وكأني كبيرة. وحدهم الكبار لديهم أسرار.
بقينا نلعب هذه اللعبة، ولعبًا أخرى أيضًا، حتى اليوم الذي تركنا فيه مروحين: 11 أيلول 1954. أذكر ذلك التاريخ جيدًا لأني لم أعد أشعر بالقذارة والخجل، ما إن انطلقت بنا سيارة الأجرة بعيدًا عن البلدة.
لم يبنِ لي جدو أمين مزرعة نملٍ قط.
بابا، أنت مخطئ. الغيلان حقيقية.

كانت ميسان التلميذة الوحيدة التي حملت اسمًا عربيًا في المدرسة الأرمنية الابتدائية في برج حمّود. مع ذلك، كانت تتكلّم الأرمنية – بشكلٍ سيئ في بادئ الأمر، ثم بطلاقةٍ بعد ذلك بوقتٍ قليل – ما جعلها استثناءً بين أترابها. لكن الأطفال لا يحبّون

الاستثناءات. فمعظمهم يتربّون على الشعور بالخطر من أيّ شيء، أو أيّ إنسانٍ مختلف عن الأشياء الأخرى أو الأشخاص الآخرين، ويتكتّلون معًا لمواجهته.

تهزّ النعجة برأسها المترهّل: «اقتلوا ذلك المنشقّ السفيه. فالقطيع خائف».

لكنها لا تدافع عن القطيع حقًا. هي فقط تحضن ضعفها.

كان الجميع، خصوصًا الفتيات، ينادون ميسان بـ«Spasuhiyin agh-jike!»[1] لإهانتها. وهي كانت تتمتع بموهبةٍ قلّ مثيلها، تتمثل في إثارةِ غيرةٍ جنونيةٍ لدى الفتيات الأخريات. وفي الوقت نفسه، جعلهنّ متنفراتٍ بغيضاتٍ، حتى اللطيفات بينهنّ. وقد استمتعتْ بهذه الغيرة فعلًا. في الواقع، كانت تقتات عليها كمصاصةِ دماء، وتستمدّ منها ختمًا يصادق على أفعالها. فبالنسبة إليها، هي التي لطالما كانت غير مرئيةٍ، كان ذلك تأكيدًا لوجودها. زاد الطين بلّةً أنها كلّما ازدادتْ جمالًا، تضاعف الاهتمام الذي أحاطها به الفتيان.

كانت ميسان رائعة الجمال، وقد كبرتْ غافلةً عن ذلك، ما زادها جمالًا على جمال. كان شعرها أسود مائلًا إلى الزرقة، حريريًا، وعيناها داكنتين قد تلتهمانك حيًا، وبشرتها سمراء ذهبية. لم تكن طويلة القامة بل صغيرة الحجم. لكنها عوّضتْ عن قصر قامتها بجاذبيتها. فالكاريزما التي تمتعتْ بها، جعلتْها تبدو عملاقةً. أحسّتْ دومًا، في صغرها، بأنها عاديةٌ. ما جعلها تنفي، على غفلةٍ منها، سلوكياتٍ أنثويةً، ونقاطَ قوّةٍ نسجتْ من خلالها مخطّطاتها إلى حدّ الكمال، للتعويض عن قلّة جاذبيتها المفترضة. فكانت النتيجة خطرة: مخلوقةٌ جسدتْ، منذ سنوات مراهقتها، حوّاء والأفعى في آنٍ واحد. مسوّدةٌ أوليةٌ، لكنْ واعدة، لـ«المرأة الفتّاكة المغرية» التي قد تكونها في المستقبل. إلى ذلك، كانت قد بلغتْ باكرًا، لا نفسيًا فحسب – كونها تعرّضتْ للاستغلال الجنسي في صغرها – بل جسديًا أيضًا. ففي سنّ الثانية عشرة، بدت

كأنها في السابعة عشرة. وبان جسدها مدجّجا بالسلاح كأنه جاهزٌ للحرب. كانت تهوى جمع القلوب المفطورة، على غرار سائر البطات القبيحة التي تتحول إلى بجعاتٍ رائعة الجمال في ما بعد. وقد جمعت من تلك القلوب الكثير الكثير فعلًا. لكنها لم تشبع قط. لم تستطع أن تشبع. أرادت المزيد. كانت دومًا تريد المزيد. المزيد من الاهتمام والإعجاب والمديح وصرخات اليأس، كي تشعر بأنها روت غليلها فعلًا. «كيف تزنني الآن يا أمّ رجا؟»

« Spasuhiyin aghjike! Spasuhiyin aghjike! »

« Leretsek ! »[2] لم تكن ميسان نعجةً وديعة. فقد عجزتْ عن الغفران أو التساهل، حتى لو أرادت ذلك. كان الغضب معشّشًا فيها كما لو أنه اتّخذها مسكنًا، وقد أجادت التعبير عنه فعلًا. كانت تضربهم واحدًا واحدًا. أقدمتْ على ضربهم لا انتقامًا ممّا كانوا يقولونه أو يفعلونه فقط، بل لأكثر من ذلك بكثير. «أمّي خياطةٌ وليست خادمةً!» مع أنّ مهنة الخياطة لم تكن، اجتماعيًا، أرقى مكانةً بكثير. كان أيّ شيءٍ أفضل بالنسبة إلى ميسان من ذلك التصنيف الذي يعكس الذلّ والخنوع: «خادمة». أيّ شيءٍ أفضل من الركوع على أربعةِ أطرافٍ وتنظيف الحمامات. لكنّ أمّها لم تنفكّ تظهر بانتظامٍ في فترة الفسحة، ومعها دلوٌ من الماء ولوحُ صابونٍ وفرشاة، فتتمنى ميسان لو تبتلعها الأرض، وقد أخذ منها الذلّ والحرج كلّ مأخذ.

«لِمَ لا تعودين إلى الخياطة كما كنتِ تفعلين في صغري؟» كم من مرّةٍ أرادتْ أن تقترح ذلك على سيرون، لكنها لم تجرؤ قط. كانت تعرف جيدًا لِمَ هجرتْ أمّها مهنة الخياطة. الذنب ذنبها. مع ذلك، تمنّتْ بشدّةٍ لو أنّ سيرون لا تنظّف في مدرستها. فمن كلّ الأماكن التي يمكنها أن تعمل فيها في بيروت، لِمَ كان عليها أن تختار ذلك المكان؟ لم تعرف ميسان أنه ما كان في إمكانها ارتياد تلك المدرسة الخاصة إلّا لأنّ أمّها كانت تركع على يديها ورجليها هناك، كلّ يوم. سيرون لم تُخبِرْها بذلك.

لكنّ تلك المواجهات المستمزة العنيفة مع زميلاتها في المدرسة، تلك التي أكسبتها لقب « Gazan »[2] ، لم تدمْ طويلًا. فقد اضطرّت ميسان إلى مغادرة مقاعد الدراسة والحصول على وظيفةٍ في معمل للخياطة، مباشرةً بعد نيلها الشهادة الابتدائية في حزيران 1960، من دون أن يتعدى إلمامها بالعربية والأرمنية المستوى الأساسي. كانت في الرابعة عشرة حينذاك، ومضطرّةً إلى مساعدة والدَيها. فقبل بضعةِ أشهرٍ، اكتشفا أنّ أختها نجاة مصابةٌ بمرضٍ خطير.

استمتعت ميسان بالخياطة وأجادتها. كانت قد تعلّمتها بنفسها مستعينةً بماكينة «سنجر» القديمة في شقة جارتهم إلهام. منذ أن أصبحت في الثانية عشرة، بدأت تخيط ملابسها بنفسها. وقد نجحت، بواسطةِ طُرُقٍ وموادّ متواضعةٍ جدًا، في لفت الأنظار إليها. لا أنظار الرجال فحسب، بل النساء أيضًا، وهذا تحدٍّ أكبر. فما ارتدته كان مختلفًا دومًا. مميّزًا ومبتكَرًا. لكنها سرعان ما كرهت معمل الخياطة وعملها فيه. كان عملًا روتينيًا، يفتقر إلى الروح؛ زاولته عشرات الفتيات غيرها، كإنسانٍ آلي، من الثامنة حتى الخامسة.أوكلت إلى كلّ مجموعةٍ منهنّ مهمّةٌ معيّنة. كانت ميسان جزءًا من المجموعة التي تولّت خياطة حواشي الأثواب. لا شيء إلّا الحواشي، اليومَ بطوله. حلمت بإيجاد الوحي والبريق في هذا المكان، لكنّ المعمل كان يفتقر إلى كلّ ما يمتّ إلى الوحي والبريق بصلةٍ. مع ذلك، قامت بما عليها، وعاشت ما قُدّر لها أن تعيشه. كلّما شعرتْ بألمٍ في أصابعها وظَهرها بعد ساعاتٍ طويلةٍ من العمل على ماكينة الخياطة، كانت تقول لنفسها «تذكّري النمل يا ميسان!» كانت تتقاضى أجرها بناءً على عدد الأثواب التي تخيط حواشيها. كلّما انتهت من ثوبٍ، ازداد الأجر الذي نالته، ما جعلها في سباقٍ مع الزمن. صحيحٌ أنّها لم تكن بليدةَ البتّة، لكنّ حافز جني «مالٍ أكثر» جعلها تعمل بوتيرةٍ جنونية. أتلف هذا الأمر أعصابها. ولولا إصرار

إحدى الزميلات التي أحاطتها برعايتها، «سمية الفلسطينية» كما كانت رئيسة المشغل تسفيها، لما كانت استراحت على الإطلاق.

الإنسان في صراعٍ ضد الوقت. داود في صراعٍ ضد غوليات، لكن مع نهايةٍ مختلفةٍ كلَّ الاختلاف. نهاية أكثر واقعية. فحتى لو ألحقت الهزيمة بالعملاق موقتًا، ستبقى الخاسر في هذه اللعبة. أنى لإنسانٍ تدرّب على الركض في الماراتونات منذ الصغر أن يشعر يومًا بالخفة؟ أنى له أن يُبطئ وتيرته ويعيش اللحظة؟

«خيطي. خيطي. خيطي». خيطي جراحكِ حتى تلتئم، أيتها الفتاة الصغيرة ذات التنورة الحمراء. خيطي وحاولي أن تنسي تلك الإبرة التي تنغرز في ذاكرتكِ كإصبع مدبّبة.

وانسي الحصى. فمهما فعلتِ، لن تجدي أبدًا طريق العودة إلى البيت.

برج حمود – الاثنين 20 شباط 1961

رأيته مجددًا هذا الصباح. التقيت به مصادفةً على السلالم. كنت متوجهةً إلى المعمل، وهو في طريقه لفتح مصبغة أبيه. أعتقد أن لقاءنا لم يكن مصادفةً، فهذا هو اليوم الرابع على التوالي الذي تقع فيه «المصادفة» نفسها. أنا شبه متأكدةٍ من أنه احتسب ساعة خروجي من البيت، وكان يترصّدني من مكانٍ ما في الأعلى. فبمجرد أن فتحت باب شقتنا وخرجت، سمعت صوته وهو يسرع الخطى نزولًا. تجاوزني، ثم توقف واستدار ناحيتي ليقطع عليّ الطريق.

قال لي مبتسمًا: «صباح النور. هلّا تقولين لي أخيرًا ما اسمك، يا آنسة ميسان؟»

ضحكت. لا بدّ من أنه استفسر عن اسمي من أحد الجيران.

– ليس قبل أن تخبرني عن اسمك، « Myouqra »[4] لوقا!

برقت عيناه. تعمّدت أن أعطيه الدعم الذي يحتاج إليه. في العادة، أحب أن أغيظ الفتيان. وأعشق أن أتجاهلهم وأهملهم إلى أن يجنّ

جنونهم ويصبحوا ثمرةً ناضجةً جاهزةً للقطاف، ثمرةً ناعمةً تحت سنّ المنجل. لكن هذا كان مختلفًا. قررتُ أنه يستحق نززًا يسيرًا من الطمأنينة، أبكر من الآخرين.

– كتبتُ لك شيئًا البارحة.

أعطاني ورقةً مطوية.

– ما هذا؟

– قصيدة. لكني أشكّ في أن تكون جديرةً بجلالتك.

أصاب الهدف تمامًا، مُرضيًا أناي.

كنتُ قد رأيتُه مرّاتٍ عدةً في السنوات الثلاث الماضية، جالسًا خلف المنضدة في مصبغة والده وهو يقرأ. كان يبدو دومًا مستغرقًا تمامًا في الكتاب إلى درجة أنه لا يلاحظني البتة، ولو لمرةٍ واحدة. أغاظني هذا الأمر. لكن، ما إن وقعتْ عيناه عليّ، يومَ كان يحمل صناديق إلى الطابق الأعلى ليساعد أسرتَه على الانتقال إلى الشقة الجديدة في المبنى، عرفتُ توًا أنه لن ينساني.

أعرف كيف أقرأ النظرات. نظرتُه كانت تقول بكلّ وضوح: «قَضي عليّ».

قُضي عليه بكلّ تأكيد.

لطالما بدا لي غامضًا وجذّابًا، وناضجًا أيضًا. أكثر نضجًا بكثيرٍ من المراهقين الذين لا ينفكّون يلاحقونني. لم أرَهُ يومًا يرتدي السراويل القصيرة، بل كان يرتدي دومًا قميصًا أبيض وسروالًا أسود.

– سأقرأها. والآن إلى اللقاء، فقد تأخرتُ عن العمل.

– انتظري. قبل أن تذهبي...

– نعم؟

– أسأظلّ ألتقي بكِ مصادفةً أم يمكننا أن نبدأ بتعمّد اللقاء؟

همستْ ميسان الأفعى في أذن ميسان-حوّاء «لقد نال جرعته من التشجيع اليوم. لا داعٍ للمبالغة ومنحه المزيد. يجب أن يستحقّ هذا الفضل».

أجبتُه: «سأفكر في الأمر».
ثم أضفتُ بينما كنت أخرج من المبنى: «في غضون ذلك الوقت، حافِظ على هذه المصادفات».
ابتسمتُ وأنا أقول ذلك. كانت ابتسامتي سحرًا لا يشبع منه الرائي. أقوى ما ملكتُه من فخاخ. لكني لم أكن في حاجةٍ إلى أيِّ فخٍّ أو طعم. فقد سبق وعلق بالصنارة.

ما إن سلبت الوظيفةُ النفعية ميسان من البهجة الخلاّقة التي كانت تشعر بها عند الخياطة، حتى طافت ذكرى فاطمة في وعيها من جديد. ذكرى ما فعَلَته بها. قبل تلك المرحلة، كانت قد تمكّنت، بطريقةٍ أو بأخرى، من دفن ذلك الحادث تحت طبقاتٍ وطبقاتٍ من الإنكار ومصادر الإلهاء الزائفة. لكنّه عاد ذات يوم، وانبثق بكلِّ ما أوتي من قوّة، فلم يعد باستطاعتها أن تفعل أيَّ شيءٍ لمكافحته. هذه هي حال الصدمات النفسية. في بعض الأحيان، كانت ميسان تغرز نفسها بالإبَر عمدًا. ذراعيها، يديها، فخذَيها. لم تكن ترضى بغرزةٍ خفيفةٍ أو إبرةٍ رفيعة، بل كانت تختار الأشدَّ سماكةً بينها، ذات الحدّ الأرفع. كانت في حاجةٍ إلى الشعور باللسعة، ورؤية الدم يتفجّر، وذكريات الندم تقطر قطرةً قطرةً. لكأنها كانت تنظّف، بصورةٍ موقّتة، ذاكرتها المسدودة.

ما نفع الندم؟ أليس معظم الأخطاء غير قابلٍ للإصلاح؟ نخدع أنفسنا بأدبيات تأنيب الضمير والتعويض، لكن الحقيقة هي أنّ الضمير المثقل بالذنب سيبقى يقرع كطبلٍ في رؤوسنا، في الأوقات غير المناسبة والأماكن غير المناسبة.

هذا هو أحد الأسباب الذي يجعلنا نحسد مَن مات، أكثر ممّن لا يزال ينتظر أن يموت.

ذات يوم، كانت ميسان مستغرقةً في أفكارها الكئيبة عندما ابتسمتْ فجأةً، في خضمّ غضبها وكآبتها. كانت ابتسامةً غريبةً، انبثقت كزهرةٍ بنفسجيةٍ بريّة بين الأنقاض. لم تبتسم لأنّها كانت تنحو، شيئًا

فشيئًا، نحو الجنون. ولا ابتسمت لأنّ قلبها كان يتحوّل إلى حجر (كم تمنّت أن يفعل ذلك أحيانًا). ابتسمت لأنّها تذكّرت لوقا. أنبأها شعورها بأنّه الرجل المناسب. الرجل الذي كانت تنتظره. الرجل الذي سيجعل كلّ هذا يختفي: نوافذ المعمل القذرة، حزن أمّها المتفجّر في داخلها، تعب أبيها الشديد إلى أبعد الحدود، عينَي شقيقتها الفارغتين، همومها الحصينة، ذكرياتها السافلة، وعجزها عن ابتداع البهجة.

عادت إلى كتابها. كان لوقا قد أعطاها «الرغيف» لتوفيق يوسف عوّاد، في الأسبوع الماضي، لقراءته. لم يكن صعبًا كما كانت تعتقد. قرّرتْ أن تُحسِن لغتها العربية من أجله، كونه كان شغوفًا بهذه اللغة، ولأنّها أرادتْ أن تحيط بالمعاني التي كان يضمّنها رسائله. لكنّ عملها المضني لم يكن يسمح لها قطّ بالتزام أيّ تمرين. هكذا هي: حباها الله موهبة الانقطاع عن مهامٍ معيّنة. موهبة المحاولات الناقصة. إنّها لَمعجزةٌ فعلًا أنّها لم تولد ناقصة الكبد أو الرّجل أو أيّ عضوٍ آخر...

وعدها لوقا بأن يعطيها دروسًا خصوصية. قال لها: «أصِرّ على تدريسكِ». سرعان ما أصبح يزورها في منزلها كلّ يومٍ لإعطائها دروسًا مسائيةً، وكانت هي تنتظر وصوله بفارغ الصبر على الشرفة، محاولةً تَرَصُّد صوت بابِ المتجر الفولاذيّ الجزّار وهو يُغلق.

«ولكنكم لا تخافون الموت، بل أنتم تخافون الحياة».

برج حمود – الجمعة 24 كانون الثاني 1964

لا بدّ من مرّةٍ أولى. دائمًا.

لا بدّ من مرّةٍ أولى تُخدَش فيها براءتنا. لا بدّ من مرّةٍ أولى يَحكم فيها قلبنا قبضته علينا كأنّنا وقعنا في مصيدةٍ للفئران. مرّةٍ أولى نتذوّق فيها طعم المرارة. مرّةٍ أولى نفضّل التزام الصمت. مرّةٍ أولى نكتشف النهايات. مرّةٍ أولى نُجبر على فهم ما لم نكن نريد فهمه. مرّةٍ أولى نفتح فيها أعيننا ونرى العالم حقًّا. نرى تناقضاتِه. تقلّباتِه المزاجية. جمالَه في حاله الأوّلية الخام. عظمةَ بدائيته.

لا بدّ من مرّة أولى. دائمًا.
مرّة أولى ندرك فيها أن كلّ طريقٍ أمامنا إنّما هي طريقٌ مسدودة.

المرّة الأولى التي رأت فيها ميسان سيرون حقًّا كانت بعينَي لوقا، بالأحرى بكلماته. لم تتطرّق أمّها أو والدا لوقا إلى ماضيهم في تركيا ولا مرّةً أثناء حديثهم مع أولادهم. لكنه سمع قصصًا كثيرة، من معلّمه الماردينيّ، في شأن ما أصاب الأرمن والأقلّيات المسيحية الأخرى مثل أسرته في العام 1915. لذا، ذات مساء، وبينما كانا يرتشفان كازوزةً في أحد مقاهي الروشة، أطلعها على ما يعرفه. كان ذلك في 1 شباط 1964، أي قبل شهرٍ واحدٍ من عيد ميلادها الثامن عشر، يومَ كان يخطّط لطلب يدها، وقد أراد أن يتأكّد من موافقتها، فأنبأه حدسه بأنّ معرفة هذا الماضي ستقرّبها منه.

للوهلة الأولى، بدا أنّ ميسان لا تُصدّق ما يرويه لها. «لا يُعقَل أن يكون هذا صحيحًا». كانت تعرف أنّ حربًا اندلعت في تلك الآونة. لكنّ ما يرويه كان فوق العادة. هولٌ فوق العادة. ألمٌ فوق العادة. كلُّ شيءٍ كان فوق العادة.

– معلّمك يبالغ من دون شك.

لكنها عادت بعد ذلك إلى البيت وطرحت سؤالًا على سيرون. ثمّ سؤالًا ثانيًا، فثالثًا. فإذا بردّ فعلِ أمّها صمتٌ مُطبِق. صمتٌ صاخبٌ جدًّا إلى درجةٍ تُصِمّ الآذان. صمتٌ لا يمكن أن يعني إلّا شيئًا واحدًا: ما قاله لوقا كان الحقيقة في عينها.

في الأيّام التالية، بقيتْ تسأل أمّها عن ذلك الفصل في حياتها. «لِمَ تركتِ عنتاب؟ لِمَ اخترتِ الذهاب إلى القدس؟ ماذا حدث لأهلكِ؟ هل لديكِ أخوةٌ وأخوات؟ كيف كانت حياتكِ قبل أن تلتقي بابا؟»

لا شيء. لكأنّ هذه الأسئلة كانت أكبر من سيرون. لكأنّ تلك السنوات الثماني عشرة الغامضة لم يكن لها وجودٌ في حياتها قطّ.

أو لكأن وجودها فرض نفسه عليها أكثر من اللازم.

بقيتْ ميسان تحاول، إلى أن قررت الكفّ عن ذلك وقد شاهدت أمها تغرق في كآبةٍ سحيقة. لكنها تمكّنت من الحصول على بعض الأجوبة من باسم الذي، وهنا الغريب، لم يكن يعرف الكثير، إلّا أنه على الأقلّ يعرف أكثر منها. أخبرها أن سيرون كان يتيمةً فقدت أسرتها في تركيا خلال المذبحة الأرمنية. وأن زوجين أرمنيين من حلب تبنّياها. وأن هذين الزوجين انتقلا إلى القدس عندما أصبحت سيرون في الثامنة. وأن أمّ سيرون بالتبنّي كانت خياطة ماهرة تُدعى ڤارتوهي، وأن أمها البيولوجية خياطةٌ أيضًا. وأن صديقة سيرون المقرّبة في القدس كانت تُدعى أناهيد، وأن باسمًا تعرّف إليها من طريق والد أناهيد، شفيق، الذي كان أحد أصدقائه المقرّبين.

أخبر باسم ميسان أن معظم هذه المعلومات وصلته من شفيق الذي حصل عليها بدوره من ڤارتوهي. أمّا سيرون، فلم تحدّثه مرّةً عن ماضيها. لم يعرفْ مرّةً إن كان لديها أشقاء، لكنه يعرف، من تذكرتها، أنّ اسمَي والدَيها الأوّلَين هما نظار ومارين. وهذا كلّ شيء: حياة طويلة من الشقاء اختُصِرتْ في بضع كلمات.

كان لوقا مُحِقًّا في حدسه. فقد زاد ذلك الاكتشاف العظيم الحميميةَ التي جمعته بميسان، والتي اعتبرتْ مشاطرة المعاناة بين أمها ووالديه إشارة. إنها ولوقا مشحدان برابط المأساة. أنبأها حدسها بأنها مأساةٌ أشدّ سوداويةً مما كان كلاهما يتخيله. الأمر الذي رسّخ تلك الخرافة المرسومة في مخيلتها بأن أحدهما خُلِق للآخر. في الواقع، لعلّ الشيء الوحيد الذي لم يكونا يشتركان فيه كان نظرتهما إلى لبنان: فميسان لم تشعر قطّ بانتماءٍ حقيقيّ إلى هذا البلد، في حين أن وطنية لوقا وغيرته على لبنان كانت متأجّجة. كُبْرَ على ولاءٍ يكاد يقارب التعصب لفكرة لبنان.

وبعد، أليس هذا ما هو لبنان عليه، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا: مجرد فكرة؟

علمًا أنها فكرةٌ عظيمةٌ.

طلب لوقا يد ميسان في أذار 1964. لكنْ سلسلةٌ من الوفيات في أسرته أجبرتْهما على تأجيل الزفاف، مرّةً تلو الأخرى، بدءًا بوفاة والده. كان الأشوريّون يأخذون فترة الحِداد على محمل الجدّ. مع ذلك، بقيتْ تصلها قصائده ورسائله الغرامية، لسنواتٍ عديدةٍ لاحقة. عندما تزوّجا أخيرًا في 2 أذار 1969، كانت ميسان تملك ستمئةً وأربعًا وعشرين رسالةً من لوقا. ستمئةٌ وأربعةٌ وعشرين وعدًا بأن يبقى لها عاشقًا إلى الأبد، وقد أطلق عليهما الجيران في المبنى اسمَي قيس وليلى.

أجرى العاشقان عمليةً حسابيةً، استنتجا بموجبها أنّ أسرتَيهما، مجتمعتَين، شهدتا على الحرب العالمية الأولى عام 1914، والمذبحتَين الأرمنية والأشورية عام 1915، والحرب العالمية الثانية عام 1939، والحرب العربية الإسرائيلية عام 1948، والأزمة اللبنانية عام 1958. هذه الحروب، في الداخل والخارج، بقيتْ تربطهما إلى ما لا نهاية. حبالٌ تنمو وتتلوّى من حولهما، بينهما، تحت أقدامهما، فوق رأسَيهما، وحول عنقَيهما كنباتاتٍ برّيةٍ في غابةٍ أمازونية.

ما من رابطٍ أقوى من رابط الحزن. وما من رابطٍ أشدّ منه تقلّبًا وأسهل تحوّلًا إلى النفور. فرؤية عذابك كلّه مجسّدًا في وجه شريكك، سيجعلك تكرهه في نهاية المطاف. نخال أننا في حاجةٍ إلى مَن يذكّرنا بمَن نكون كي نواصل البقاء. لكنْ ما نحتاج إليه في أغلب الأحيان هو النسيان، وتحرير أنفسنا من قبضة الماضي. نحتاج إلى خلعه عنّا كجلدٍ متجعّدٍ خشنٍ، والبدء من جديد.

مهارة البدء من جديد، بلا كللٍ، مهارةٌ تفرضها علينا الحياة وجوبًا. الحبّ كذلك.

كلا، ليست هذه بنزوة كاتب: كان على قيس وليلى أن يموتا. بكلّ بساطة.

برج حمود – الخميس 24 أيلول 1970

لها خُصَلُ أمي المتموجة الحمراء. شعرها أحمر قانٍ، متوقد. قال لي الطبيب إنه لم يرَ طفلةً رضيعةً بهذا القدر من الشعر قبلًا. قال أيضًا إنها وُلدتْ بعينين واسعتين مفتوحتين. أضاف أنه أمرٌ غير اعتياديّ البتة.

– أهو أمرٌ جيدٌ أم سيئ؟

– لا هذا ولا ذاك. إنه نادرٌ فحسب.

سأسميها شيرين. اسمها سيجلب لها القوة بكلّ تأكيد، بما أنه اسمُ بطلةٍ فارسية. شيرين ستكون ذكيةً وجميلة. لا مثلي، بل أجمل بكثير. لن يجرؤ أحدٌ على السخرية منها أو إذلالها. لن أسمح بذلك. ستكون طموحةً ومجتهدة، وستحقق إنجازاتٍ رائعة. إنجازات كتلك التي يُكتب عنها في الصحف.

ستكون محاميةً شجاعةً تدافع عن الأبرياء. لا، ستكون طبيبةً لامعةً تنقذ الأرواح. لا، بل ستكون مهندسةً بارعةً تشيد صروحًا عملاقة... هل يمكن أن تصبح رائدة فضاء؟ سمعتُ أن رجلًا أميركيًا حطّ على القمر العام الماضي. القمر! قالوا إنه رائد فضاء. لعلّ ابنتي شيرين ستحطّ، بدورها، على القمر ذات يوم. ولِمَ لا؟ فكلّ شيءٍ ممكن. سأحرص على أن يكون ممكنًا.

أو لربما ستحقّق لي حلمي وتصبح مصممة أزياء. مصممة موهوبة جدًا ومعروفة، مثل كوكو شانيل. ستصمم ملابس تحمل اسمها، وعطورًا أيضًا. أذكر ملصقًا كان معلقًا على أحد جدران المعمل، تظهر فيه كوكو شانيل وهي ترتدي ثوبًا أسود وتضع عقدًا من اللؤلؤ. كانت تبتسم، لكنها لم تكن ابتسامةً عريضة، كانت كابتسامة الأثرياء الواثقين من أنفسهم. يفترّ ثغرهم عن ابتسامةٍ صغيرةٍ فقط، لأنهم قادرون على ذلك. لأنك

عندما تملك المال، لا تحتاج إلى أن تُثبت للآخرين أنك سعيد. هم يعرفون ذلك. وأنت تعرفه أيضًا.

كنت أتأمل هذا الملصق كلّ يوم وأفكر: «يا لها من امرأةٍ أنيقةٍ ورزينة!» لم أعرف حينذاك من تكون. لم يكن الملصق يحمل اسمًا. اعتقدتُ في بادئ الأمر أنها والدة صاحب المعمل أو ما شابه. لكن ذات يوم، رأيت الصورة نفسها في مجلةٍ للموضة، تحمل اسمًا مكتوبًا بأحرفٍ داكنةٍ وبارزة، «مادموازيل كوكو شانيل». حينها فقط، قرأتُ قصة كفاحها وأُغرمتُ بها. ولدتْ لعائلةٍ فقيرةٍ معدمة وعاشت حياةً صعبة. ثم علّمت نفسها الخياطة في الميتم حيث ترعرعت. لكنها لم تسمح لأيّ عائقٍ بأن يحول دون وصولها إلى ما تريده. ارتقت السلّم الاجتماعي منطلقةً من الصفر، حتى أصبحت من أهمّ مصممات الأزياء في تاريخ الموضة. جاء على لسانها في المقابلة قولها: «لم تكن حياتي تروق لي، فصنعتُ بنفسي حياةً جديدة».

ليتني استطعتُ أن أصنع حياتي أنا أيضًا.

لكنّ الإرادة يا مادموازيل كوكو لا تكفي دومًا. يحتاج الإنسان إلى لكزةٍ من العناية الإلهية، تتجسد في عاشقٍ ثريٍ مثلًا.

هذا ما ستفعله ابنتي شيرين. ستصنع حياتها بنفسها. ستكون شهيرةً وناجحة. ستلتقي بالكثير من الأشخاص المثيرين للاهتمام، وذاتَ يوم، عندما يحين الأوان، ستتزوج رجلًا يقدرها ويعرف قيمتها. رجلًا يعتني بها ويجنبها الهموم. كلّ الهموم.

ستسافر شيرين أيضًا. لطالما حلمت بالسفر. إحدى قريبات لوقا تعمل مضيفةً في طيران الشرق الأوسط، ولا تنفك تزور كلّ تلك الأماكن الرائعة. وصفتْ لي باريس. يبدو أنّ هناك برجًا عاليًا جدًا إلى درجة أننا نستطيع رؤيته من مكانٍ في غاية البعد. أخبرتني مريم أيضًا أن باريس هي مدينة الحب. قالت إنها مكانٌ رومانسيٌ وساحر. أودّ أن أزور باريس ذات يوم. فهناك كانت تعيش كوكو شانيل. لربما ستأخذني شيرين لزيارتها عندما تصبح شهيرةً وناجحة.

وعد لوقا بأن يأخذني، لكن شيئًا ما ينبئني بأنه لن يفعل.

– أعدكِ بأني سأهتم بكِ دومًا. دومًا.

صدّقته ميسان. كانت في حاجةٍ إلى ذلك. لكن بعد زواجهما بوقتٍ قصير، اكتشفت أنَ وعوده كلّها ليست إلّا حبرًا على ورق. كلّما وعدها بأمرٍ جديد، كانت تسأله بسخرية: «وين بصرفها هيدي؟»

كلّ مرّةٍ أخبرته فيها عن فاتورةٍ يجب دفعها، أو أداةٍ منزليّةٍ يجب إصلاحها (معاذ الله أن تقول «استبدالها»، فذلك كان غير واردٍ على الإطلاق)، أو أيّ غرضٍ يجب شراؤه لابنتهما على وجه السرعة، كان يرفع عينيه عن كتابه الثمين لبرهةٍ ويقول: «أعدكِ بأني سأجد حلًا قريبًا. كفّي عن الإلحاح».

كان يسدّد ثمن وعدٍ بوعدٍ آخر.

وأين ستجد حلًّا يا لوقا؟ بالتأكيد لن يكون في مقدّمة ابن خلدون.

– إذا توقّفتُ عن الإلحاح، نموت جوعًا.

كانت الحياة تزداد عسرًا، خصوصًا منذ اندلاع الحرب. فالأعمال في المصبغة بالكاد كانت مزدهرةً من قبل، ولا سيما في ظلّ تأخر لوقا المستمر في تسليم الملابس، وإهماله الذي لا يُغتفر، ما نفّر الزبائن الذين كان والده قد جدّ في جمعهم على امتداد السنوات. أمّا ما بعد العام 1975، فقد ازداد الوضع سوءًا، وأخذ الزبائن الأوفياء القلائل يختفون الواحد تلو الآخر. فمَن يكترث ليبالي بقمصانٍ غير مكويّةٍ عندما يموت الناس على مقربةٍ منه؟ كانا قد قرّرا إرسال شيرين إلى مدرسةٍ خاصّةٍ مُكلفةٍ نوعًا ما، وقد تطلّب دفع الأقساط جهودًا وتضحياتٍ كبيرة من ميسان. لم تكن تذكر متى تسنّى لها شراء غرضٍ لنفسها، باستثناء مجلّة الموضة الشهريّة التي شكّلت «إثمها» الوحيد. وهو إثمٌ ساعدها على تغذية حلمها السرّي، ونسيان أنّها تلبس الثياب نفسها منذ

سنوات. في الواقع، لم تكن تمانع ذلك. فليست من النوع الذي يهتم بالفساتين الجديدة، أو المجوهرات الفاخرة، أو الماكياج العالي الجودة، أو تسريحات الشعر المعقّدة. كان مستقبل ابنتها الشيء الوحيد الذي لن تساوم عليه. ذات يوم، ستجسّد شيرين ما لم تتمكّن ميسان من أن تكونه، ما كان في مقدور ميسان أن تكونه، فقط لو أنّ...

لو أنّ... كانت ميسان إنسانةً واقعيةً. عرفتْ أنّه من غير المجدي التفكير في كيف كانت حياتها، أو أيّ حياةٍ لتكون، «لو أنّ». فهذه الافتراضات حكرٌ على الأثرياء حصرًا؛ أولئك الذين يستطيعون تحمّل كلفة التجربة؛ أولئك الذين يتحلّون بالجرأة لأنّهم يعرفون أنّ الفشل لا بأس به، وأنّه من الممكن البدء من جديد؛ أولئك الذين لم يضطرّوا، في المقام الأوّل، إلى أن يتوسّلوا للحصول على أيّ شيء.

لن تنسى ميسان ذلك اليوم، بعد اندلاع الحرب وتدهور وضعهما المالي، عندما توجّهتْ إلى مدرسة شيرين لتطلب حسمَ مبلغٍ من الأقساط. كانت الراهبات قد أخرجن الفتاة من الصفّ قبل يومٍ واحدٍ، وأرغمنها على الجلوس على السلالم كمتسوّلة، لأنّ والديها لم يدفعا كامل الأقساط المدرسية. كانت ميسان مستعدةً لتحمّل أيّ شيءٍ كي لا يتمّ إذلال ابنتها على هذا النحو ثانيةً أمام زميلاتها. ركعتْ أمام الراهبة كونستانس وأخذتْ تتوسّل إليها وتستعطفها. لكن مهما علا رجاؤها، فإنّ ذلك لم يؤثّر البتّة في الراهبة المتحجّرة القلب التي لم تقبل منحها أيّ حسم.

– لِمَ لا تنقلينها إلى مدرسةٍ رسميةٍ؟

كانت هذه الكلمات خنجرًا شقّ كبرياء ميسان. فهي لم تكن من النوع الذي يكشف عن ضعفٍ أو مذلّة، حتى عندما كانت تشعر بهما، أو عندما كانت الحياة تجبرها على الشعور بهما، أي في أغلب الأحيان. ذات مرّة، شربتْ شيرين كوبًا كاملًا من ماء الورد في منزل أحد الجيران، فما كان من ميسان إلّا أن صفعتْها بقوّة، ما إن وصلتا إلى

البيت. «يجب أن تتركي دائمًا كميةً من الشراب في الكوب. دائمًا! سيعتقدون الآن أننا لا نؤمن لكِ حاجاتكِ». على غرار الكثير من الفقراء، كانت كبرياؤها، لا بل عجرفتها، عارمةً. فكرامتها كانت فوق كلّ اعتبار. لذا، بدأتْ تحرم نفسها من أشياء كثيرة من أجل تلبية أبسط احتياجات ابنتها. لكنّها لم تفسح المجال أمام ابنتها كي تلاحظ أيًّا من ذلك. كانت شيرين تسألها، وهي تتلذذ بكوبها الصباحي اليومي من حليب «نيدو»: «لِمَ لم تعودي تشربين الحليب يا أمي؟»

– لم أعد أحبه.

– هل يمكنني أن أشرب كوبًا آخر؟

– كلا، يكفيكِ كوبٌ واحدٌ وإلّا أصبتِ بألمٍ في المعدة.

كانت شيرين تعشق الحليب. فحتى بعد أن انتقلت ميسان إلى إطعامها الأغذية الصلبة بوقتٍ طويل، بقيتْ تطالب بزجاجات الحليب كلّ صباحٍ ومساءٍ.

– لِمَ لا تنقلينها إلى مدرسةٍ رسميةٍ؟

نعم. هذا ما كان يسوع ليقوله بالضبط أيتها الراهبة كونستانس.

برج حمود – الأحد 6 حزيران 1976

الأحد هو يوم عطلة أبي الوحيد. لا يزال يجهد نفسه في العمل مع أنه في الثانية والثمانين. أمّا أمي، فتخلّت عن الخياطة لأن يديها ترتجفان باستمرار، وباتت حسيرة البصر. كانت نجاة تحتاج إلى الفاليوم. الكثير والكثير من الفاليوم. والفاليوم باهظ الثمن. أعطيهما القليل من المال، لكني أتمنى لو أستطيع أن أساعدهما بأكثر من ذلك. لا يعرفان أن وضعي صعبٌ بما فيه الكفاية. الأسبوع الماضي، اضطررتُ إلى استخدام مبلغٍ من المال أحتفظ به للحالات الطارئة، كي أدفع قسط شيرين. بعتُ خاتم خطبتي أيضًا. لم أحتجْ إلى فعل ذلك، ليس بعد، في أيّ حال، لكني أردتُ أن أتخلّص منه فعلًا. فقد ذكّرني بأيامٍ كنتُ فيها ساذجةً وغبيةً.

كان لوقا يمضي معظم وقته في المصبغة وهو يقرأ الكتب. لا أنفك أطلب منه البحث عن عمل، لكنه لا يصغي إلي. لا يجيد إلا القراءة. وإطلاق الأحكام الطنانة عن الحياة طبقا. إنه من أولئك الذين يتظاهرون بمعرفة كل شيء. لكن الكتب لا تقهر الجوع، يا أستاذ. الكتب لا تدفع الأقساط المدرسية. انهض. تحرك. افعل شيئًا!

زرنا أمي اليوم لتناول طعام الغداء. كانت قد أعدت طبق لوقا الأرمني المفضل: المانتي [5]. كانت تقدره وتحب أن ترضيه. مع أنه لم يكن يستحق ذلك. كانت تحترمه كثيرا لأنه كان مثقفًا واسع الاطلاع، ولأني لم أشك لها مرةً ما أعانيه في زواجنا. كلما سألتني عن الأحوال، كنت أجيبها دائمًا: «الحمد الله!» تكفيها همومها. لن أثقل عليها بهمومي.

كان المذياع شغالًا، كما هي الحال دائمًا في كل أسرة لبنانية منذ اندلاع الحرب. بينما كنا نفرغ من طعامنا، سمعنا في الأخبار خطابًا لاذعا لبشير الجميل. قبل خمسة أيام، كانت القوات السورية قد دخلت لبنان بشكلٍ رسمي لمساعدة المسيحيين على إنهاء الحرب الدائرة. في خطابه هذا، كان الجميل يعترض على التدخل السوري. لا بل ويهدد بالاستقالة من حزبه، الكتائب، كون هذا الأخير وافق على دخول السوريين.

بمجرد أن فرغ الجميل من خطابه، هتف لوقا: «هذا بطلٌ حقيقي!»

فاعترضت قائلةً: «إنه مجرد قاتل!»

عزمتُ ألا أتيح له التفوه بهذه التفاهات من دون محاسبة، حتى لو كلفني الأمر التشاجر معه أمام أمي وشيرين، مع أني كنت وعدت نفسي بأن لا أفعل ذلك. لكني أمقت ذلك الجميل. كان قد ذبح الكثير من الفلسطينيين. فقدتُ صديقتي العزيزة سمية في كانون الثاني الماضي. سمية اللطيفة، الفجة. بمجرد أن عناصر من حزب الكتائب تبينوا من لهجتها أنها فلسطينية، أردوها بالقرب من منزلها في الكرنتينا وهي في طريقها لشراء الخبز. عندما وصلني الخبر، شعرتُ برغبة في تمزيق بطاقة هويتي اللبنانية. قبل شهر من تلك الحادثة، ارتكب حزب الكتائب نفسه مجزرةً أخرى في حق الفلسطينيين. في يوم رهيب جدا بات

يُعرف بالسبت الأسود. مجرمون. مجرمون. جميعهم مجرمون. القادة يتعاركون والأبرياء يتساقطون.
لكنّ لوقا لم يصمت.
- إياكِ ووصفه بالقاتل مجددًا! القتلة الحقيقيون هم أبناء جنسك!
«جنسي؟» اقشعرّ بدني واجتاحني شعورٌ بالسخط والنقمة. لم تكن هذه الكلمة ما أثار غضبي فحسب، بل نبرته عندما تلفظ بها. كم كانت تنطوي على احتقارٍ وتعالٍ وإهانة. كان يستغلّ غياب أبي للتهجم على الفلسطينيين.
- حقًا؟ حريٌ بك إذًا أن تستقبل السوريين بحفاوة. أليسوا قادمين لمساعدتكم ضد «جنسي»؟
- كفي عن الثرثرة حول أمورٍ لا تفقهين منها شيئًا. هذه سياسة. السوريون يريدون السيطرة على لبنان. كلّ ما يُحكى عن مساعدة المسيحيين مجرد كذبة.
انحازتْ أمي إليه. كنتُ أعرف أنها ناقمةٌ على الفلسطينيين. نقمةٌ شديدة. لكنها لم تخبرني السبب قط. كما أنها لم تعبر عن نقمتها هذه أمام والدي ولو مرةً، رغبةً منها في مراعاة شعوره.
قلّما كانت تهمني السياسة أو السوريون أو المسيحيون. قلّما كان يهمني لبنان أيضًا. فهو مجرد مكان، شأنه شأن غيره، والأمكنة غير مهمة. وحدهم الناس مهمون. الناس الذين يموتون أثناء شراء الخبز لأسرهم. الناس الذين لا يكتفون بالجلوس والقراءة بينما تركع زوجاتهم على ركبهن يا لوقا.

سألت وهي تخشى سماع الإجابة: « Kaniyeh ?» [٤]، فالمتجر بدا فاخرًا جدًا.

ردت البائعة بنبرةٍ جافة: «ستون ليرة». كانت تنظر إليها بازدراء كأنها تقول لها: «السعر فوق طاقتكِ بكلّ تأكيد».

في تلك المرحلة، كان لوقا بالكاد يجني مئتي ليرة شهريًا. اكتفت ميسان بالوقوف في مكانها، وهي تحدق في الفستان أولًا، ثم تتمعن فيه عن كثب ثانيًا. كان مصنوعًا من قماش البيكيه الأبيض، مع تطريز باللون الأزرق عند الكمين والحاشية. سألتها البائعة بنبرة لاذعة: «هل من شيءٍ آخر؟»

كأنها تقول: «اغربي عن وجهي الآن».

جرّت ميسان شيرين من المحلّ. بدت هذه الأخيرة حزينة وكأن لا شيء يعزّيها.

– سأخيط لكِ فستانًا أجمل منه.

منذ أن أصبحت شيرين في السادسة من العمر، بدا أنّ شيئين فقط يستهويانها: الكتب الممتعة والملابس الجميلة. لم تفهم ميسان قط كيف جمعت بين هاتين الهوايتين، أو من أين كانت تنهل كلّ هذه الشهية لكلا الأمرين معًا. لطالما اعتقدت أنّ أحدهما يلغي الآخر... أنّ الفتيات اللواتي يهوين المطالعة لا يبالين بالمظهر، وأنّ أولئك المهتمات بالموضة لا يهتممن بالكتب. لكنّ شيرين أثبتت لها أنها على خطأ. لكأنّ هذه الفتاة تستوفي معادلةً رياضيةً مُعَدّةً بإحكام: مجموع النصف من والدتها والنصف من والدها بالضبط. لحسن الحظ، كان لوقا يملك الكثير من الكتب (أو بالأحرى «الكثير جدًا» كما كانت ميسان تتمتم بنقمةٍ بينما تمسح الغبار عن الرفوف الخشبية)، ولطالما نجح في الحصول على المزيد من معارفه. أمّا شغف ابنتها المبكر بالموضة، فيبدو أنه سيكون مكلفًا جدًا.

– ماذا سألبس لحفلة عيد ميلاد دودو؟

– ما رأيكِ بالفستان البنفسجي الذي اشتريتهُ لكِ من عند الزهّار الصيف الماضي؟

– غير ممكن! فقد لبسته في عرس تيما ورآني الجميع فيه!

كانت في السابعة من عمرها بحق الله! كيف يمكن لفتاةٍ في السابعة أن تهفها الأناقة على هذا النحو؟ فوق ذلك، كانت ملفة بهذا المجال جيدًا. عرفت أيّ القطع تتلاءم مع بعضها، وأيّ النقشات كانت رائجة في كلّ موسم، وكيف يناسب تصميمٌ معينٌ جسدًا ما دون غيره، وفي طبيعة الحال ما هي الألوان التي يجدر بالفتاة الصهباء أن تتجنبها! حتى أنها كانت تتصفّح عدد «بوردا» الجديد كلّ شهر قبل أن تقوم والدتها بذلك.

كانت ميسان قد استقالت من عملها في معمل الخياطة عندما تزوّجت بلوقا. فبعد تسعِ سنواتٍ مما سمّته عمل «السخرة»، بقيت تنتابها كوابيس عن ذلك المكان حتى بعد مغادرتها له بوقتٍ طويل. لعلّ أكثر الكوابيس استحواذًا على لاوعيها هو ذلك الذي تتحوّل فيه ماكينات الخياطة إلى نمالٍ عملاقةٍ تلتهمها حيةً. مع ذلك، تتمنى اليوم لو أنها لم تستقلّ من تلك الوظيفة. لا بدّ لها من إيجادِ حلٍّ، وبسرعة.

كانت قد تمكّنت من ادخار بعض النقود أيامَ عملها في المعمل. مبلغٌ احتفظت به للحالات الطارئة حصرًا. كان بإمكانها إنهاء اثنتين وعشرين قطعةً من الملابس يوميًا، وأحيانًا أكثر، في حين أنّ الفتيات الأخريات كنّ يسلّمن ما معدله خمس عشرة أو ست عشرة قطعة. تعطي أمها الراتب الذي نالته مقابل عشرين قطعة، وتخبئ الباقي. ألا يقولون: «خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود!؟» فانبرت ميسان تخبئ وتخبئ. لم تسمح لنفسها بتبذير المال حتى لو سوّلت لها نفسها ذلك. فكانت النتيجة ثروةً متواضعةً قيمتها 1170 ليرة: مقابل 260 يومَ عملٍ في السنة، ادخرت فيها أجر قطعتين يوميًا، أي ما يوازي 25 قرشًا للقطعة الواحدة، طوال تسعِ سنواتٍ. سمّت ثروتها هذه «صندوق الاحتياط»، واحتفظت به في جزدانٍ جلديّ أسود صغيرٍ في خزانة ابنتها. كانت قد استخدمت جزءًا من هذا المبلغ لتغطية العجز عن تسديد أقساط شيرين المدرسية على مرّ السنوات. لكنها لم تخبر لوقا

عنه، ولا حتى قبل زفافهما. لكأن أمرًا ما بقي يحذرها من إخباره. وهي، بكلّ تأكيد، لن تخبره عنه الآن. فهو لا يحتاج إلى ذرائع إضافية للاسترخاء، ومَدّ رجليه، من دون أن يؤتي صنيعًا.

كانت ماكينة الخياطة قد لفتت نظرها قبلًا. رأتها معروضةً في واجهة محلّ بارون هاغوب. ماكينة مستعملة من ماركة ميرسيدس. بدت لها الحلّ الأمثل. «يمكنني أن أشتريها بالمال المحفوظ في الصندوق الاحتياطي. هكذا أجني مصروفًا إضافيًا لتعليم شيرين، وأخيط لها كلّ الفساتين التي ترغب فيها أيضًا».

وهكذا كان. اشترت أيضًا خيوطًا من كلّ الألوان، ومازورةً، ومقصًا من نوعيةٍ جيدة، وإبَرًا ودبابيس، ومجموعةً متنوعةً من الأزرار، فضلًا عن مسطرةٍ وكشتبان. ولم تنسَ أن تضيف مترَين من قماش البيكيه الأبيض، من أفضل النوعيات المعروضة لدى بارون هاغوب، بالإضافة إلى خيطٍ أزرق مميز، ضنع خصيصًا للتطريز. خيط من الفسكوز، لا البوليستر.

– سأخيط لكِ فستانًا أجمل منه.

في ذلك اليوم، كانت ميسان تبتسم وهي تحمل معها ماكينة الخياطة إلى المنزل. قالت في نفسها: «الآن، ستتمكّن أميرتي الصغيرة من شرب كوبَين من الحليب كلّ صباح».

بيروت – الثلاثاء 11 نيسان 1978

كنتُ أعلم أنها ستقدِم على ذلك. علمتُ، منذ أن أجلستني البارحة وملأتْ كلّ تلك الثغر التي لطالما كانت غامضةً ما بيننا. سنوات سيرون الثماني عشر الخفية لم تعد خفيةً. لقد انجلت.

كنتُ أعلم أنها ستقدِم على ذلك. علمتُ، منذ أن أعطت شيرين قلادتها، ذلك الكنز الوحيد الذي كانت تملكه. يومذاك، حين بدأت القلادة الفولاذية بين يدَي شيرين الصغيرتين تقرع بينما تلعب بها، دينغ. دينغ. دينغ، بدا لي كأنه ناقوس الوداع. وداعٌ خفيفٌ، ناعمٌ، بالكاد يُسمع.

الآن، سأضطر إلى السير وحيدةً مع شبحها، ولن أتمكّن من الالتفات إلى الوراء لأنها أغلقت الباب من خلفي، من خلفنا.
إلى أيّ مدى نحن جاهزون لنصبح المالكين الشرعيين لدموع شخص آخر؟ غالبًا ما نطرح أسئلةً لا نريد الإجابة عنها حقًّا. فالأسئلة تخفف عنا. تعني أننا «حاولنا». لكن بين الحين والآخر، تظهر الأجوبة فعلًا، على حين غرة. يبدأ هطول المطر. إنه مطرٌ غزير، أكثر مما يمكن لأعيننا أن تمتصه، فيغمرنا فيضٌ من المشاعر، وقد أيقنا أنّ درب عودتنا إلى البراءة اضمحلّ إلى الأبد.
كنتُ أعتقد أن الوسيلة الوحيدة للعيش هي أن نكون سريعين... أي سريعين بما يكفي لالتقاط تلك الكرة التي لا ينفك العالم يرميها ناحيتنا. ثم أن نكون سريعين في رميها من جديد. لكني الآن أعرف أنه من الأفضل لنا أن نتظاهر بعدم رؤية الكرة على الإطلاق. وإلا، فإن اللعبة ستستمر حتى يوم مماتنا.
كنتُ أعلم أنها ستقدم على ذلك. فلطالما حفلت عيناها بذلك التعبير المليء بالذهول. لكأنها كانت تقول: أنا لا أنتمي إلى هذا المكان.
الآن وقد رحلتِ يا مايريغ، أخبريني: هل تنتمين فعلًا إلى أيّ مكان؟

كرهتْ نفسها، أكثر فأكثر، كلّ يوم، لكن لم يكن بيدها حيلة. لكأنّ شيطانًا بات يستحوذ عليها. وهذا الشيطان هو الذي كان يوسع ابنتها ضربًا. بعد ذلك، كانت تستيقظ من غيبوبتها هذه، فتدرك ما فعلته. لا. ليس ما فعلته هي: بل ما فعله الشيطان. أمّا هي، فما كانت لتقدم على أمرٍ شنيعٍ كهذا عن عمد. فشيرين حياتُها.

امتلأ رأس ميسان بالأصوات. أصواتٌ تصرخ طوال الوقت. تصرخ بأشياء رهيبة. بأنها أمٌّ سيئة. ابنةٌ سيئة. زوجةٌ سيئة. أصواتٌ تصيبها باليأس. بالحزن. بالنزق. بالغضب. بالعدائية. أصواتٌ تدفعها إلى الاستمرار في التنظيف. كلّ شيءٍ قذرٌ يا ميسان! اغسلي! افركي! امسحي! اكنسي! انفضي الغبار! أصواتٌ تأمرها أيضًا بأن تضرب ابنتها.

زارت الطبيب مرّةً. في بادئ الأمر، اعتقد أنها مصابةٌ بانفصام في الشخصية. لكن، بعد وابلٍ من الأسئلة، أخبرها بأنها تعاني اضطراب الوسواس القهري. قال لها بنبرةٍ تكاد تكون جذِلةً: «هذا ممتاز! فانفصام الشخصية أكثر تعقيدًا وخطرًا بكثير». تساءلت ميسان، وهي تنظر إلى البسمة على وجهه، إذا كان يجدر بها الاحتفال لأنّها مصابةٌ باضطراب الوسواس القهري «فقط».

على ما يبدو، كان اضطراب الوسواس القهري، ما دفع بها إلى التفكير في كلّ تلك الأفكار العنيفة وغير المنطقية المتكرّرة، تلك التي تدعوها «الأصوات». على ما يبدو أيضًا، كلّما حاولت مقاومة تلك الأفكار، ازدادت هذه الأفكار قوّةً. «لكن يا دكتور، أنت لا تعي خطورة الأمر، كدتُ أقتل ابنتي يوم الجمعة الماضي. رميتُ المكواة نحوها». وصف لها حبوبًا. لكنّ ميسان لم تكن تريد حبوبًا. فالحبوب حوّلت أختها إلى زومبي.

أوصاها الطبيب أيضًا بزيارة مُعالِجٍ نفسي. فالتغلّب على هذه المتلازمة، كما قال، يتطلّب تحليلًا، ومشورةً، وصبرًا، ومتابعةً مستمرة. «يجب أن تتعلّمي كيفيّة مقاومة اللامنطق بأدوات المنطق. إنّها عادةٌ سيساعدكِ المُعالِج النفسي على اكتسابها بمرور الوقت».

وأضاف: «هذا هو العلاج الحقيقي الوحيد لمشكلتكِ».

بيروت – الاثنين 26 أيلول 1983

«دعني أخبرك عن مشكلتي الحقيقية يا طبيبي العزيز!

أنا فاشلةٌ. متزوّجةٌ من رجلٍ فاشل. تعرّضتُ للتحرّش في صغري. قتلتُ أختي الأولى وسجنتُ الثانية في مستشفى للأمراض العصبية. انتحرت أمّي. وقبل أسبوعين، خسرتُ الرجل الوحيد على وجه هذه الأرض الذي أحبّني حقًّا. الأسبوع الماضي، اكتشفتُ أنّي حاملٌ بطفله. السبت الفائت، قتلتُ طفلنا. شهدتْ ابنتي على كلّ شيء. كان عليّ أن أصحبها

معي لمساعدتي في طريق العودة. إنها تكرهني وأنا أكره نفسي أيضًا. هذه هي مشكلتي».
لم أقل له كل هذه الأمور. قلتها لنفسي فقط بينما كنت أغادر عيادته.
ثم رميتُ علبة الأدوية التي أعطاني إياها في سلّة للمهملات في الشارع.
سلة للمهملات تشبه حياتي إلى حد كبير.

كان أصعبَ شيء فَعلَته ميسان في حياتها، لكنها علمتْ أنها مضطرةٌ إلى فعله. من أجل ابنتها، لا من أجلها. فهي لا تسعى إلى الخلاص؛ كلُّ ما أرادته هو إنقاذ شيرين من حال الجفاف التي ألفتْ بها. كانت قد شعرتْ بتغييرٍ طرأ عليها أخيرًا. حدثٌ جَلَلٌ غيّر مجرى في حياتها. حدثٌ غير اعتياديٍّ جعلها أرقّ وأكثر خفةً. «لا بد من أنه الحبّ». وعلى شيرين أن تنتهز الفرصة وألّا تفلتها أبدًا. أدركتْ ميسان منذ وقتٍ طويلٍ أنّ زواج ابنتها فشل فشلًا ذريعًا. فوق ذلك كلّه، يصادف اليومَ تاريخٌ مهمٌّ؛ تاريخٌ مناسبٌ للاعتراف الذي كانت تنوي القيام به.

كان صباحًا شتويًا باردًا من العام 2005. يومذاك، انهمكتْ ميسان في إعداد طبق شيرين المفضّل، العدس بحامض، قبل وصول ابنتها المتوقَّع عند الساعة التاسعة. كانت الأخيرة تكثر من زياراتها لبيروت في الآونة الأخيرة، لكنها لم تُقِمْ في منزل والدَيها قط. كانت تقول لها: «أشعر براحةٍ أكبر في الفندق يا أمي».

لم تضيّع ميسان الوقت. ما إن وصلتْ شيرين، وجلستا ترتشفان القهوة، حتى انطلقتْ في الحديث.

– اليوم، كان ليكون عيدنا الخامس والعشرين.

نظرتْ شيرين إلى أمها وقد بدت عليها علامات الحيرة والارتباك. فتابعتْ ميسان.

– كان لطيفًا وكريمًا. لطالما أرسل إلينا أفضل البضاعة من دكانه مجانًا. المواد الأساسية والكماليات على السواء. كان يقول: «الشوكولاتة من أجل شيرين، ستحبّ شيرين هذا النوع من المثلّجات».

تذكرينه، أليس كذلك؟ كنتِ تتسلّمين الأغراض من دكانه أحيانًا. كنتِ تسأليني كيف يُعقل أننا لا ندفع له شيئًا، فأجيبكِ دائمًا أني دفعتُ له سلفًا.

أحبّني حقًا يا شيرين. أخيرًا، كنتُ المفضّلة بالنسبة إلى شخصٍ ما.

قتلوه. كان يوم 12 أيلول 1983. كان الدروز قد ذبحوا مئات المسيحيين العزّل ومقاتلي الميليشيات في حرب الجبل. في بحمدون، البيرة، شرتون، وفي بلداتٍ كثيرةٍ أخرى من منطقة الجبل. نُحرت الأعناق وهوت الرؤوس كثمارٍ تتساقط من أشجار نخيل. في طبيعة الحال، انتقمت الميليشيات المسيحية. كان خلدون درزيًا. درزيًا يعيش في حيٍّ مسيحي. كم كان هدفًا سهلًا. قَدَرُهُ كان أن يكون أحد أولئك المتفرجين الذين يدفعون ثمن هويتهم. قيل لي إنّ اثنين من زبائنه هما اللذان أرداه: أنطوان الذي عرفه منذ أن كان طفلًا في الخامسة، وإيلي، ابن الأرملة، أمّ إيلي، التي لطالما حسم لها خلدون خمسين في المئة من قيمة مشترياتها.

كانت أمّ إيلي تُعرب لخلدون عن امتنانها فتدعو له: «الله يحميك!»

يومَ قُتل، رقصتُ في الشارع وأطلقت الزغاريد.

اعترفتْ ميسان بكلّ شيء. ما حدث قبل ذلك، وما حدث بعده. كيف باتت، شيئًا فشيئًا، مطوّقةً بمشاعر من القسوة. حكت لها عن جذو أمين وعمّا فعله بميسان الصغيرة. عن فاطمة وما فعلَته ميسان الصغيرة بها. المعمل وكيف أزهق روحها. لوقا وكيف استنزف

طموحاتها. اعترافات سيرون قبل انتحارها. عتاب. أضنة. القدس. شيرين. آقي. ثم حكتْ لها عن الراهبة كونستانس. ونجاة. وفقدان الحبّ بعد العثور عليه.

الإنهاك. الفقر. المسؤوليات. الهزائم...

كلُّ ذلك العبء الذي تحمّلته وحدها.

– لا تهدري حياتكِ كما أنا فعلتُ.

قطع عليها ملحقٌ إخباريٌ متلفز اعترافاتها. وظهرت صورةُ صحفيٍ لبنانيٍ معروف على الشاشة، فامتدتْ يد كلٍّ من ميسان وشيرين إلى جهاز التحكّم من بعد.

«أودى انفجارُ سيارةٍ مفخّخةٍ بحياة الصحافي اللبناني الجريء والسياسي المعارض للنظام السوري جبران تويني، بعد يومٍ على عودته من باريس. وفي التفاصيل، عند التاسعة من هذا الصباح تقريبًا، انفجرتْ سيارة رينو مفخّخة بما يصل إلى 40 كلغ من مادّة الديناميت، بواسطة جهاز تحكّم من بعد، في منطقة المكلّس، أثناء عبور سيارة الرانج روفر المصفحة وعلى متنها تويني في طريقه إلى مكتبه، في صحيفة «النهار» وسط مدينة بيروت. وكان برفقة تويني، وهو نائب عن المقعد الأرثوذكسي في الأشرفية في الثامنة والأربعين من عمره، كلٌّ من أندريه مراد ونقولا الفلوطي. وقد توفّي الثلاثة في الانفجار. أمّا حصيلة الجرحى فغير معروفةٍ بعد. كان تويني سياسيًا بارزًا في صفوف المعارضة، وناشطًا في التظاهرات التي تلت اغتيال الحريري. مع الإشارة إلى أنّ هذه التظاهرات عجّلت الانسحاب السوري من لبنان».

ها خسارةٌ فادحة أخرى تُضاف إلى تاريخ هذا البلد الدامي...

راحت شيرين تبكي بحرارة. بكت على أمّها وعلى جبران تويني. بكت على نفسها أيضًا. لكنّ ميسان كانت تعرف أنّ ابنتها كانت تبكي، خصوصًا، على جدّتها سيرون.

بيروت – الثلاثاء 11 نيسان 1978
أذكر وجهك يومذاك. كنت تنظرين إليها ممدّدةً على الأرض، وكنتُ أنا أنظر إليك.
أذكر دموعي. دموعي الصامتة التي كانت تنبثق من أعماقٍ لم تكوني قادرةً على فهمها بعد، في تلك السن.
أذكر الأسود الذي ارتديته لأشهرٍ عدّة من بعد ذلك. والأسود الذي بقيت أرتديه في داخلي حتى بعد أن عدتُ إلى ارتداء الملابس الملوّنة.
الأسود الذي لا أزال أرتديه حتى اليوم في أقصى زاويةٍ من قلبي، حيث لا يمكن لأحدٍ أن يراني.
أذكر أيضًا ما كان قبل ذلك. كم أنها كانت رقيقةً ودافئةً وصبورة. كم كانت لا تشبه أيّ إنسانٍ آخر، وكيف كانت تتنقل بخفة، كما لو أن سحابةً من ضبابٍ كانت تلفها. أذكر فترات صمتها، شجنها، صوتها الواهن الآتي من بعيد. أذكر منزرها أيضًا. كان له جيبٌ أماميّ مطرّزٌ بأزهارٍ حمراء صغيرة. أزهارٌ طرّزتْها بنفسها. كم كانت ماهرةً في الخياطة. مثلك تمامًا. ومثلي أيضًا.
كنتِ المفضّلة لديها. ألأنكما كنتما تملكان لون العينين نفسه؟ لونٌ أخضر غريبٌ يستحيل أصفر عندما نقول «أحبك»؟ أم تراه شعركما الأحمر المجنون؟ كنتِ تعشقين معانقتها واستنشاق رائحة الصابون على عنقها.
لطالما كانت تفوح منها رائحة مساحيق التنظيف. كلّما زرناها، نجدها تفرك شيئًا ما أو تغسله. كلّ مرّة. كانت تعاني اضطراب الوسواس القهري. والكآبة. الكآبة من شتى الأنواع. لكنها لم تكن تعرف اسم مرضها.
لكنّ معرفة شيءٍ ما لا يُحدث فرقًا حقًا. فالوجع هو نفسه. كلّ ما في الأمر أنه يصبح مقترنًا باسمٍ ما.
أمّا الأدوية؟ فمصدرُ إلهاءٍ لا أكثر. أنا وأنت نعرف ذلك.
لا تحزني يا ابنتي. جدّتك لا تزال حيّةً في عالمٍ موازٍ. الاحتمالات ما هي إلّا حالاتُ يقينٍ بديلة. كلّها تحدث فعلًا. اسألوا الفلاسفة. اسألوا

الفيزيائيين. هي عقولنا التي غالبًا ما تكون بسيطةً إلى درجة أنها لا تعي وجود أكثر من احتمالٍ واحد. لذا، نقرر المحافظة على ذلك الاحتمال ونسمّيه واقعًا.

أجل، جدتك حيةٌ في عالم موازٍ. يمكنني رؤيتها. هناك، هي سعيدةٌ وباسمةٌ دومًا. هناك، لم تختبر أيّ أهوالٍ. هناك، لم تودع أولئك الذين أحبتهم قط. لعلها تحمل اسمًا مختلفًا هناك. لعل لون شعرها مختلفٌ، ولعلّ لها طريقةً مختلفةً في إمالة رأسها. لكنها هي هي. واحدةً ولم تتغير.

«كان يا ما كان، كانت هناك فتاةٌ...»

[1] ابنة الخادمة بالأرمنية.

[2] اصمتوا بالأرمنية.

[3] وحش بالأرمنية.

[4] سيد بالآشورية.

[5] طبق شائع في المطبخ الأرمني (وفي تركيا أيضًا). يتكون من فطائر صغيرة من العجين المحشو باللحم المنكه بالتوابل. تُسلق أو تُطبخ بالبخار.

[6] كم تمنها؟ بالأرمنية.

جميلة

(حلب، ١٩٩٧ -...)

حفيدة ميسان

ابنة شيرين

حفيدة سيرون الكبرى

«تلك التي قهرت النهاية وبداياتها.»

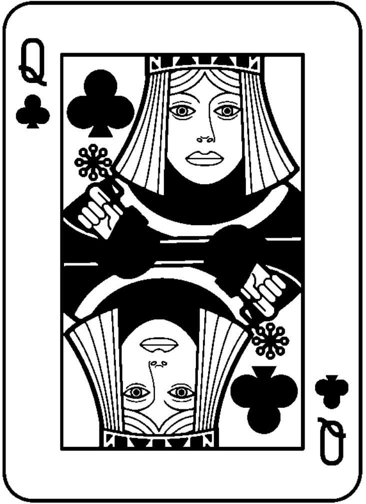

ملكة السباتي مشاكسةٌ نزقةٌ سليطة اللسان. مندفعةٌ، عنيدةٌ، وصريحة، تضع الآخر في موضعه. هي أسيرةُ كارما ماضيها، مهما حاولت فك قيودها. تحكم الذاكرةُ قدرها.

«مَن قال إن الموت يبلي الإنسان؟
جدّتكِ صارت نجمةً في ليلهِ
جدّتكِ الخيالية، جدّتكِ الوهمية، جدّتكِ المسحورة
ما إن رفعتِ الحياةُ سوطَها القاسي
حتى اختفت.»

سنية صالح
(شاعرة سورية)

– أنا، جميلة اليازجي، زوّجتك نفسي على كتاب الله وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلّم. أتعهّد، بكلّ صدقٍ وأمانةٍ، أن أكون لك زوجةً مطيعةً ومخلصة.

التقيا يوم السادس من كانون الثاني 2014 في مخيمٍ للاجئين السوريين في غازي عنتاب بتركيا. كانت قد بلغت ذلك المكان مع والدَيها، شيرين وفؤاد، هربًا من الحرب في حلب. لن تنسى جميلة ذلك التاريخ ما عاشت. كان عيد ميلادها السابع عشر، أكثر أعيادها كآبةً ورسوخًا في ذاكرتها.

أوّل ما لفت انتباهها لدى العامل الاجتماعي التركي، ذاك الذي كان يساعد مجموعتها على الاستقرار في المخيم، يداه وصوته. يدان منهكتان، لكن قويتان. يدان عانتا، على ما بدا لها، أشدّ المعاناة، لكنهما لا تزالان قادرتين على إزاحة جبال. صوتٌ عميقٌ طاغٍ أشعرها بأنها ضعيفةٌ لا حول لها ولا قوّة.

سرعان ما أخذت هاتان اليدان وهذا الصوت، تستحوذ على تفكيرها - شأن الرجل نفسه. فقررتْ أنه لا بدّ لها من محادثته. لا بدّ لها من أن تصافح إحدى هاتين اليدين، لا بدّ لكفّها الظمأى من أن تلمس تلك البشرة المنهكة، البشرة المشبعة بحكايا تنتظر أن تُحكى. لا بدّ لها من أن تشعر بصوته يلفّها بكلّ قوّته وتوهّجه، كأجنحةٍ من لحمٍ ودمٍ ستحلّق بها أينما كان. أينما كان، بكلّ ما في الكلمة من معنى.

اليوم، بعد مرور أربعةِ أشهرٍ وثلاثةِ أيامٍ فقط، ها هما يتزوّجان. ستصبح تانك اليدان وذلك الصوت ملكًا لها، لها وحدها، من الآن فصاعدًا. تبادلا عهود الزواج، على رغم عدم الحاجة إلى ذلك، لكنه

أرادها. وقّعا العقد؛ فأصبحت زوجته رسميًا، وحلاله. في غضون ذلك الوقت، كان الشيخ يتلو الفاتحة. «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله ربّ العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين... أمين».

كان أول رجلٍ تقع في غرامه، وأول إنسان يُظهِر لها هذا الاهتمام البالغ على الإطلاق. كان مفرطًا في اهتمامه إلى حد الهوس. كان هذا تمامًا ما تحب. كان هذا تمامًا ما تحتاج إليه لتشعر بالاطمئنان. لم يُهمِلْ أيّ تفصيلٍ، ولو بسيطٍ، عن وقتها أو أفكارها. وهي، بدورها، وجدت فيه جاذبيةً جسديةً عارمة. لعلّ شعره الشيء الوحيد الذي لم يعجبها في مظهره. لكنها لم تأبه. فـ«لا أحد مثالي»، على حد قولها.

قبل أن تلتقي به، كانت تعتقد أنها مثليةٌ تمامًا، وأنها لا تنجذب إلّا للفتيات حصرًا. فتيات عانت بسببهنّ جميعًا، وقابلْنها بالإهمال والتجاهل. تصفهنّ قائلةً: «هنّ نسخةٌ عن أمي». لكن تبيّن لها أنها ثنائية الجنس. ذات يوم، قالت لصديقها مودي: «أفضل تعريف عابرة الجنس». كانت قد شاهدتْ مقطع فيديو على اليوتيوب، عبر هاتفها الخليوي ذلك الصباح، وسمعتْ نجمة بوب تعرّف عن نفسها بهذه الطريقة في مقابلة. بالنسبة إلى شخصٍ ينتقد حضارة القرن الحادي والعشرين، كما تفعل جميلة، كان تعلّقها غريبًا بالوسائل التكنولوجية التي أوجدها هذا القرن. على غرار الكثير من العرب من جيلها، كانت تستخلص معظم مفاهيمها ومرجعياتها الثقافية استنادًا إلى فكرة «الغرب الشزير». فشكّلتْ بذلك نتاجًا حيويًا للقنوات الفضائية التلفزيونية. كما كانت، بهذا المعنى، تجسيدًا مدنيًا لكلّ تناقضات «داعش» المشينة: آراءٌ وطُرُقٌ بالية تُنشر عبر منصاتٍ للتواصل فائقة الحداثة. فقد بدا «تنظيم الدولة الإسلامية»، في هذا الإطار، متناقضًا في أدائه: تصريحاته كانت تدحض الظروف التي أتاحت له التعبير عن أفكاره والانتشار.

كان مودي سوريًا شابًا من الرقة، التقته جميلة خلال أسبوعها الأول في المخيم. كان مثليًا بشكلٍ واضح لا لبس فيه، وقد فضّل تغيير اسمه الحقيقي، محفد، لأنه، في رأيه، لم يتماش وميوله الجنسية. حدث ذلك في المزة الأولى التي لعق فيها قضيب رجلٍ، فحين بدأ هذا الأخير بالتأوه: «آه يا محفد! نعم يا محفد! تابع يا محفد!»، شعر بحاجةٍ ملحّةٍ إلى أن يصبح مودي.

اعترف لجميلة: «أحسستُ أنه سيهتف الله أكبر ما إن يقذف في فمي! أفقدني ذلك انتصابي تمامًا!» كان مودي خفيف الظلّ وطيبًا.

فرح كثيرًا عندما أخبرته أنها مغرَمةٌ بمنسق شؤون المخيم. «لقد سبقتِني إليه أيتها العفريتة اللعوب! وتجرئين على اتهامنا بأننا نستحوذ على خيرة الرجال! إنها مجرد مزحةٍ يا قلبي! هنيئًا لكِ! ستكتشفين قريبًا روعة مضاجعة رجل!»

مازحته قائلةً: «لربما لستُ إلا رجلًا مثليًا عالقًا في جسد امرأة».

كان مودي الشخص الوحيد الذي أخبرتُه عن زفافها، ما إن تم تحديد الموعد. قال لها إنه يريد أن يكون اشبينتها، فأجابته: «ما من اشبيناتٍ في الأعراس المسلمة يا ذكي! أنت تقصد أن تكون شاهدًا». بعد ذلك بوقتٍ قصير، عُثِر عليه مقتولًا بالقرب من بوابة المخيم. كان عاريًا تمامًا. رقبتُه منحورةٌ وأعضاؤه التناسلية مشوّهةٌ بشكلٍ بالغ. أمّا على جبينه، فكُتِبت كلمتا «لوطي حقير» بالأحمر القاني. بدمه نفسه. كان الدم قد جفّ وبات قشرةً فوق جلده. هرعت جميلة إلى أحضان خطيبها وهي تجهش بالبكاء. «يقولون إنّ أحد عناصر داعش قتله!»

– لا وجود لعناصر داعش في المخيم، « sevgilim » [1] . هدّئي روعكِ. الأرجح أنّ القاتل عشيقٌ غيور أراد أن يبعد عنه الشبهات. هكذا يموت معظم هؤلاء الأشخاص.

لم يَرُق لجميلة أن يقول «هؤلاء الأشخاص»، لكنها صمتت.

«كما أنكِ على وشك أن تصبحي مسلمة. لذا يجب أن تكفي عن التعاطف مع حالات الشذوذ هذه. أدعو الله لهم بالشفاء». قال «شذوذ»، تلك الكلمة التي لطالما أبكتها قبل النوم في حلب. لكنّها كانت تحبه. وأيضًا، «لا أحد مثالي». كان الأمان العاطفي الهائل الذي شعرتْ به معه يفوق أيَّ شعورٍ آخر عظمةً. لم تعترفْ له قط بأنها عاشرتْ نساءً في حياتها. فهذا، بدوره، كان يُعَدّ «شذوذًا».

غدًا، سيذهبان إلى إسطنبول. «إنه مسقط رأس أمي. ستعشقين المدينة. كم تذكّرينني بها. كلاكما تتمتعان بذلك الجمال الفوضوي نفسه». سيقومان بأشياء كثيرة معًا، وسيسافران إلى أماكن عدّة. بعد أن تنتهي مهمّته في إسطنبول، سيُصدِر لها جوازَ سفرٍ تركيًا، وسيلتحقان بأسرتها في الولايات المتحدة الأميركية حيث يمكن أن يستقرّا لبعض الوقت. بعد ذلك، يودّ أن يعود إلى تركيا، وينشئ منظّمةً غير حكوميةٍ، خاصةً به. فهو يحب مساعدة الناس المحتاجين. هذا ما قاله. وصوتٌ كهذا لا يُعقَل أن يكذب. كان يتكلّم بشغفٍ وحماسةٍ، إلى درجةٍ أنها شعرتْ أحيانًا بأنه مستعدٌ للموت في سبيل قضيةٍ يؤمن بها. «يا لَروحه النبيلة». سينجبان أطفالًا – أربعة على الأقلّ – وستكرّس كلَّ وقتها وطاقتها لتربيتهم والاعتناء بهم. بعد ذلك ربما، عندما يكبرون جميعًا ويبدأون بارتياد المدرسة، قد تبدأ حينها بالتفكير في تحقيق حلمها.

لم يكن حلمًا يتعلّق بالموضة، كما تمنّتْ والدتها طويلًا، ولا بطبّ الأسنان كما أراد والدها. فحلم جميلة كان قيادة الطائرات. في الواقع، حلمها الأوّل كان أن تصبح رائدة فضاء، وذلك منذ أن شاهدتْ مقابلةً مع رائد الفضاء السوري الأوّل، والوحيد حتى هذه اللحظة، محمد فارس، على التلفزيون السوري قبل سنوات. كان من حلب أيضًا وقد صعد إلى الفضاء عام 1987. عرفتْ أنه حلمٌ بعيد المنال. لكن إذا نجح هو في ذلك، ففي استطاعتها النجاح أيضًا.

لكنّ ذلك كان قبل الحرب. قبل غازي عنتاب. والأهمّ من ذلك قبل ظهوره في حياتها، وقبل هذه العلاقة. اليوم، كبحث طموحها وحصرته في قيادة الطائرات.

قال لها غيز مزة: «يجب أن يترعرع أولادنا هنا، لا في أميركا». كانت تحب فيه هذا الجانب التقليدي. تقليديّ ومتدين معًا. صحيح أنه كان تقليديًا ومتدينًا زيادةً على اللزوم أحيانًا، لكنْ لا بأس في ذلك. «فلا أحد مثالي»، أليس كذلك؟ مع الوقت، ستخفّ حدّة بعض مواقفه. فوق ذلك، هي لم تكن، مزةً، مسيحيةً متدينةً. ما خيب أمل والدها، فلتكنْ إذًا مسلمةً صالحةً. على المرء أن يُرضي صيغةً واحدةً عن الله على الأقلّ. «من باب الاحتياط فقط».

سألها قبيل مراسم الزفاف: «هلّا تتحجّبين من أجلي؟»

أجابته وهي تعدّل الوشاح فوق شعرها الأسود الطويل: «أفعل أيّ شيءٍ من أجلك يا حبيبي. أيّ شيءٍ مهما كان».

غازي عنتاب – الجمعة 9 أيار 2014

لن أخبرها شيئًا عن الزواج. ولا عن إسطنبول. فقد جُنّ جنونها عندما أخبرتُها عن خطبتي الشهر الماضي. في أيّ حالٍ، لا تستحقّ أن تعرف عني أيّ شيء. فهي لم تحبني قطّ. كانت تذهب إلى بيروت وتتركنا لأسابيع. كما أنها خانت أبي. لا مرةً. ولا مرتين. بل مرارًا وتكرارًا. أخبرنا هو بذلك وهي لم تُنكر قطّ. فوق ذلك، كلّما كانت في حلب، كانت تمضي وقتها كله في العمل. هي وبوتيكها المقدس. «ضروريّ أن تكون لك مسيرةٌ مهنيةٌ يا ابنتي!»

«لا يا أمي. لا أريد لي مسيرةً مهنيةً إذا كنت سأهمل أولادي بسببها. إذا كنتُ سأجعلهم يتساءلون لمَ لا يستحقّون اهتمامي بهم. إذا كانت ستجعلني غير قادرةٍ، لا بل غير مستعدةٍ لأطهو لهم وجبةً واحدةً. إذا كنتُ سأتركهم مع مربيةٍ تهتمّ بآخر أغنيات كاظم الساهر أكثر مما تهتمّ

بهم. مربية فوجئوا بوالدهم يضاجعها في المطبخ بينما كانت أمهم في إحدى رحلاتها الكثيرة التي قامت بها بقصد العمل/الاستجمام.
أيُ نوعٍ من الأمهات هي هذه يا أمي العزيزة؟ ألم يخبرك أحدٌ أن الهدايا الثمينة والأجهزة الإلكترونية لا تعوّض عن الهجر؟ وأن إجازةً فخمةً لأسبوعين في السنة لا يمكن أن تحلَّ محل حياةٍ بأكملها؟ تبًا للتحرر والمساواة والغرب وامرأة القرن العشرين التي تفاخرين بأنّك تمثلينها! امرأة القرن العشرين العربية المتحررة عاشت حياةً محظوظةً. فقد كانت لها أمٌ تقليدية. أمٌ حممتها وأطعمتها وعلّمتها كيف تربط شريط حذائها. أمٌ سهرتْ عليها واعتنتْ بها عندما كانت مريضةً. لكن أولاد القرن الحادي والعشرين الذين أنجبتهم هذه المرأة هم أصحاب الحظ السيئ، لأنهم حظوا بأمٍ سافلةٍ وأنانية. أتراكِ أنت السافلة الوحيدة ولا يجوز التعميم؟»
كم من مرةٍ أردتُ أن أصرخ في وجهها: «أعرف ما الذي فعلته!» لكني امتنعتُ. عوضًا من ذلك، اخترتُ أن أقول «بكرهك!» متغاضيةً عن الشرح. شعرتُ بأنّ هذا الأمر سيزيد معاناتها.
كنتُ قد بلغتُ السابعة من عمري وكانت «مس هادية» تعلمنا الإنكليزية في الصف الثاني. كانت أول شخصٍ أعجبتُ به، قبل أن أفهم حتى ما معنى الإعجاب. أذكر أنّي كنتُ أكتب لها قصائد سخيفة، لم أعطها إياها قطّ. تفوّقتُ في صفّ الإنكليزيّة لإرضائها فقط. كانت قد ترعرعتْ في المملكة المتحدة، لأمٍ بريطانية وأبٍ سوري، ثم عادت إلى حلب في سنّ السابعة والعشرين لدراسة العربية. أعالت نفسها من خلال تدريس الإنكليزية في مدرستنا. كانت شقراء. شقراء كتصريح حبٍ متردد.
كان يوم خميس. الخميس في الثاني والعشرين من كانون الثاني. أذكر ذلك جيدًا لأنه كان يوم عطلة، ولأنّي كنت قد شاهدتُ برنامجًا ذلك الصباح على قناة «ديسكفري» عن تاريخ الطائرات. يومذاك اكتشفتُ بعضًا من هؤلاء الذين سيغدون أبطالي في وقتٍ لاحق: شارل ليندبرغ، وأنطوان دو سان إكزوبري، وطبعًا الرائعة إيميليا إيرهارت. غرض هذا

البرنامج تماماً بعد وثائقي عن رأس السنة الصينية التي كان يحتفل بها في ذلك اليوم بالذات. كان أبي وأمي يسمحان لي ولبولس بمشاهدة التلفزيون لساعتين يومياً، لكنّ المربية كانت تتيح لنا مشاهدته قدر ما نريد في غيابهما، لئلا نزعجها. كان بيتنا من أوائل البيوت التي ركّبت صحناً لاقطاً في حلب.

كان ذلك أول المساء. أمي عادت لتوّها من العمل ودخلت لتستحمّ. صدف أنّي كنتُ في غرفتها، أحاول انتعال كعبها العالي. كانت لها أزواج كثيرةٌ من الأحذية ذات الكعوب العالية، وكانت قد تركت هاتفها ملقىً في مكانٍ ما. صفر الهاتف، فاسترقتُ النظر. رأيت أيقونة رسالةٍ جديدةٍ متمثلةٍ بمغلّفٍ مغلقٍ على الشاشة. نظرتُ إلى اسم المرسل. أشير إليه بحرف «هاء» غامض.

شيءٌ ما حثّني على فتح الهاتف. كان من ماركة نوكيا، تماماً كالذي تلقته صديقتي تيتي هديةَ عيد ميلادها الحادي عشر. وقد علّمتني كيف أفتحه وألعب عليه لعبة الحيّة.

وهكذا فعلتُ. كانت الرسالة باللغة الإنكليزية.

«اشتقتُ إليك. اشتقتُ إلى رحلتنا الرومانسية القصيرة إلى بيروت. متى أراكِ مجدّداً؟ أجيبيني أرجوك. صمتكِ يجرحني. مع حبي، دائماً». لم أفهم معنى كلِّ الكلمات، لكنّي عرفتُ ما تعنيه كلمة «حب». سجلتُ الرقم الظاهر تحت الرسالة على ورقة، ثم حذفتُ الرسالة وأعدتُ الهاتف إلى حيث كان، عند المنضدة بجانب السرير. كانت نبضات قلبي تتسارع بشدّةٍ حتى خلتُ أنّه سينفجر.

- هل يمكنني زيارة تيتي؟

تيتي- أي تانيا- كانت تكبرني بأربع سنوات. كانت بنت الجيران، وكنت أمضي وقتاً طويلاً في منزلها. كان والداها فاحشي الثراء، يمطرانها بكلِّ أنواع الهدايا. كانت تملك أكبر مجموعةٍ من دمى الباربي رأيتُها في حياتي، وتسمح لي باللعب بها.

هتفت أمي من الحمام: «حسن! احرصي على أن توصدي الباب لدى خروجك».
لم تشتبه بأي شيء. لا في ذلك اليوم ولا بعده.
– تيتي، هل يمكنني أن أستعمل هاتفك لبرهة؟
– طبعًا!
طلبتُ الرقم.
– ألو؟... ألو، من على الخط؟
كان مألوفًا لي، صوت هذه المرأة ولكنتها. كانا صوت مس هادية، ولكنه مس هادية.

شيرين، مجدَدًا...
– هل جُننتِ؟
لم تصدّق شيرين ما سمعته. لقد بلغت ابنتها في استهتارها مستويات جديدة. فمنذ أن نجحوا أخيرًا في الفرار من حصار حلب، في شهر كانون الثاني الماضي، وبلغوا برّ الأمان في مخيم اللاجئين في غازي عنتاب، باتت حماقاتها لا تُطاق. لكن فعلتها هذه تتجاوز الحماقة بأشواط.

أين فؤاد الآن، عند الحاجة إليه؟ ما إن استقرّوا في المخيم، حتى اضطرّ إلى الرحيل من جديد. عاد أولًا إلى حلب لبيع منزلهم، وهو عقاره الوحيد المتبقّي ولم يدمّره القصف تمامًا. ثمّ سافر إلى بيروت كي يؤمّن لهم تأشيراتِ دخولٍ إلى الولايات المتحدة، ومعه جوازا سفر زوجته وابنته. شعرتْ شيرين بتوتّرٍ شديدٍ لبقائها من دون جواز سفر، كأنّها علقتْ في فخّ. لكن لم يكن أمامها حلٌّ آخر. كان قد اتّخذ قرارًا بذهابهم إلى دورهام، في كارولاينا الشمالية، حيث يعيش بولس. كان ابنهما قد أنهى المرحلة الأولى من دراسته الجامعية، وأصبح اليوم طالب سنةٍ أولى في كلّية الحقوق التابعة لجامعة ديوك. تمامًا كما أراد. وكان اثنان من الروّاد الذين احتذى بهم، من متخرّجي جامعة ديوك

نفسها: الصحافي شارلي روز ووليم ستايرون، مؤلف «خيار صوفي». ووصل به شغفه حذ نيل منحةٍ دراسيةٍ كاملة، جاءت في وقتها تمامًا، خصوصًا أنّ أحوال والده المالية كانت قد ساءت كثيرًا بعد اندلاع الحرب الأهلية في سوريا. استثمر كلّ أمواله في العقارات، وإذا بالأملاك التي اشتراها على مرّ السنوات، بالإضافة إلى عيادته، تُدمّر خلال عمليات القصف المتتالية لحلب.

وَعَدَهُما فؤاد: «سنقضي بضعة أسابيع في غازي عنتاب فقط، ثمّ نتوجه إلى دورهام». كان من المقرّر أن يدخلوا إلى الولايات المتحدة بتأشيرة زائر، ثمّ يباشرون معاملات الهجرة انطلاقًا من هناك: تلك كانت الخطّة. فقد وعدت إدارة أوباما باستقبال المزيد من اللاجئين السوريين، وقرأ بولس في الصحف أنّ منظّمة دورهام العالمية للإغاثة تبذل جهودًا فعّالةً في سبيل دمج اللاجئين. قال لوالده: «وعدوني بتأمين وظيفةٍ لك في عيادةٍ للأسنان، يملكها لبنانيٌ أميركي، في مدينةٍ مجاورةٍ تُدعى هيكوري. إنّها بلدةٌ صغيرةٌ وجميلة، مناخها عليل، لا تبعد عن ديوك إلّا مسافة ساعتَين بالسيارة. ستساعدك المنظّمة على الاستقرار هناك بكلّ تأكيد. كما يمكن لجميلة أن تتخصص في علم الأحياء في لونوار راين [2] إذا كانت تنوي التخصص في طب الأسنان لاحقًا».

في طبيعة الحال، لن يكون من السهل الحصول على تأشيرة ب 2 [3]. لكنّ سياسيًا لبنانيًا صاحب نفوذ، أحد الزعماء من أصدقاء والده القديمي العهد، وعد بمساعدته. لكن ها ثلاثة أشهر مضت على غياب فؤاد. «إنّ الشخص الذي تطلبه غير متوفّرٍ حاليًا».

«لم يكن متوفّرًا يومًا في أيّ حال». كانت شيرين تهزّ كتفيها لامبالاةً، كلّما حاولت الاتصال به على هاتفه وسمعت الرسالة الصوتية عينها. أيُعقَل أن يكون أصابه مكروه؟ لا يمكنها التعامل مع هذا الاحتمال حاليًا.

بقيت تتساءل منذ اليوم الأوّل لوصولهم: «كيف انتهى بنا الأمر في هذا المكان؟» هالها أنّهم لم يتمكّنوا من تكبّد ثمن إيجارِ غرفةٍ حقيرةٍ لدى وصولهم إلى المدينة. فالإيجارات في غازي عنتاب باتت غاليةً جدًا بسبب تدفّق اللاجئين، وبالكاد كان فؤاد يملك ما يكفي من المال. وهي كذلك. اضطرّا إذًا إلى السكن في ضواحي المدينة والإقامة في أحد المخيمات الخاضعة لحراسة الجيش التركي.

لو نظر الرائي إلى مخيم اللاجئين السوريين من علٍ، لاكتشف بحرًا من الخيم البيضاء التي توحي بالتفاؤل والأمان. فكلّ شيءٍ يبدو منظّمًا ومرتّبًا. لكأنّه ملاذٌ يُقبِل إليه الناس أفواجًا أفواجًا لينشدوا الخلاص والرعاية والأمان. لن نصفه بأرض الأحلام بالضبط، لكنه قريبٌ إلى ذلك بما يكفي في مثل هذه الظروف الصعبة. فحريٌّ بالمرء أن يقيّم بيئةً معينةً من منظورٍ نسبي، كأن يقول مثلًا غازي عنتاب مقابل حلب، لا غازي عنتاب مقابل ستوكهولم...

لكنّ جوف مخيمات اللاجئين هو الذي يُفشي حقيقتها. حسبك أن تقلب هذه الخيم البيضاء، كمثل بطانةِ جيبٍ من الداخل إلى الخارج، وتنفضها بشدة، ليسقط منها السواد. سترى الوحل في المسارات غير المعبدة وفي الشرايين. سترى الحبال التي يُعلّق عليها الغسيل المترهّل كأنّه مخلّفات العمر. آثار الدموع على المخدات المستعملة. المدارس المرتجلة حيث على يتيمٍ بعينٍ واحدةٍ أن يتعلّم كيف يعدّ من واحد إلى عشرة. مناضد الطهي التي أنهكها الزمن حيث تتناوب نساءٌ على غلي شيءٍ ما، يصدّقن أنّ له طعم القهوة أو الأمل. البرد. برد الشتاء الذي لا يُحتمَل. ثم الحرّ. حرّ الصيف الذي لا يُحتمَل. حسبك أن تقلب وجوه اللاجئين من الداخل إلى الخارج أيضًا. تلك الوجوه بشكلٍ خاص. وسترى العار. واليأس. والاشمئزاز. لن يفوتك فيها ما تقوله: «ليتني كنتُ متّ» أو «ليتني لم أولَد على الإطلاق». مكانٌ منسيّ حيث وسيلة النجاة الوحيدة هي التفكير في أنّ «الوضع كان يمكن أن

يكون أسوأ»، ومقارنةُ الناس بين حالهم وحال مَن كان أسوأ حظًا منهم. فحتى إذا كنتَ قد فقدتَ طفلَين وذراعًا، فستجد من دون شك شخصًا فقد جميع أفراد أسرته ورجلَيه. يكفي أن تمعن النظر. أن تعرف كيف تتصيَد الكوارث. فمآسي الآخرين ستكون عزاءك الوحيد.

فراشان قذران، وملاءتان من الصوف الخشن، وبعض الأكواب البلاستيكية للحصول على مياه الشرب من بزادات المياه المنتشرة في الخارج: كان هذا كلّ ما تبقى لشيرين وابنتها. في خضمّ كلّ هذه الأجواء من الخراب والوحشة، اختارت ابنة السابعة عشرة العنيدة والمشاكِسة أن تزفّ لأمها نبأ خطبتها.

– مخطوبة؟! أهذه كذبةُ أولِ نيسان؟ كيف ومتى حدث ذلك؟

– هذا لا يعنيكِ!

– سيُصاب والدكِ بنوبةٍ قلبية!

– كلّا لن يفعل. سيتفهم.

– يتفهم ماذا؟ أنّ ابنته التي لا تزال قاصرًا قررتْ أن تُخطَب في مخيَم بائس للاجئين؟

– وأيُ ضيرٍ في ذلك؟ لن نعيش في هذا المكان إلى الأبد.

– صحيح. لن نعيش هنا! فنحن ذاهبون إلى الولايات المتحدة، هل نسيتِ؟ ماذا ستفعلين حينذاك؟ هل ستبقَين هنا معه؟

– بالطبع لا. فسنتزوج وسيرافقنا. سبق ودرسنا الوضع بأكمله.

صُعِقتْ شيرين. أيُعقَل أن تكون ابنتها بهذه السذاجة؟ كانت تفكّر وتتصرَف كفتاةٍ مدلَلة، تعتبر أنّ بإمكانها الحصول على كلّ ما تريده.

– مَن هو هذا الرجل؟ كيف التقيتُما؟ ما اسمه؟

– مجدّدًا، هذا لا يعنيكِ!

– ألا أستطيع حتى أن أعرف اسم خطيبكِ؟

– ولِمَ تريدين أن تعرفي؟ كي تسرقيه مني هو أيضًا؟

تسرق ماذا؟ مَن؟ كيف؟ شعرتْ شيرين بالضياع التامّ. في الآونة الأخيرة، كانت ترى ابنتها في صحبةِ عاملٍ اجتماعي، ولم يرقْ لها الأمر. أولًا، لأنّه تركي. ثانيا، لأنه بدا أكبر منها سنًّا بكثير. في الثلاثينات، إن لم يكن أكبر. أيعقل أن يكون خطيبَها الغامض؟ لا بدّ من ذلك. لا يمكن أن يكون خطيبها هو الفتى الوحيد الآخر الذي كانت تمضي معه وقتها، صديقها مودي الذي يبدو بوضوحٍ أنه مثلي، بوضوحٍ لا لبس فيه. حذّرتْها مرازا: «قولي له أن ينتبه، قد يتعرّض للأذى. فهذا المكان يعجّ برجال الكهف».

فكّرتْ شيرين في نفسها: «أرجو ألّا يكون ذلك صحيحًا! فلتختز مَن تريد إلّا أن تختار رجلًا تركيًا!» في الواقع، كانت شيرين تفضّل الموت في حلب على المجيء إلى تركيا، لولا توسّلات بولس، وطمأنة فؤاد لها إلى أنهم سيغادرون سريعًا إلى الولايات المتحدة. كما أن فؤاد لم يوافق قطّ على النزوح نحو لبنان، فاضطرّت إلى الرضوخ للأمر الواقع. وابنتها تعرف تمامًا إلى أيّ مدىً كانت تشمئزّ من هذا البلد وشعبه. «لربما هذا هو السبب بالضبط الذي دفعها إلى الارتباط برجلٍ من هنا. نكايةً بي».

قالت لها: «كي تسرقيه مني هو أيضًا؟». لِمَ «هو أيضًا؟» ترى ما الذي قَصَدَتْه بذلك؟

– ما الذي تتحدّثين عنه؟ ما هذا الكلام الفارغ يا جميلة؟

كانت قد رضختْ منذ وقتٍ طويل لرفض ابنتها بأن تُسمّى سيرون. باتت شيرين تسمّيها كذلك في عقلها فقط.

– أكرهكِ!

ألقت جميلة عليها بالقنبلة الاعتيادية نفسها، ثم خرجتْ من الخيمة غاضبةً، مخلِّفةً كلّ الأسئلة معلّقةً وراءها، كصلواتِ أمٍّ عقيمة. لم تستطعْ شيرين أن تمسك نفسها عن البكاء. باتت تبكي كثيرًا في الآونة الأخيرة. فالمجيء إلى غازي عنتاب، أو عنتاب، كما كانوا

يسمّونها أيام الحكم العثماني، كان، في حد ذاته، تجربةً مشحونةً بالمشاعر والانفعالات بالنسبة إليها. هنا وُلدتْ جدتها الحبيبة. هنا فقدتْ سيرون أسرتها وطفولتها وأحلامها وقدرتها على الابتسام. كان يمكن لهذا المكان أن يكون وطن شيرين، لكن ها هي اليوم تدخله كمتسوّلة، فقد اضطرّتْ إلى الهرب من الموت في الاتّجاه المعاكس. من حلب إلى عنتاب. يا لها من حلقةِ نارٍ مثاليّةٍ بمحيطٍ من مئةِ عام.

قبّلتْ شيرين القلادة الفولاذيّة حول عنقها. «ساعديني يا تاتيكي». لم يكن بولس أو جميلة قد ورثا شعرها أو شعر جدّتها الأصهب. كفكفتْ دموعها وخرجتْ من الخيمة كي تبحث عن ابنتها. كان عليها أن تتكلّم معها. أن تحاول إفهامها فداحة الخطأ الذي ترتكبه. «لا تنتقمي منّي عبر الانتقام من نفسكِ». أرادتْ أيضًا أن تعطيها القلادة كعربون هدنةٍ بينهما. صحيحٌ أنّ جميلة قلّما اهتمّتْ بهذا الجانب من أسرة أمّها وتاريخها، لكن لا يُعقَل أن يكون قلبها متحجّرًا إلى درجةِ ردّ مثلِ هذه الهديّة النفيسة بكلّ معانيها. كانت تعرف إلى أيّ مدىً هذه القلادة عزيزةٌ على قلب شيرين. فهي لم تخلعها عن عنقها قطّ، ولا حتّى عندما كانت تصحب طفلَيها إلى السباحة عند شاطئ رأس البسيط، عندما كانا صغيرَين وكانت لا تزال تأخذهما في رحلات. رأس البسيط هو أحد المواقع الأجمل المطلّة على البحر المتوسط: خليجٌ واسعٌ من المياه النظيفة والرمال النظيفة، تحيط به الجبال والتلال الخضراء. كانت تمضي هناك أسبوعَين كلّ صيفٍ برفقة ولدَيها في شاليه خاص كي تعوّض لهما عن غيابها المتكرّر في بقيّة أشهر السنة.

شعرتْ شيرين بالضعف. كانت ركبتاها ترتجفان. تذكّرتْ أنّها لم تأكل شيئًا منذ يوم أمس. صادفته بعد خطواتٍ قليلة، ذلك الحبيب التركي المحتمَل. كان يمسك بمجموعةٍ من القسائم الغذائية بيده اليسرى. عندما رآها، وضع يده اليمنى على صدره فورًا، وقال:

– السلام عليكم! كيف حالكِ مدام يازجي؟ أنا المنسق الرئيس في المخيم. أرجو أن تُخبريني إنْ كان في استطاعتي أن أقوم بأيّ شيءٍ لأجعل إقامتكم أكثر راحةً.

كان يتكلَّم بلغةٍ عربيةٍ مقبولةٍ نسبيًا، بلكنةٍ تكاد تكون معدومة. لكنه تكلَّم بالفصحى، لا باللهجة السورية أو اللبنانية. بدا لطيفًا، لكنّ شيئًا ما في عينيه أزعج شيرين. بدت لها عيناه باردتَين. باردتَين وفارغتَين. ذكَّرتاها بعينَي خالتها نجاة. عينا زومبي. زد على ذلك أنه لم يكن يصافح النساء، ما كان مثيرًا للقلق فعلًا، كدلالةٍ محتمَلة على التطرّف الإسلامي.

– هذا لطفٌ منك.

– إنّه واجبي، مدام يازجي.

«شيرين... شيرين فقط». لم تكن تتحمل أن تُدعى مدام يازجي. فهذا الاسم يرمز إلى كلّ ما لا يمثلها.

ابتسم. «إنّه واجبي، شيرين».

– ماذا عنك؟

– ماذا عنّي؟

أجفل لبرهةٍ، ثمّ فهم ماذا تقصد.

– آه! عفوكِ! بشير. اسمي بشير...

فكّرتْ في أنه نذيرُ شؤمٍ آخر. «مجرمٌ كلُّ مَن يحمل اسم بشير».

– بشير كيزلار، في خدمتكِ.

وتراكمت المشاعر دفعةً واحدةً. وجعُ أربعةِ أجيالٍ محصورٌ في اسم. انصعاق. قشعريرة. غثيان. «أرجو أن تكون مجرّد مصادفة». لاحظتْ أنّها باتت تتضرّع كثيرًا في الآونة الأخيرة. لم تعرف إلى مَن كانت تتضرّع بالضبط، لكنها مع ذلك بقيتْ تفعل.

«شكرًا». لفظت تلك الكلمة بلهجةٍ جافّة، بالكاد تُسمَع.

همّ بالالتفات والمضي قدمًا، وقد شعر بتبذلٍ في طريقة تعاملها معه. فاستجمعت شيرين كلَّ شجاعتها، وقالت له:

« مهلك يا بشير أفندي... هل قلت كيزلار؟ قرأتُ مرّةً عن رجلٍ يُدعى بشير كيزلار آغا. لكني لا أذكر ماذا قرأتُ أو أين... في كتابٍ للتاريخ ربما؟

– آه، لا بد من أنكِ تقصدين جدّي الأكبر!

للأسف، لم تكن مصادفة. أيُعقل أن يكون القدَر أكثر سخريةً؟

– كان بطلَ حربٍ أيّامَ الأمبراطورية العثمانية. سمّوني على اسم جدّي الذي سُمّي بدوره على اسمه.

اشتعلتْ شيرين غضبًا، فلم تستطعْ إلّا أن تردّ عليه بحدّةٍ: «بطل حرب؟ أذكر ممّا قرأتُهُ أنّه كان مجرمًا. يصدف أن أصولي أرمنية!»

أجفل مجددًا. لكأنه كان مترددًا ما بين الشعور بالإهانة أو الندم. بين إظهار الغضب أو التعاطف. أخيرًا، اختار الاعتذار. لكنّ شيرين شعرتْ بأنّ اعتذاره هذا جاء نتيجة حساباتٍ داخليةٍ أكثر منه إحساسًا صادقًا.

– أنا آسفٌ جدًا. أنتِ محقّة. هناك دومًا جانبان لكلّ قصّة.

– ألستَ من أضنة؟

– بلى، هناك ترعرعتُ. لكنّ والدي انتقل إلى أدیامان قبل إحدى عشرة سنةً بسبب العمل، ولم نغادرها قط.

– وماذا يعمل والدك؟ أهو بطلُ حربٍ أيضًا؟

كان من الواضح أنها تسخر منه، لكنها لم تنجح في استفزازه. ابتسم. أمِن طيبة قلبه أم من مكره؟ «أم تراني مصابةً بجنون الارتياب؟»

– كلانا يعمل لبوروسان أوتو. وهي جزءٌ من شركةٍ عائليةٍ تابعةٍ لأسرة أمّي. كان أبي مدير الفرع في أضنة - ميرسين. ثم أرسل إلى أدیامان عام 2003 لتأسيس وكالة سيارات البي. إم. دبليو، في منطقة

جنوب شرق تركيا. في تلك الآونة، كنت قد تخرجت لتوي في إدارة الأعمال، فشاركته العمل. لكني قررتُ أخذ إجازةٍ في العام 2014 للقيام بأعمالٍ إنسانية، ولإتقان العربية التي كنت قد تعلّمتُها حديثًا. بوروسان هي إحدى الشركات القليلة في تركيا التي تمنح الموظفين، ممن مضى على عملهم فيها أكثر من عشر سنين، حقّ الاستراحة من العمل لسنة واحدة...

ابتسم الأفندي مرّةً أخرى قبل أن يضيف: «في أيّ حالٍ، لا أريد العمل في تجارة السيّارات إلى الأبد. أودّ أن أتبع نداء دعوتي ذات يوم».

كان يعطيها تفاصيل أكثر ممّا طلبتْ. «لماذا؟ هل لأن ليس لديه ما يُخفيه أم العكس تمامًا؟ فالكاذبون يميلون إلى الثرثرة أيضًا». كانت أفكار شيرين تتزاحم في رأسها. «أسرتُه ثرية. لا شكّ في أنّي مخطئة إذا عندما ظننتُ أنه متطرّف... لكن، ألم يكن أسامة بن لادن فاحش الثراء بدوره؟ انظروا ما فعل...»

أرغمتْ نفسها على الكفّ عن التحليل. «حسنٌ، كفى تمهيدات. فلنمسك بالثور من قرنيه، ولننتهِ من هذا الأمر».

– إذًا أنتَ صديق ابنتي، وفق ما سمعتُ؟

مرّةً أخرى، لم يبدُ عليه الارتباك على الإطلاق. لكأنّه كان مستعدًّا للدخول إلى حلبة مصارعة الثيران.

– في الواقع، أردتُ أن أكلّمكِ حول هذا الموضوع. كنتُ أريد أن أزوركِ بشكلٍ لائق، لكنّ جميلة رفضتْ ذلك. طلبتْ منّي الانتظار ريثما يعود السيّد بازجي من حلب.

– تكلّمني بشأن ماذا؟

باتت لهجتها عدائيةً بشكلٍ واضح. لم يعد من داعٍ لأداء دور المهذّبين. كان عليها أن تُبعده عن ابنتها، وبسرعة. أسبابها لذلك كثيرة جدًّا. لكن بشير، على ما يبدو، لم يرتعْ من عدائيتها المتزايدة.

– أنا مُغرَمٌ بابنتكِ وأريد أن أتزوّجها.

كانت لهجته تنمّ عن الاحترام، إنّما مع حزم وثبات. لهجة شخص يقول لآخر: «هذا هو واقع الحال، وليس أمامك أيّ خيارٍ آخر إلا الإذعان». لكنّ شخصية شيرين كانت من القوة ما يجعلها لا تخضع لأيّ تهديدٍ مبطّن. فردّتْ بنبرةٍ هجوميّة:

– تتزوّجها؟ أنتَ تدرك طبعًا أنها صغيرةٌ جدًا على الزواج، من دون أن ننسى واقع أنّك أكبر منها سنًّا بكثير.

– الحبّ لا يعرف توقيتًا مثاليًا يا شيرين.

اجتاحتها مشاعرُ من الانصعاق والقشعريرة من جديد. لماذا قال هذه الجملة بالتحديد؟

في تلك اللحظة، انتبه بشير أنه لا يزال يعتمر قبعته الصوفية. بادر إلى القول بنبرةٍ ملؤها الأدب، زادتها كياسة لغتهُ العربيةُ الفصحى:

– الطقس باردٌ جدًا إلى درجةِ أني نسيتُ خلع قبعتي! أرجوكِ اعذري وقاحتي. وسرعان ما خلعها عنه. كان آخر ما رأته شيرين قبل أن تفقد وعيها هو شَعره.

شعرٌ أحمرُ قانٍ، عميقٌ، متقدٌ، كلونِ شعرها تمامًا.

عنتاب – الخميس 1 نيسان 2014

«الحقيقة أغرب من الخيال». كم كان كلامك صحيحًا، سيد توابن. حاولتُ أن أعيد جميلة إلى صوابها هذا المساء، لكنها هددتْ بالانتحار إذا وقفتُ في طريقها. وها أنا الآن أجد نفسي أمام أصعب الأسئلة إطلاقًا: جدّتي أم ابنتي؟ إلى أيّ سيرون أدين أكثر؟ الانتقام أم الغفران؟ أيّ من الخاتمتين أقرب إلى العدالة؟

لا هذه ولا تلك. فشعلة الكراهية التي تنطفئ في بركة الانتقام ما هي إلا عملٌ جبان. والكراهية التي تدير خدها الآخر ما هي إلا ضربٌ من خداع النفس.

ماذا كنت لتفعلي أنت يا تاتيكي؟ هل تستحق أسرته عفوًا بعد مئة عام؟ لو كان لي أن أغرز أسناني في عنقه الآن، أكنت لأتذوق دماء أفك في شرايينه، أم دماء الرجل الذي اضطهدها؟

هذا الرجل قريبي. هذا الرجل قريبي. يجب أن أستمر في ترداد ذلك كي أصدقه. في بعض الأحيان، أشعر بأن قلوبنا وعقولنا تسيء فهم بعضها عمدًا، وبأنها تتآمر ضد سلامتنا. ذات مرة، قالت لي عاملة جنس مسنة: «يجب أن يتبع المرء غريزته دومًا. لا مشاعره ولا عقله. فكلاهما يؤدي إلى الهلاك».

لا تشعر. لا تفكر. يكفي أن تراقص ما تجهله.

فما تجهله، يا صديقي الإنسان، هو حليفك الحقيقي الوحيد.

إنه سترة نجاتك.

عن وكالة رويترز:

اكتشاف هوية انتحارية إسطنبول

8 كانون الثاني 2015/ 6:28 مساء

إسطنبول – أفاد المسؤولون أنه تم تحديد هوية الانتحارية التي فجرت نفسها في مدينة إسطنبول التركية يوم 6 كانون الثاني، في حادثة أدت إلى مقتل ضابط شرطة وجرح آخر.

كانت جميلة اليازجي، وفق ما أظهرته سجلات اللاجئين، مواطنة سورية من حلب. استهدفت مخفرًا للشرطة في منطقة سلطان أحمد المكتظة بالسياح، بالقرب من الجامع الأزرق ومتحف آيا صوفيا. في التفاصيل أن الانتحارية دخلت إلى مخفر الشرطة منقبة لتبلغ عن فقدانها محفظتها قبل أن تفجر القنبلة. وأفاد الطبيب الشرعي أنها كانت حاملًا في شهرها الخامس. في هذا الإطار، صرح رئيس الوزراء التركي أحمد داود أوغلو للصحافيين أنه كان في حوزة الانتحارية جهازا تفجير آخران، نجحت عناصر الشرطة التي وصلت إلى مسرح الجريمة في تفكيكهما بأمان.

وكانت اليازجي، 18 عاما، مسيحية من الروم الأرثوذكس. اعتنقت الإسلام، وتزوجت مواطنا تركيًا يُدعى بشير كيزلار، لقبه أبو سياف الأضناوي، في أيار 2014. وتبين أن كيزلار كان عضوًا متخفيًا منتميا إلى جماعة دوكوماجيلار الإرهابية، الموالية لداعش. عمل لفترة وجيزة كمنسق لشؤون أحد مخيمات اللاجئين في غازي عنتاب، حيث التقى زوجته، وذلك بحسب المعلومات التي حصلت عليها وكالة رويترز من حاكم إسطنبول واصب شاهين. ثم ما لبث أبو سياف الأضناوي أن انتقل إلى سوريا للقتال في صفوف داعش، إلى أن قُتِل في كوباني في شهر تشرين الأول الفائت في سن الثانية والثلاثين. أما اليازجي التي كانت حاملًا في ذلك الوقت، فقد بيعت كسبيةٍ بعد وقتٍ قصيرٍ على موته، قبل أن تهرب وتدخل إلى تركيا من جديد بطريقةٍ غير نظامية.

تشكلت جماعة دوكوماجيلار، وفقًا لبعض المزاعم، على يد نحوٍ من ستين أو سبعين مواطنا تركيًا من مقاطعة أديامان، شمال غازي عنتاب، عبروا الحدود التركية-السورية للالتحاق بصفوف داعش، والخضوع للتدريب في مخيماته.

تمّ تحديد مكان والدة الانتحارية وإبلاغها بالخبر. فوصلت من بيروت هذا المساء، وتعرّفت إلى ما تبقى من جثة ابنتها، وخصوصًا من خلال قلادةٍ فولاذيةٍ قديمةٍ حول عنقها. لم تُدلِ الوالدة بأيّ تصريحٍ حتى تاريخه.

إسطنبول – الثلاثاء 8 كانون الثاني 2015

أنا شيرين الأرمنية، حفيدة سيرون، عشيقة جبل أرارات، أختار ما أشاء من إرثي المألوم لتكتمل جيناتي الفاغرة أفواهها على العدم.

أختار أن أقهقه أمام الرعونة التي تستولي على الأقدار، وأن أتمزد على الإرث، محتفظةً لشخصي بأن يكون مختبر الأجيال والأعمار والمآسي الشخصية والجماعية. بدءًا بالتكوين، وليس انتهاءً بمجازر أهلي من

الأرمن. وصولًا إلى ذاتي وحياتي، وإلى مواطني المباشرين في مقتلة لبنان الحديثة التي لا أعتقد أنها ستعثر على خاتمة.

أنا شيرين الأرمنية، أحمل في عنقي القلادة الأبدية، مثلما أحمل أعباء الرحم والتيه والصحراء. لن أكفّ عن المطالبة بالانتقام الذي يكون بتعويض الذل الكوني غير القابل للتعويض.

أنا شيرين الأرمنية، وكيلة الإبادة الجماعية، كما وكيلة الانتقام هذا. أكتبه بجروح صافية، وبرمالٍ تعصى على الذبول. تهب عليّ من الأناضول ونواحي أرمينيا وسوريا وفلسطين ولبنان، من أجل الحقائق المسفوحة، من أجل الموتى، من أجل الأحياء، ومن أجل الشهود. لكي يظلوا ينظرون إلى العالم بعيني هابيل. ويلاحقون قابيل هذا العالم في كوابيسه وأضغاثه وأحلامه ويقظاته التي ترنم احتفاءً بالفظاعة اللاحدود لها.

كان لا بد من أن أكتشف، في مكانٍ ما، مجهولٍ وملتبس ومعقد ومتشابك، من روحي، أني أنا جدّتي، بدلالات حياتها التراجيدية وبمحمولات موتها التراجيدي. أخذت منها صفوة الجسد الذي يرزح ويشهد، وصفوة الجسد ذاته الذي ينتقم لنفسه ويثأر حين، بقدرةِ قادرٍ مجهول، يصير جحيمًا قاتلة، مدمّرة، ماحقة. من شأنها أن تحوّل كلّ ظلم، وطنيٍ، أو سياسيٍ، أو قوميٍ، أو إثنيٍ، أو إنسانيٍ، إلى المحاكمة، لينال الحكم الأقصى. كما من شأنها أن تحوّل كلّ تيه وتشريد وموت إلى فعل إدانةٍ للضمير العالمي، وإحقاقٍ للحق والحقيقة.

أنا شيرين، حفيدة سيرون صرافيان، لن أكفّ عن كوني سيرون صرافيان إلى أن أستعيد سيرون صرافيان، لتعيش عمرها، جسدها، روحها، وحياتها بكرامة؛ وإلى أن أستعيد عائلتها، زوجها وأولادها وأقرباءها ومعارفها، من أجل أن تنعم بما يفترض أن تنعم به كلّ عائلةٍ من السعادة والأمان تحت كلّ سماء.

أنا شيرين، حفيدة سيرون صرافيان، لن أكفّ عن كوني سيرون صرافيان، من أجل أن تستعيد جدتي بلادها أرمينيا كما حلمت بها، وكما

أرادتها، نيابةً عن كلّ الأفراد والجماعات الذين تعرّضوا للاقتلاع والطرد والتيه والتشريد والقتل والاغتصاب والذل والإهانة.

أنا شيرين الأرمنية، رأيتني في حلمي أمًا ترقص حول جثث أطفالها. رأيتُ جنودًا يضربونها بأسواطهم، ويركلونها في كلّ مكان، ويطردونها من بيتها. لكنها أبت أن ترحل. لم ترضَ أن تترك أولادها وحدهم. بقيت ترقص من أجلهم، كما كانت تفعل كلّما كانوا يقعون. بقيت تغني لهم تهويداتٍ حتى بعد أن قتلها الجنود هي أيضًا. جزّوا من شعرها الأسود الطويل ورموا بها فوق كومة الجثث المتكدسة في الشارع. لكن الأمّ قلّما اهتمت. ففي أحلامها، كانت لا تزال ترقص مع أطفالها. في أحلامها، أطفالها أبدًا لن يموتوا.

أنا شيرين الأرمنية، أرفع دمي في وجه الليل، ليكون جمرةً تحرق يد القاتل، وتُذكِّره، وتُذكِّر العالم المتواطئ بأسره بهذه الجريمة ضد الإنسانية جمعاء.

أنا شيرين الأرمنية. وأنا الفلسطينية أيضًا. أنا ابنة ميسان التي تزوّجت فلسطين، وأنجبت فلسطين، وكيلة الأرض المذهبة بالشمس، صاحبة العين التي تقاوم المخرز، لن أسلِّم مفاتيح البيوت، ولن أغلق الشرفات، ولن أغادر.

أنا شيرين الفلسطينية، رأيتني في حلمي امرأةً عجوزًا، مغمضة العينين، ترقد فوق ما يشبه السرير، في مدرسةٍ مدمَّرة. رأيت جثثًا في عقلها، جثثًا في قلبها، جثثًا فوق صدرها، جثثًا على كتفها اليمنى، جثثًا تحت جفونها المجعّدة. كانت المرأة العجوز مغمضة العينين كي تصبح رحلتها نحو العدم أسرع. كانت مغمضة العينين لئلا ترى روحها معلّقةً على حبال الغسيل، وهي تجفّ ببطء إلى جانب ثياب أحفادها، نعم، أحفادها، أولئك الملاعين الصغار الذين فاجأوها وماتوا قبلها.

أنا شيرين الفلسطينية. أخذتُ على نفسي أن أشقّ الدروب، وأفتح الغيوم، ليعبر الهواء جليلًا نقيًا صافيًا، غنيًا بعطور الياسمين ورائحة الصعتر. قُدّر لي أن أحرس الأغاني، لأشهد العودة إلى الأرض، بعد أن

يتكلّل الزمان بمجد الزمان، وتستعاد البيوت والقرى والجلول، من الجليل إلى بيت لحم ورام الله والقدس، وصولًا إلى كلّ شبرٍ أرضٍ مستباحٍ في أرض المسيح والإسراء والمعراج.
أنا شيرين الأرمنية والفلسطينية. أنا اللبنانية أيضًا. أختصر في جسمي وروحي الحروب التي استعمرتْ لبنان، وصادرته، واغتصبته، وجعلته أرضًا لأبشع أنواع الدمار. أحمل في عمري ندوب الموت، لكنّي أعاهد هذا الموت على أني سأنتصر عليه، بالأساليب وباللغات التي لا يستطيع فيها أن يخوض غمار المنافسة. أشرب خراب لبنان وجروحه، ليعود القمر يزهو فوق حرمون وصنّين والقرنة السوداء، من دون أن يعتري لحمه الأبيض جرحٌ أو هوان.
أنا شيرين اللبنانية. رأيتني أطفالًا يلعبون بمسدساتٍ ورقية في شوارع بيروت. لم يسمعوا بالـ«بلاي ستايشن» أو الـ«نينتاندو» أو أفلام «والت ديزني». كانوا يمزّقون أوراقًا بيضاء من دفاترهم، ثم يطوونها مرّةً فاثنتين فثلاثًا لتحويلها إلى أسلحة. يقلد الأطفال الحرب التي تصفر في آذانهم. الحرب تتربص بهم كغول. تنتظر ساعة يكبرون كي تلتهمهم. يحفرون الخنادق. يقفون عليها حرَاسًا، يصوّبون. يطلقون النار. يسقطون. رأيت أطفالًا يقتلون طفولتهم ومستقبلهم بمسدّساتٍ ورقية، فيما العالم يبتسم بغباء.
أنا شيرين الأرمنية، والفلسطينية، واللبنانية. أنا السورية أيضًا، والدة جميلة السورية، شهيدة الجريمة السورية. أنا الموت الذي يغلب الموت. أنا الإبرة التي ابتلعتها خالتي فاطمة، ولا تزال تجول في دمي. دمي الذي لن يكفّ عن الدوران في ذاته، وحول ذاته، إلى أن أسلّم الروح. أنا الدورة التي بدأت بالانتحار، وانتهت بالانتحار.
أنا شيرين السورية. رأيتني رجلًا ينتحب أمام منزله المدمّر في حلب. لم يكن يقول شيئًا؛ ينتحب فحسب. يتأمّل أمامه وينتحب، وهو يجلس فوق كومةٍ من الكتل الاسمنتية المتضررة التي كانت في ما مضى غرفة ابنه الأكبر. اختفت الغرفة. اختفى ابنه الأكبر أيضًا. كانت يد الرجل

التي اتكأت فوق دموعه ترتجف رغمًا عنه. يده المهزومة كانت تتعلّم كيف تستسلم لمصيرها الأسود. يد الرجل تعرّضت للنهش والترويض، ولن تشفى من ذكرياتها أبدًا.

أنا شيرين الأرمنية، الفلسطينية، اللبنانية، السورية. لن أطأطئ، لن أموت، ولن أسلّم كلّ هذا الإرث، قبل أن يطمئن دمي إلى كبريائه، وتعود دورة الحياة لتنتصر في الحياة والحلم والحرية.

أنا التي رأيت. رأيت الحرب العالمية الأولى، والحرب الثانية. رأيت الثورات الإيرانية، والثورات المصرية، وحروب الخليج، وحروب اليمن، وحروب أكراد العراق، وحروب أكراد تركيا، والحروب العربية - الإسرائيلية؛ أشقاء وأعداء يقتل بعضهم بعضًا، يقتلون أنفسهم من خلال بعضهم بعضًا؛ رأيت أمهات يتسوّلن من أجل الطعام؛ آباء لا يعودون أبدًا إلى البيوت؛ أطفالًا متناثرين أشلاء، ينتظرون ريثما يتمّ تجميع أطرافهم في توابيتهم البيضاء. رأيت رجالًا ونساء مذبوحين، صاروا أرقامًا تافهةً بعد فاصلة، ثمّ زموا طيّ النسيان. فالضحايا لا يحصون إلّا بالمئات، بالآلاف، بمئات الآلاف، بالملايين. أما من لا يبلغ مصاف هذه الأرقام الكبيرة، فلا مكان له.

رأيت، رأيت، رأيت. كم من ميتاتٍ أخرى عليّ أن أتحمّل أيتها الظلمات قبل أن يتسنّى لي الخروج أخيرًا من رحمك؟

كم من حيواتٍ بعد عليّ أن أرتي قبل أن أستحقّ الضوء؟

***

ها موزّع الأوراق يضرب من جديد، بكلّ ما أوتي من سخرية. ألم يشبع بعد؟ يلعب لعبة البوكر التي لا تنتهي، من جديد. تلك التي تلعبها عائلة شيرين منذ مئة عام.

يقولون: «الكازينو يربح دائمًا».

بالفعل.

هناك فتاتان مفطورتا القلب تقفان من الجهتين المتقابلتين من جسر الانتحار نفسه.

تقول الجدة سيرون: «الكراهية تقتل».

فترد الابنة جميلة: «الحب كذلك».

ثم تقفزان في الوقت عينه. العقود التي تمتد بينهما، ما هي إلا ضرب من الأوهام. إنه الفيلم نفسه، سواء سرّعنا المشاهد إلى الأمام أم إلى الخلف. مهما كان من أمر، فلن ننفك نعود إلى نقطة البداية. نفترض أن هناك شيئًا ما يسير تحت أقدامنا اسمه الوقت. نخال أننا نسير فوقه. نتقدم. ونخال أن العالم يتغير من حولنا. لكننا نخدع أنفسنا ليس إلا. فما نسميه الماضي والمستقبل ما هما إلا معلمان جامدان من معالم الزمن. نحن ندور حول أنفسنا فحسب، كراقصات باليه في صندوق موسيقى، نلوح بأيدينا لجمهور متخيل، من دون أن ندرك أننا سبق أن رحلنا جميعًا،

أننا

مجرد

أشباح

في

بئر

إحدى

الجدات.

انتهت.

1 حبيبتي بالتركية.

2 جامعة في هيكوري.

3 تأشيرة الزائر إلى الولايات المتحدة لغرض السياحة.

الشخصيّات الرئيسة

سيرون صرافيان: 11 نيسان 1912 عنتاب – 11 نيسان 1978 بيروت.

مارين: والدة سيرون، 1883 ديار بكر – 1916 أضنة.

نظار: والد سيرون، 1873 عنتاب – 1915 عنتاب.

أوسانا: شقيقة سيرون المفضّلة، 1900 عنتاب – 1915 الصحراء السورية.

أصلان: أخو سيرون غير الشقيق من بشير كيزلار آغا، 1916 أضنة – غير معروف.

غريغور: والد سيرون بالتبنّي، 1862 جبل موسى – 1924 القدس.

ڤارتوهي: والدة سيرون بالتبنّي، 1870 جبل موسى – 1929 القدس.

أناهيد: صديقة سيرون المفضّلة، 1912 القدس – 1948 القدس.

شفيق: والد أناهيد، 1890 القدس – غير معروف.

آقي: حبيب سيرون، 1911 القدس – 1948 مستوطنة رمات راحيل.

بسام بركات: زوج سيرون، 1894 القدس – 1982 بيروت.

فدوى: حماة سيرون 1872 القدس – 1947 القدس.

ميسان: ابنة سيرون الكبرى، 2 آذار 1946 دير ياسين –...

فاطمة: ابنة سيرون الثانية، 1948 مروحين – 1954 مروحين.

نجاة: ابنة سيرون الثالثة، 1954 بيروت – 2007 بيروت.

لوقا برصوم: زوج ميسان، 1943 بيروت –...

شيرين: ابنة ميسان، 1970 بيروت –...

نينا: صديقة شيرين المفضلة، 1970 بيروت – 2012 بيروت.

خلدون: حبيب ميسان، 1936 بيروت – 1983 بيروت.

فؤاد اليازجي: زوج شيرين، 1965 اللاذقية – غير معروف.

بولس: ابن شيرين، 1992 حلب –...

جميلة: ابنة شيرين، 6 كانون الثاني 1997 حلب – 6 كانون الثاني 2015 إسطنبول.

غمر: حبيب شيرين، 1960 بيروت –...

بشير كيزلار: حبيب جميلة، 1982 أدیامان – 2014 كوباني.

الأحداث الرئيسة
(1915-2015)

1915: المذبحة الأرمنية – تهجير الأرمن – موت نظار في عنتاب – موت هاغوب وأوسانا في الصحراء السورية – أسر بشير كيزلار آغا لمارين وسيرون.

1916: ولادة أصلان في أضنة – موت مارين – هروب سيرون – نشأة سيرون في ميتم في حلب.

1919: تبني غريغور وقارتوهي لسيرون في حلب.

1920: انتقال غريغور وقارتوهي وسيرون إلى القدس.

1924: وفاة غريغور.

1929: وفاة قارتوهي – لقاء سيرون وآقي الأول.

1930: الانفصال عن آقي – خطوبة سيرون وباسم المدبَرة.

1932: زواج سيرون وباسم.

1945: حمل سيرون الأوّل – انتقال سيرون وباسم إلى دير ياسين.

1946: ولادة ميسان.

1948: حمل سيرون الثاني – مجزرة دير ياسين – الحرب العربية الإسرائيلية – وفاة آمّي وأناهيد – الهروب إلى مروحين – ولادة فاطمة.

1954: حمل سيرون الثالث – موت فاطمة – الانتقال إلى بيروت – ولادة نجاة.

1960: اكتشاف مرض نجاة – بداية عمل ميسان في معمل الخياطة.

1961: لقاء ميسان ولوقا الأوّل.

1969: زواج ميسان ولوقا.

1970: ولادة ابنتهما شيرين.

1975: الحرب الأهلية اللبنانية.

1978: انتحار سيرون.

1980: لقاء خلدون وميسان الأوّل.

1982: وفاة باسم – إدخال نجاة إلى مستشفى للأمراض العصبيّة.

1983: موت خلدون.

1991: لقاء شيرين وفؤاد الأول – زواج شيرين وفؤاد – الانتقال إلى اللاذقية.

1992: الانتقال إلى حلب - ولادة ابنهما بولس.

1996: افتتاح بوتيك شيرين في حلب – اكتشاف شيرين لماضي سيرون – زواج نينا، صديقة شيرين المفضلة.

1997: ولادة جميلة، ابنة شيرين وفؤاد.

2005: ثورة الأرز في لبنان – لقاء شيرين وغفر الأول – اعترافات ميسان لشيرين.

2007: انتحار نجاة – الانفصال الأول عن غفر.

2011: الحرب الأهلية السورية.

2012: معركة حلب وحصارها – موت نينا في بيروت.

2014: الهروب إلى غازي عنتاب (عنتاب) – لقاء جميلة وبشير كيزلار الأول – زواج جميلة وبشير سرًا وانتقالهما إلى إسطنبول – موت بشير أثناء قتاله في صفوف داعش في كوباني.

2015: عملية جميلة الانتحارية.

استطراد غير ضروري

كانت جدتي لأمي في عداد الناجين من المجزرة الأرمنية.

في عداد الناجين، لكن ليس تماماً.

وُلدتْ جميلة ماركاريان في مدينة عنتاب الواقعة في جنوب تركيا. كانت أسرتها من العائلات الكثيرة التي تشكّل المجتمع الأرمني في تلك البلدة، في بدايات القرن العشرين. ذات يوم مشؤوم من نيسان 1915، وكانت لا تتجاوز الثالثة من العمر، عندما أجبر الجنود العثمانيون أهلها، ومئات الألوف من الأرمن، على هجر منازلهم بين ليلةٍ وضحاها. هام هؤلاء في الصحراء السورية بلا طعام ولا مياه، وتعرض كُثرٌ منهم للتعذيب والاغتصاب والضرب والاعتداء والقتل. مات أكثر من مليون شخص آنذاك. أما جميلة، فنجت.

أكزر: ليس تماماً. ثمة مبالغةٌ في زعمي أنها نجت. انتحرتْ جدتي في بيروت سنة 1978. كانت يومذاك في السادسة والستين، وكنتُ أنا في السابعة. على غرار ضحايا كُثر آخرين، هي قُتِلتْ أيضاً، ولكن مع تأخيرٍ تقني. لقد زرع المجرمون قنبلةً موقوتة داخل قلبها وروحها في ذلك اليوم اللعين. ثمّ انفجرت القنبلة بعد عقود.

هل الناجون من الحروب سوى جثثٍ حية، أو قتلى مؤجَلين؟

رأت جدتي النور سنة 1912، والدتي سنة 1946، أنا سنة 1970، وابني البكر سنة 1992. أنا جنوبية لبنانيةٌ لناحية أبي، أرمنية

وشركسيةً لناحية أمي، علمًا أن للإثنين أيضا جذورًا فلسطينية من جهة، وسورية من ثانية. أما جدي، افرام باهو، فكان من ماردين، وكانت عائلته السريانية قد عانت بدورها ويلات ترحيل الأقلّيات المسيحية في تلك البقعة وذلك الزمن. التقى جميلة وافرام بدايةً في حلب، حيث لجأت عائلاتٌ كثيرة إثر المجزرة. هناك تزوّجا، وهناك رأى خالي البكر، وعددٌ من خالاتي، النور. ثمّ انتقلت العائلة الى حي السريان في الأشرفية، بيروت، على غرارِ عددٍ كبير من السريان المشرقيين. هناك رأى بقية أولادهما النور، ومنهم والدتي، قبل أن تنتقل العائلة مرةً أخرى لتستقر في حي برج حمود ذي الغالبية السكانية الأرمنية. عندما اكتشفتُ كلّ الدماء المتنوعة التي تجري في عروقي، فهمتُ أخيرًا سبب الحرب الدائرة، منذ تكويني، بيني وبيني.

أحيانًا يحلو لي أن أتخيلنا جميعًا – أناسًا من أجيالٍ وأعراقٍ مختلفة، يعبدون آلهةً مختلفين، يتكلّمون لغاتٍ أو لكناتٍ مختلفة – عالقين معًا في نفقٍ طويلٍ من النزاعات المتتالية. نفق ملعون اسمه الشرق الأوسط، شهد، ولا يزال يشهد، من العنف والحروب والكراهية أكثر مما يمكن وصفه، من أرمينيا الى لبنان، من فلسطين الى سوريا والعراق، من دون أن ننسى الكويت ومصر واليمن وتركيا الخ. اللائحة تطول ولا تنتهي.

غالبًا ما تساءلتُ في نشأتي، بينما كنتُ أختبرُ وأرى كلّ هذين البطش والبؤس من حولي، ما إذا كان قَدَر هذه المنطقة المشؤومة أن تكون أرض شقاءٍ الى الأبد. بين مرتزقة داعش الذين ينحرون الأعناق اليوم، والجنود العثمانيين الذين زرعوا الرعب والموت لقرنٍ خلا، ما الذي تغير حقًا؟

نشأتُ في حي برج حمود. كان بيت جدي وجدتي في الجوار. وكنا نزورهما بشكلٍ شبه يومي، أمي وأنا، بعد الظهر. أذكر عن إفرام

الاسكافي وجميلة الخيّاطة، فضلًا عن حنانهما الصاعق، حزنهما المستتب. كانا حزينَين على الدوام، وخصوصًا عندما كانا يبتسمان. لكأنهما لم يكونا مخوَّلين أن يفرحا. لكأنه لا يحق لمكافحي هذه الأرض، لمتغيبيها، لمهمّشيها المخنوقة أصواتهم، أن يفرحوا.

لم تُخبر جدّتي أحدًا منّا عمّا اختبرَته وعاشته أثناء المجزرة. أفهم تمامًا لماذا. ما زلتُ حتى اليوم أجد صعوبةً في التحدث عن أغلب ما اختبرتُه أنا، وعشتُه، خلال الحرب الأهلية اللبنانية. تلك الحرب التي دمّرت طفولتي ومراهقتي (كما فعلت مع عددٍ لا يُحصى من الناس)، والتي لا تزال تردّداتها تهزّ وطني وروحي على السواء. لم أخبِر والديّ يومًا عن الرعب الذي رأيته في الشوارع، والذعر الذي شعرتُ به في الملاجئ. لم أخبرهما عن السنوات المنحورة وحالة اليأس الدائمة، وعن الجروح المفتوحة، المدفونة في داخلي كمثلِ ألغامٍ في أرضٍ قاتلة.

بعد انتحار جدّتي، طلبتُ من والدتي تعليمي الأرمنية. أردتُ إتقان لغتها. وما زلتُ حتى اليوم، كلّما تكلّمتُ الأرمنية أو أنصتُّ إلى السريانية، أشعر بحزن جميلة وافرام يخفق في صدري.

لطالما حلمتُ بكتابة هذا العمل تحيةً لهما، لكني طويلًا افتقرتُ الى الشجاعة اللازمة لفعل ذلك. كان الأمر أشبه بالقفز داخل بركانٍ في ذروة غليانه: قفزة لم أكن جاهزة لها، أو ربما غير راغبة في القيام بها. لماذا الآن؟ لأني، ولأسبابٍ غامضة، أشعر أخيرًا بالإلحاح الذي عادةً ما نشعر به قبل لحظةٍ من فوات الأوان. فقفزتُ.

لطالما وجدتُ في التاريخ – بوصفه دراسة لأحداث الماضي – الكثير من العيوب والنواقص، على رغم تقديري لأهميته. في لغة التاريخ الجافّة، يصير الضحايا إحصائيات، والسفاكون فاتحين، والاستغلاليون رابحين. تصير المنازل محض حجارة، ومساقط الرأس مواقع وأهدافًا، ويقاس البؤس كانتصارٍ أو هزيمة. يغضّ التاريخ طرْفه

عن الأيتام والمحرومين والأرامل والمغتصبين والمغتفين والمستغلين والمشرّدين والنازحين. يتجاهل الذين ذُبحوا وجُرحوا وماتوا. لا يذكر الأبرياء الذين عانوا، إلى أيّ جهة انتموا، أولئك الذين لم يكن لديهم أيّ رأي أو قرارٍ في المصائب التي أسقطت عليهم إسقاطًا. يطلق التاريخ على هؤلاء تسمية «أضرار جانبية»، وتنتقل عدسة الكاميرا الواسعة إلى مشهدٍ آخر. لكنّ هؤلاء، بالنسبة إليّ، هم أبطال الحرب الحقيقيون؛ هؤلاء الذين لا نستطيع رؤيتهم إلّا بواسطة مجهر القلب.

أصلًا لم أكنْ يومًا أيّ إعجابٍ حيال جنس المقاتلين والمحاربين والمجاهدين، الذي يُنظَر إليهم غالبًا كأبطال. كنت بالكاد أبلغ السادسة من العمر، عندما رأيتُ للمرة الأولى واحدًا منهم «يؤدي واجبه» خلال الحرب اللبنانية. بدايةً، قيد جارَنا، وهو رجلٌ مسلمٌ طيب يدعى حسين، بواسطة حبلٍ، ثم ربطه بالصادم الخلفي لسيارته. كان حسين لا يزال على قيد الحياة، يصرخ ويتلوى، حين أقلعت البي أم دبليو. شاهدناه يتخبط صعودًا فنزولًا لمزاتٍ متتاليةٍ على الطريق، الى أن صمت وصار جثةً تجرجرها الدواليب. كان العديد من أبناء الحي واقفين من على شرفات منازلهم يشاهدون الحادثة، وكأنّ التعذيب برنامجٌ تلفزيوني ترفيهي عائلي. شعرتُ بالغثيان. شعرتُ بالخزي. شعرتُ بالغضب، على الرغم من عدم فهمي، حينذاك، أسباب ارتكاب فظاعةٍ مماثلة. لاحقًا، بعد مرور سنواتٍ كثيرة، فهمتُ. وأصبح شعوري بالغثيان والخزي والغضب مضاعفًا ومبرِّرًا، يُضاف إليه إحساس هائلٌ بالمسؤولية. تلك المشاعر باتت الوقود الذي غذّى، ولا يزال يغذّي كفاحي ضد كلّ أشكال الظلم والإجحاف. جريمة حسين الوحيدة، أنه كان مسلمًا يعيش في حيٍّ بيروتيٍ ذي غالبيةٍ مسيحية، في زمنٍ كان يُنظَر فيه الى المسلمين كأعداء. أنا واثقةٌ أنّ هناك فتاةً في المقابل، شهدت على الوحشية نفسها تُمارَس في حقّ رجلٍ، ذنبه الوحيد أنّه كان مسيحيًا يعيش في أحد أحياء بيروت ذات الغالبية المسلمة.

ترى، استنادًا إلى أيّ معايير أصبح العنف يُعتبر شكلًا من أشكال البطولة؟ بعيدًا من النظرية الفلسفية التي تقول بأنّ الإنسان شرّيرٌ بطبيعته، سيكون من الصعب عدم ربط تمجيد العنف هذا، جزئيًا على الأقلّ، بواقع أنّ العديد من آلهة هذه الأرض يوصفون كمهووسين بالسلطة وحقودين ومتعطّشين للدماء. بالطبع، لا أقول هنا إن الحق يقع على الآلهة: لا يمكن لوم المخلوقات على ما رسمه فيهم خالقهم، ووسمهم به. تلك الآلهة ليست سوى انعكاس لأسوأ ما في جنسنا البشري: عوض التغلّب على خوفنا، اخترنا تأليهه وتبجيله. عوض الارتقاء بالجزء الفاسد من طبيعتنا، قزرنا تبريره بنماذج إلهية. أحد الأمثلة الصارخة على ذلك، أن الديانات التوحيديّة الثلاث تسرد قصة قتل أخٍ لأخيه منذ الجيل الأوّل للعرق البشري. سيبقى أبناء قايين وهابيل يذبح بعضهم بعضًا إلى أن نتصوّر قصة تكوينٍ أكثر رقيًا لجنسنا، ونخترع آلهةً أكثر إنسانويةً.

أو لا آلهة على الإطلاق.

لقد كان هذا الكتاب تحدّيًا يحلو لي أن أسمّيه «توقّع الماضي». مع ذلك، هو ما جعلني أدرك كيف يمكن الخيال أن يكون أحيانًا كاتب سيرةٍ أدقّ وأوفى من الذاكرة نفسها. كيف لا، والتجارب والمشاعر الإنسانية، أقلّه بالنسبة إليّ، تفوق الأحداث التي أثارتها أهميةً؟ الجروح تتغلب على الخناجر في عمقها وصمودها. هكذا، فإنّ هذا النصّ، على رغم استلهامه تاريخ عائلتي وجغرافيتها، يحفل بأحداثٍ وتواريخ وتفاصيلَ تنتمي في معظمها إلى الخيال.

وهل المتخيّل أصلًا سوى واقعٍ معلّقٍ الى حين؟

أملك ما يكفي من النزاهة الفكرية كي لا أدّعي أن وجهة نظري موضوعية في الصراعات القرويّة في هذا العمل. في جميع الأحوال، أنا لا أؤمن بالموضوعية كقدرةٍ بشرية، كما أنّي لا أكنّ قدرًا كبيرًا من

الإعجاب لمفهوم الحياد. لقد كتبتُ هذا الكتاب بلحمي ودمي. لقد حفرتُ الماضي والحاضر بأظفاري القلقة، واعتبر نفسي معنيّةً مباشرة بالحروب الأربع وبنتائجها المدمّرة، ما يحول حكمًا دون وقوفي في أيّ نقطةٍ قريبة من شيءٍ اسمه حياد. وفي حين أنّي على يقينٍ من أن ما يُسمّى واقعًا، في معظم الأحيان، ما هو إلّا وجهةُ نظرِ طرفٍ دون آخر، وفي حين أنّي أيضًا على إدراكٍ تامّ بالنزاعات والجدالات والآراء المتناقضة كافةً، المرتبطة بالقضيّتين الأرمنية والفلسطينية، وبالحربين اللبنانية والسورية، إلّا أنّي قد اتّخذتُ، عن وعيٍ وسابقِ تصوّرٍ وتصميم، موقفًا محدّدًا من كلٍّ منها. لماذا؟ لأنّ هذا الموقف، بكلّ بساطة، هو قصّة حياتي. أمّا المناطق المسمّاة رمادية، والحجج المحتملة، والسرديات المتعارضة للجهات المتناحرة، فلم تكن قطّ في صلب اهتمامي وأنا أكتب؛ جلّ تركيزي كان على البعد الإنساني والشخصي. صحيحٌ أن المواقف السياسية العامّة تختلف وتتعارض في ما بينها، لكنّ معاناة الفرد تظلّ هي هي، أيًا يكن المذنب، أيًا يكن الحافز، أيًا يكن الطرف، أيًا تكن النتيجة. الضحايا جميعهم يتشابهون: من المستحيل أن ينتصروا، حتى وإن انتموا إلى الفريق المنتصر. هم يزِنون عيون ضحايا الخصم في مراياهم. يسمعون بكاءهم ويعرفون أنّ الدموع تتفجّر من الهاوية عينها. يُتوقّع منهم تحمّل الخسائر والتزام الصمت، قامعين وجعهم في الداخل؛ الوجع الذي يتآكلهم شيئًا فشيئًا، كأنه ورمٌ سرطانيّ خبيثٌ أو مسّ شيطاني. أردتُ لهم أن يُطلقوا العنان لكلماتهم في هذه الصفحات، كمثلِ عاصفةٍ هوجاء لها أن تحقّق معجزةً مزدوجة: إطلاق سراحي من خلال قصصهم، وإطلاق سراحهم من خلال قصصي أنا.

لستُ بطوباوية. أعلم جيدًا أنّ الحروب «ضرورية» في بعض الأوقات، أو أنه لا مفرّ منها، أو أنه يمكنها حتى أن تكون مفيدة. ولكن، ما لا يمكنها أن تكونه قطّ في رأيي، هو أن تكون عادلة. على سبيل

المثل، لا يمكن أن تكون هناك «حربٌ على الإرهاب»، لأنّ الحرب هي إرهابٌ أيضًا. وليس هناك من حربٍ رابحة، طالما هناك روحٌ بريئةٌ واحدة قد زُهقت بسببها. نقطة على السطر.

لم أكتشف حتى اليوم السبب الحقيقي وراء تسمية جدّتي باسمٍ عربي. تُظهر بطاقة هويّتها اللبنانية – وهي وثيقةٌ أتمسك بها كمثلِ كنزٍ – أنّ اسمها جميلة. لكنّ والدَي جميلة أرمنيان، وتاليًا كان من المنطقيّ أكثر لو أطلقا عليها اسم سيرانوش أو سيران أو سيرون (أسماء أرمنية مرادفة لاسم جميلة)، أو أيّ اسمٍ أرمنيٍّ آخر. بعد سنواتٍ من الإستفسار حول الموضوع، حصلتُ على أجوبةٍ مختلفة، متضاربة أحيانًا، من أفراد العائلة. أحدهم أخبرني أنه كان مألوفًا في ذلك الزمن أن يُطلق الأرمن المقيمون في تركيا على أولادهم أسماء عربية أو حتى تركية. آخر أصرّ على أنه تمّ تغيير اسمها في حلب، حيث هربتْ برفقة من نجا من عائلتها إثر المجزرة. ثالثٌ ادّعى أنّ تغيير الاسم حصل في بيروت، حيث انتقلتْ إلى العيش برفقة جدّي بعد مرور سنواتٍ على زواجهما في حلب. في آخر المطاف، تصالحتُ مع اللغز. أليس هناك أصلًا العديد من القطع المجهولة والناقصة في حياة جميلة؟ الكثير من السنوات الضائعة؟ فليكن ما يكون. ما لا أعرفه، سأتولّى اختراعه.

ولكن هل يحقّ لي فعلًا أن أستخدم في هذا السياق تعبير «اختراع»؟ بالكاد. فمحيطي المباشر حافلٌ بنساءٍ خضنَ الحروب، وأخرياتٍ تحمّلنها بشجاعةٍ نادرة. نساء خسرنَ الحبّ، وأخريات خسرنَ العائلة. نساء أُجبرن على الاختيار بين عقوبتين، أو بين ظالمتين، كلّ واحدةٍ منهما أشدّ دكنةً من الأخرى. أذكر منهنّ قريبةً مسيحيةً يُحرّم ذكر اسمها لأنها هربت مع مسلمٍ سوريّ الجنسية. وقريبة أخرى

فلسطينية ارتكبت «جريمة» الزواج بدرزيّ إسرائيلي. وصديقة أرمنية أصبحت منبوذة من عائلتها لأنها تجزأت ووقعت في حبّ رجلٍ تركي.

هناك شيء من سيرون أو ميسان أو شيرين أو جميلة في داخل كلٍّ منا.

في داخلي أنا أيضًا. في داخلي أنا خصوصًا.

هذه المذاكرات العائلية المختلَقة هي تحيةٌ لهنّ جميعًا، ولكلّ شخصٍ دفع أو يدفع ثمن ولادته في أرضٍ، وانتسابه إلى دينٍ وعرقٍ، لم يخترها. سوف نظلّ ندفع هذه الأثمان إلى أن يسدد المستقبل جميع ديونه للماضي، في لعبة البوكر هذه التي تُسمّى الحياة.

جمانة حداد (صيف 2017)